أسست عام ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

AL-Waei AL-islami

العدد (٥٩١) ذو القعدة ١٤٣٥ هـ - سبتمبر ٢٠١٤ م

50 عاماً من العطاء

مجانا مع العدد براعم الإيمان

من كل فج عميق

- حملات الحج الكويتية
- الرحلات المغربية الحجازية
- طرق الحج ومسالكه
- رحلات الحج في كتب العلماء والأدباء والمستشرقين

هدية العدد
ذخائر الوعي الإسلامي (٤)

الافتتاحية

من كل فج عميق

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

جعل الله لأهل طاعته مشهدا جامعا، يسعى إليه وفد الله من كل فج عميق وإقليم، ملبين بالإجابة دعوة أبيهم إبراهيم، فالحج نعمة ومنة على الأمة، لأنه يجمع عملا على بدن، وحقا في مال، فكان إيجابه تذكيرا بيوم الحشر، في مفارقة المال والأهل، ولولا الحج وانتظام أوقاته لما عمرت طريق المسلمين بالقوافل والتجارة.

فالرحلة والارتحال، والسفر والاغتراب عن الأهل والأوطان، سطر في كتب المصنفين، ودون في صحائف الرحالين، تصف ترحالهم من بلد إلى بلد، واجتهادهم بين أيدي العلماء على الركب، فتنوعت أخبارهم، وتعددت آثارهم، حسب ما قصدوه من ترحالهم. ومن أهم هذه الرحلات وأشهرها، والسير في مناكبها، ما كان للحج لبيت الله الحرام، والتجارة بين الأنام، ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ﴾ (الحج:٢٧ و٢٨). إن ذكريات رحلات الحج التي دونها العلماء، من أشرف معالم العمر، وأعز وقائع الدهر، لأنها تحرك القلب الساكن، فترحل به إلى أشرف الأماكن، لتسترجع ذكريات شروق شمس الإسلام، وتستعيد ذكريات الرعيل الأول، وصبرهم الشديد وإيمانهم العميق. ومن يقرأ في هذه الروايات المسطورة في كتب الرحلات، سيجد ما يؤكد مدى الدقة فيما كتبوه وقيدوه، من أمانة علمية، ونفوس دينية، وإن اختلفت الجهات، وتعددت المسافات، بحرا وبرا، شرقا وغربا، يعودون بالذكريات، والفوائد والإفادات، ما بين منظوم ومنثور، ينقلونها لقومهم وللتاريخ. ومن عظيم الفائدة، وجليل العائدة، ما فيه عبرة لأولي الأبصار، وفيما سبق من الأخبار، شكر الله صنيعهم ومساعيهم، بالاعتناء بهذه الرحلات، على اختلاف أعصارهم، وتباعد أمصارهم.

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
في دولة الكويت مطلع كل شهر عربي
العدد ٥٩١ | ذو القعدة ١٤٣٥ هـ
العام الواحد والخمسون
سبتمبر ٢٠١٤ م

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

سكرتير التحرير
سليمان خالد الرومي

التحرير
عبادة السيد نوح

الإخراج والجرافيك
أبورواش زكي محمد
مراد الموصل

الإشراف الفني
الشركة العصرية
للطباعة والنشر والتوزيع

المراسلات
رئيس التحرير – مجلة الوعي الإسلامي
صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧ ـ
الكويت – هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ – ٢٢٤٧٠١٥٦
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
للإعلان : ١٨٤٤٠٤٤ داخلي: ٣٠١
البريد الالكتروني:
info@alwaei.com
الموقع الالكتروني:
www.alwaei.gov.kw
مكتب مصر : دار الإعلام العربية–٤٣ شارع دجلة – متفرع من شارع جامعة الدول العربية – المهندسين – الدور الأول – مكتب ١٠٤
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٣٦٠٤٣
alwaei@arabmediahouse.net

المجلة غير ملزمة
بإعادة أي مادة تتلقاها للنشر.
والمقالات لا تعبر بالضرورة
عن رأي المجلة.

في هذا العدد

مهما تنوعت الرحلات واختلفت، فإن أعظم رحلة يقوم بها إنسان هي تلك الرحلة التي تسبق مشاعره فيها جوارحه، وترنو إليها روحه سابقة جسده، ويهيم بها فؤاده قبل الشروع فيها. ولا تجتمع هذه الصفات إلا لقاصدي البيت العتيق للحج

٧٠

معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية

٧٦

الطفل غرس والدين..وثمار تربية

٨٠

الاقتصاد الإسلامي الأخضر

٨٨

فلسطين الثروة الباقية

التوزيع وكيل التوزيع: شركة الشبكة الدولية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع هاتف: ٢٤٩١٥١٠٦- ٢٤٩١٥١٠٧ (٠٠٩٦٥) – فاكس : ٢٤٩١٥١٠٩ (٠٠٩٦٥)

- مصر – القاهرة – شارع الصحافة – جريدة أخبار اليوم. – ت: ٢٥٧٨٢٧٠٠ (٠٠٢٠٢) ف: ٢٥٧٨٣٥٤-(٠٠٢٠٢)
- اليمن – صنعاء – الدار العربية للنشر والتوزيع ت – ف: ٣٣١٧٩٧ (٠٠٩٦٧)
- لبنان – شركة نعنوع الصحفية – ت: ٦٥٣٢٥٩(٠٠٩٦١١) ف: ٦٥٣٢٦٠
- سوريا – دمشق – برامكة – ص.ب ١٢٠٣٥ – ت: ٢١٢٤٨٣١ (١١ ٠٠٩٦٣) ف: ٢١٢٨٦٦٤ – المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
- الأردن – عمان – شركة وكالة التوزيع الأردنية – ص.ب ٣٧٥ . رمز بريدي ١١١١٨ – ت: ٤٦٣٠١٩١(٠٠٩٦٢٦) ف: ٥٣٣٧٧٣٣
- المغرب – الدار البيضاء – ص.ب ١٣٦٨٣ – ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس – ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢١٢) ف: ٢٢٤٩٥٥٧ – الشركة الشريفية
- مملكة البحرين – المنامة – ص.ب ٣٢٦٢ – ت: ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف: ٧٢٣٧٦٣ – مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
- الإمارات العربية المتحدة – ت: ٢٦٨٣٨٥٣ ٠٠٩٧١٤ – شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع
- المملكة العربية السعودية – الرياض – ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ – ت: ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف: ٤٨٧١٤٦٠ – الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع والصحف
- سلطنة عُمان – مسقط – ص.ب ٤٧٣ العذيبة . رمز بريدي ١٣٠ – ت: ٢٤٤٩٣٢٠٠ (٠٠٩٦٨) ف: ٢٤٤٩٣٣٠٠ – مؤسسة العطاء للتوزيع
- قطر – الدوحة – ت: ٢٤٤٩٣٣٠٠ (٠٠٩٧٤) دار الشرق للصحافة والطباعة والنشر.
- ماليزيا– شركة – المصطفى ميديا جروب سندرين برحد – ت– ٣٣٧١١٩٦٦ (٠٠٦٠٣)
- الجزائر – شركة ام بي سي ت: ٣١٩٠٩٥٩٠(٠٠٢١٣)
- تونس – الشركة التونسية للصحافة ت: ٧١٣٢٢٤٩٩ (٠٠٢١٦)
- المملكة المتحدة – لندن – شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار

●الكويت : ٥٠٠ فلس ●السعودية: ٥ ريالات ● البحرين : ٥٠٠ فلس ● قطر : ٥ ريالات ● الإمارات : ٥ درهم ● سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة ●الأردن:دينار واحد ● مصر : ٢ جنيه ●اليمن : ١٠٠ ريال ●لبنان: ٢٠٠٠ ليرة ● سوريا: ٣٠ ليرة ● المغرب : ١٠دراهم ● الجزائر: ٤ دينار جزائري ●تونس: دينار واحد تونسي ● المملكة المتحدة: ١,٥ جنيه استرليني ● باقي دول العالم : ٣ دولارات أمريكي أو مايعادلها.

الوعي الإسلامي
مجلة كويتية شهرية جامعة

المحتويات

٣	**الافتتاحية** / من كل فج عميق	فيصل يوسف العلي
٦	**ملف العدد** / من أدب الرحلات.. رحلات الحج نموذجا	د. عبد العزيز جامع
١٠	رحلات الحج في كتب العلماء والأدباء والمستشرقين	أحمد العساف
١٤	رحلات أهل العلم في الحج	عبد الكريم خضير
١٨	رحلات الحج المغربية.. لذة التقصي وأمانة النقل	د. عبد الهادي التازي
٢٠	الرحلات المغربية الحجازية	د. أحمد عيساوي
٢٤	الحفيان: طرق الحج القديمة ساهمت في التحضر	محسن عبدالفتاح
٢٦	طرق الحج ومسالكه	تركي النصر
٣٢	حملات الحج الكويتية	التحرير
٣٨	طريق الحج من إسطنبول إلى مكة	-
٤٠	القصيدة الذهبية	العلامة مجد الدين البغدادي
٤٦	كتب المناسك	رشيد الحسن - ياسين كتاني
٤٨	**دراسات**/ طب العلاج الطبيعي في المنظور الإسلامي	د. جمال الدين الفاروقي
٥٢	مقصد التعارف وأثره في تقوية النسيج الاجتماعي	د. إبراهيم مهنا
٥٥	أسباب الانبهار بالغرب وتداعياته	أحلام عباسي
٥٨	لغة وأدب/ القول المأثور في الصواب المهجور (٢٤)	عبد الله أيت الأعشير
٦٠	نحو مشروع قومي لإنشاء شهادة اللغة العربية الدولية	محمد عويس
٦٢	الله كريم	مياسة النخلاني
٦٣	حين تحب الناس جميعا	نجاح سرور
٦٤	رؤى مغربية جريئة في مسألة التعريب	محمد سعيد صمدي
٦٧	**قرآن**/ لغة الجسد في القرآن الكريم	صلاح رشيد
٧٠	**أنباء الكتب**/ معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية	د. طاهر خذيري
٧٤	**أسرة**/ الأدوار الأسرية في مراحل الطفل العمرية	د. مراد زهوي
٧٦	الطفل غرس والدين.. وثمار تربية	صبحة بغورة
٧٨	أدب الطفل وخطاب الهوية	د. أحمد يحيى
٨٠	**اقتصاد**/ الاقتصاد الإسلامي الأخضر	د. عادل غلام
٨٣	**فكر**/ العقل في ضوء الوحي	خالد برادة
٨٤	**دعوة**/ الإسلام.. والخلاص الفردي	نجلاء محفوظ
٨٦	**خواطر**/ رحلة البحث عن الحق	د. محمد علي يوسف
٨٨	**قضايا**/ فلسطين الثروة الباقية	شهاب الدين المحمدي
٩٠	**كنوز الذاكرة** / ماذا يريدون من وراء نشر الإلحاد	عبد الباقي نعيم
٩٢	**فتاوى الوعي**	د. محمود الكبش
٩٤	**بريد القراء**	علاء عبدالفتاح
٩٦	**ينابيع المعرفة**	تركي النصر
٩٨	**مسك الختام**/ الحج عبادة الأمة	السنوسي محمد

كلمة العدد

إلى البيت العتيق

من كل فج عميق؛ ينطلق المسلمون يلبون دعوة أبيهم إبراهيم.. يؤدون الفريضة؛ من استطاع إليها سبيلا.. انطلقوا قديما يشقون أمواج البحار، أو في قوافل على ظهور الإبل، يتحملون المشاق طيلة الشهور والأيام.. يتعرضون لا لنقص ماء وغذاء فحسب، بل لنهب لصوص الطرق أيضا، ولخطر التيه في الصحراء، حيث العواصف العاتية والشمس الحارقة.. لكن كل تعب الرحلة يتبدد تماما حينما تلوح مكة من بعيد، ويتراءى البيت العتيق.

يحفظ التاريخ لنا بالوثائق والخرائط رحلات الحج القديمة، فنعرف منها كيف بدأت، وبماذا مرت، ومتى تطورت، وكيف.. وفي الكويت التي اعتبرت محطة مهمة على طريق الحج، وثق كتاب «حملات الحج الكويتية» الصادر قبل ٤ سنوات، كل هذه التفاصيل.

فعرفنا من خلاله أنه فقط في عام ١٩٥٤ توقفت حملات الحج على ظهور الإبل نهائيا، واتخذت حملات الحج الكويتية السيارات وسيلة للنقل، فصارت أيسر قليلا، وإن بقيت المشقة، وبقيت معها متعة أداء الفريضة، مع التوسعات المستمرة للحرمين الشريفين.. تسابق المسلمون منذ نزلت الآيات الكريمات بالأمر الإلهي ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (الحج:٢٧). وسيستمرون إلى يوم الدين يلبون النداء: لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.

التحرير

الاشتراكات

- داخل الكويت : للأفراد ٧,٥ دنانير ـ للمؤسسات ١٥ دينارًا كويتيًا
- دول العالم : للأفراد ٢٠ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
- الدول العربية : للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).
- للمؤسسات: ٢٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).

ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)

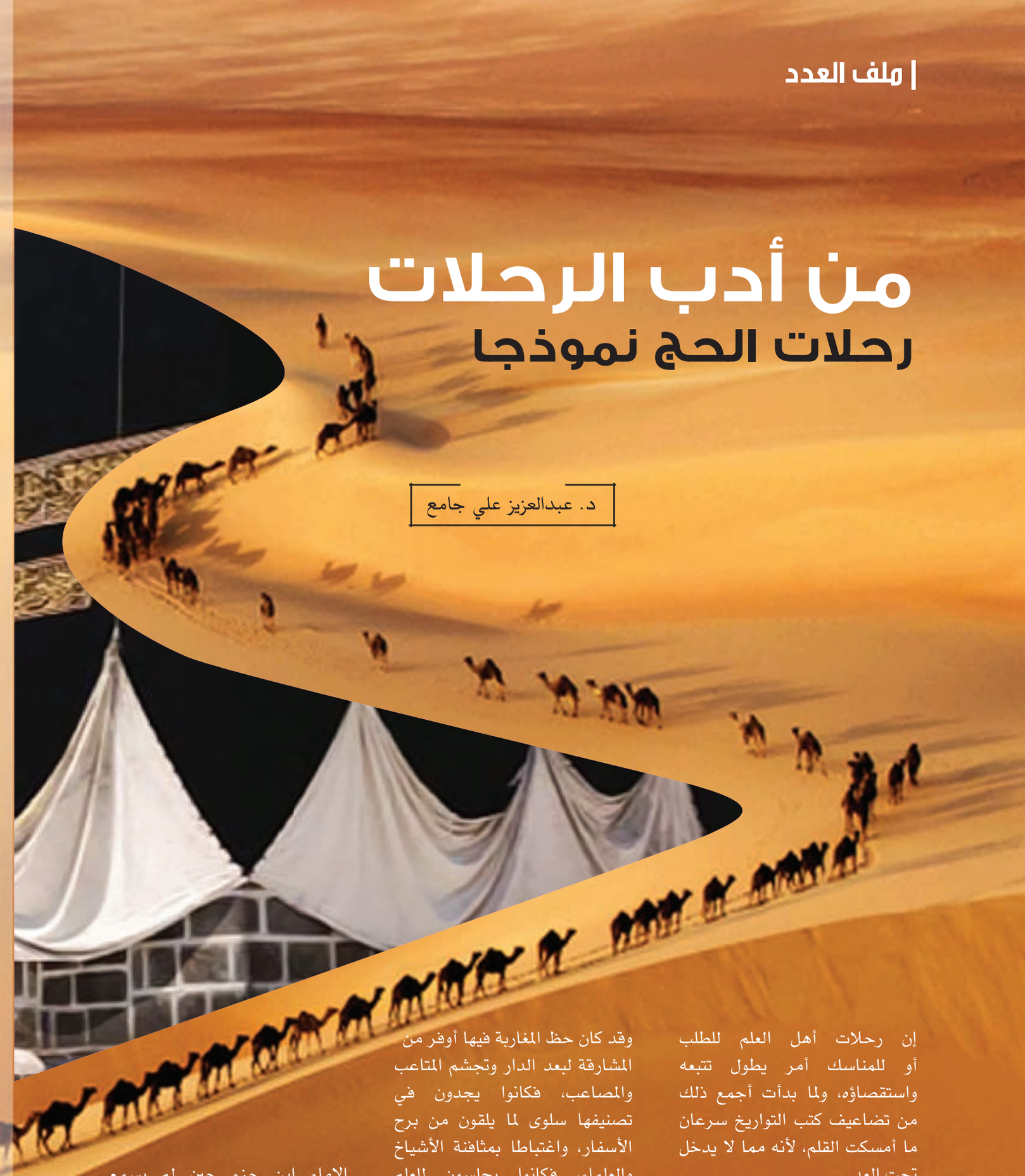

من أدب الرحلات
رحلات الحج نموذجا

د. عبدالعزيز علي جامع

إن رحلات أهل العلم للطلب أو للمناسك أمر يطول تتبعه واستقصاؤه، ولما بدأت أجمع ذلك من تضاعيف كتب التواريخ سرعان ما أمسكت القلم، لأنه مما لا يدخل تحت العد..

وستجد في مثاني كتب السير وما زبره المؤرخون في مصنفاتهم ما هو فوق الوصف.

فمنهم من أفردها بالتصنيف استقلالا كابن جبير، ومنهم من ذكرها تبعا.

وقد كان حظ المغاربة فيها أوفر من المشارقة لبعد الدار وتجشم المتاعب والمصاعب، فكانوا يجدون في تصنيفها سلوى لما يلقون من برح الأسفار، واغتباطا بمثافنة الأشياخ والعلماء، فكانوا يجلسون للعلم والتعلم، ويأتون بجديد مصنفات المشارقة. فمن لم يتمكن من الرحلة لعارض وغيره، فاته من النصيب ما يستحق فيه العزاء!!

فقد نعى العلماء والحفاظ على الإمام ابن حزم حين لم يسمع بالترمذي -محمد بن عيسى- الإمام وقذه المؤرخون من كل جانب.

قال الذهبي في «ميزان الاعتدال»: «الإمام -يعني الترمذي- الحافظ العلم، صاحب الجامع، ثقة مجمع

عليه، ولا التفات إلى قول أبي محمد ابن حزم فيه: إنه مجهول، فإنه ما عرف ولا درى بوجود «الجامع» ولا العلل». انتهى بتصرف يسير.

وقال الحافظ في «تهذيب التهذيب»: «وأما أبومحمد ابن حزم فإنه نادى على نفسه بعدم الاطلاع، فقال في كتاب «الفرائض» من «الإيصال»: محمد بن عيسى بن سورة مجهول!، ولا يقولن قائل: لعله ما عرف الترمذي ولا اطلع على حفظه ولا تصانيفه، فإن هذا الرجل قد أطلق هذه العبارة في خلق من المشهورين من الثقات الحفاظ كأبي القاسم البغوي، وإسماعيل بن محمد الصفار، وأبي العباس الأصم، وغيرهم، والعجب أن الحافظ ابن الفرضي ذكره في كتابه «المؤتلف والمختلف»، ونبه على قدره، فكيف فات ابن حزم الوقوف عليه» انتهى.

قال العلامة أحمد شاكر معلقا: وأنا أظن أن هذا تحامل شديد من الحافظ على ابن حزم.. اهـ.

وكان عذره في ذلك كعذر غيره فإن «سنن الترمذي» و«ابن ماجة» كما نص الذهبي في «السير» لم تدخل الأندلس إلا بعد وفاته في (٤٥٦هـ) أي بعد مائتي عام من وفاة الترمذي!

وهذه من الغرائب، لأن الحافظ ابن عبدالبر -وهو عصري ابن حزم- يذكر الترمذي في سنده في كتاب «التمهيد» مع أنه لم يبرح الأندلس كأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي (ت٤٣٧هـ) إمام القراءات الشهير.

فائدة: أفاد ابن بسام في «الذخيرة» وابن بشكوال - بفوت يسير - في «الصلة» أن أول من أدخل «سنن الترمذي» إلى الأندلس هو أبوحفص عمر بن الحسن الهوزني في (٤٤٠هـ) وانظر «المغرب في حلى المغرب» لابن سعيد.

ولما كانت هذه أيام الحج ارتأيت أن يقتصر المقال على «رحلات الحج» وما صنفه العلماء والأدباء في ذلك، فرأيته -هو الآخر- يطول فاختصرت الكلام على طائفة مختارة من رحلات المتقدمين والمعاصرين. وأرجو أن ينال نفعه القارئ الكريم.

رحلة ابن جبير

«اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك» ط، دار صادر وحققه د. حسين نصار، لأبي الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي الشاطبي البلنسي.

ذكره حاجي خليفة في «كشف الظنون» باسم «رحلة الكناني»

ولد في «بلنسية» Valencia بالأندلس عام (١١٤٥م-٥٤٠هـ) . حفظ القرآن صغيرا ودرس الفقه والحساب واللغة والأدب، وكان شاعرا وناثرا، وله ديوان شعر يسمى «نظم الجمان في التشكي من إخوان الزمان». وله أيضا «نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح» (نثر)، عمل كاتبا في غرناطة في أيام أبي سعيد عثمان بن عبدالمؤمن الموحدي أمير «الموحدين». واشتهر برحلاته الكثيرة وتدوينه لها:

رحلته الأولى: (عامان وثلاثة أشهر) وكانت عام ٥٧٩هـ من غرناطة إلى سبتة ومنها بحرا إلى الإسكندرية ثم إلى مكة والمدينة والكوفة وبغداد والموصل وحلب ودمشق، ثم ركب البحر إلى جزيرة صقلية عائدا إلى غرناطة عام ٥٨١هـ، وهي رحلته التي دون فيها مشاهداته في المناسك.

وله رحلة ثانية: إلى بلاد الشام، حيث صلاح الدين الأيوبي يجالد النصارى باسترداد بيت المقدس إلى حظيرة الإسلام.. كانت هذه الرحلة عام ٥٨٥هـ، وكان ابن جبير محبا لصلاح الدين وله فيه شعر.

والرحلة الثالثة: قام بها سلوة لحزنه من فراق زوجته، فأبحر من سبتة إلى القاهرة والشام ثم توفي رحمه الله بالإسكندرية عام ٦١٤هـ، ويرى شوقي ضيف أن مسجد سيدي جابر في «الإسكندرية» هو مسجده، وأنه تحرف على العامة بمرور الزمن فسمته -سيدي جابر-!!

ومن شعره:

لا تغترب عن وطن
واذكر تصاريف النوى
أما ترى الغصن إذا
ما فارق الأصل ذوى

ترجم له لسان الدين الخطيب في «الإحاطة في أخبار غرناطة» فقال: «إنه من علماء الأندلس بالفقه والحديث والمشاركة بالآداب، وله الرحلة المشهورة» اهـ. ولمزيد من أخباره انظر «نفح الطيب» للمقري.

ويذكر العلامة شوقي عبدالسلام ضيف رحمه الله في «الرحلات»: «ورحلة ابن جبير تقص ما شاهده في طريقه إلى حجه وعودته منه، وهي مكتوبة بشكل مذكرات يومية، فمع كل مشهد وكل بلدة التاريخ باليوم والشهر. ويظهر أنه كتبها في أوراق منفصلة، ولم يجمعها بنفسه بل جمعها بعض تلاميذه ونشرها بعد وفاته باسم «تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار» اهـ. وبالجملة فالرحلة مكتوبة بأسلوب سهل غير متكلف، وفيها شعور صادق.

رحلة ابن السبتي

«ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة» طبع بتونس، بتحقيق العلامة محمد الحبيب بن الخوجة، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهري السبتي (٦٨٥-٧٢١هـ) وينسب إلى سبتة المغربية!! -فك الله أسرها- وعاش في أيام دولة بني مرين وبالتحديد في خلافة أبي سعيد عثمان المريني (ولي بين ٧١٠-٧٣١هـ).

درس على شيخ العربية أبي الحسين ابن أبي الربيع وأبي الحسن علي بن الخضار الكتامي والأديب الشاعر أبي الحكم مالك ابن المرحل المشهور صاحب النظم في الأمثال، وغير هؤلاء. وكانت فاس يومئذ غاصة بالعلماء، ومع ذلك رحل شرقا للحج والاستزادة من العلم، وكتب رحلته

المشار إليها ثم قفل راجعا إلى غرناطة، وعقد بها مجالس مشهودة، فاستدعاه السلطان إلى المغرب، وعينه إماما وخطيبا للجامع العتيق بمراكش، ثم استقدمه إلى فاس وجعله من خاصته، وكان معظما مقبول الشفاعة، وبقي كذلك إلى أن توفاه الله، ودفن بمقبرة المدينة.

وروى عنه العلم: محمد بن عبدالرازق (ت٧٤٩هـ) الذي كان يقرئ الموطأ والبخاري في القرويين، وأبوالبركات محمد بن الحاج البلفيقي(ت٧٧١هـ) الذي عده ابن خلدون شيخ المحدثين والأدباء، وعبدالمهيمن الحضرمي (ت٧٧٩هـ) الأديب الشاعر.

وللإمام السبتي مصنفات كثيرة كانت محل ثناء عاطر من العلماء:

ذكره لسان الدين بن الخطيب في «الإحاطة» فقال: «كان واسع الأسمعة، عالي الإسناد، صحيح النقل، أصيل الضبط، تام العناية بصناعة الحديث، قيما عليها، بصيرا بها، محققا فيها، ذاكرا فيها للرجال». وابن فرحون في «الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب»، ذكره قريبا من ذلك، فأشار إلى تضلعه من العربية والفقه والأدب والتاريخ والقراءات.

وأما ابن خلدون فقال عنه: «كبير مشيخة المغرب، وسيد أهله، وشيخ المحدثين والرحالة».

وقال الحافظ ابن حجر في «الدرر الكامنة»: «واحتفل في صباه بالأدبيات حتى برع في ذلك، ثم رحل إلى فاس، فأقام بها وطلب الحديث فمهر فيه، وصنف الرحلة المشرقية في ست مجلدات، وفيه من الفوائد شيء كثير».

وقال الذهبي في «سير أعلام النبلاء»: «ولما رجع من رحلته سكن سبت ملحوظا عند العامة والخاصة» ورحلته هذه غزيرة الفوائد تستحق أن تفرد لمقالات متتابعة، وبها غرائب وعجائب!

ذكر رحمه الله: أنهم عندما كانوا في الطريق إلى مكة بعد الإحرام وعند قرية رابغ كانت الغزلان والأرانب تمر بين جمال القافلة وهي في غاية الأمن وعند عودتهم محلين تختفي.!!

رحلة ابن بطوطة اللواتي الطنجي: ت٧٧٩هـ «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» تحقيق د. عبدالهادي التازي. ذكر في رحلته ٦٠ صفحة فيما يتعلق بالحرمين الشريفين. وسأفرد لها مقالات تأتي تباعا فترقبها ولا تكن عجلا!

الرحلة الذهبية

لسلطان مالي (منسي موسى ١٣٠٧-١٣٣٢م) وهي وإن لم يصنف لها استقلالا فقد ذكرها المؤرخون لشهرتها وذيوعها. فقد خرج السلطان موسى يريد الحج ومعه آلاف من الحاشية وأحمال من الذهب يوزعها على المارة حتى رخص سعر الذهب في مصر، على ما ذكره النعيمي في «الدارس»، ويذكر ابن خلدون وابن حجر: أن «منسي موسى» حمل معه من بلاده للإنفاق على الرحلة مائة جمل من التبر، أي من الذهب، في كل جمل ثلاثة قناطير!! ووقعت حوادث مشهورة ودونت في مصادر التاريخ.

رحلة الورثيلاني

«نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار». للحسين بن محمد السعيد الورثيلاني - قبيلة ورثيلان قرب بجاية - المالكي المؤرخ، وذكر في رحلته ما شاهده من الأمكنة ومن اجتمع بهم من الأعيان في حجته سنة ١١٧٩هـ، ويعنى برحلته بوصف الآثار من المساجد والأودية والجبال والآبار وغيرها، ومن لقيه من العلماء.

الرحلة العياشية لأبي سالم العياشي (ت١٠٩٠هـ) يذكر من لقي من الأعيان والعلماء ويترجم لهم بإسهاب.

رحلة النابلسي

«الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز» لعبدالغني ابن إسماعيل النابلسي، وتوفي بعد (١٢٠٠هـ)

رحلة ابن مليح: أبي عبدالله محمد بن أحمد القيسي الشهير بالسراج «أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب»، وفيها فوائد، وفيها نفس أهل العلم وآداب وأشعار.

«**مرآة الحرمين**»: اللواء إبراهيم رفعت باشا. وهي قبل أكثر من ثمانية عقود، وفيها فوائد وملح. ثم «الرحلة السعودية الحجازية النجدية» لمحمد سعيد العوري، قاضي بيت المقدس، وفيها فوائد ومسائل في المناسك.

رحلة الشيخ صديق حسن خان: لأبي الطيب محمد صديق حسن خان القنوجي ابن الإمام المشهور. وكانت في ١٢٨٥هـ، وكانت من ممباي -في الهند- إلى جدة. استغرق سفره ثمانية أشهر، وعامة هذا الكتاب في المناسك.

رحلة خير الدين الزركلي

صاحب «الأعلام»، أشهر من أن يذكر. له كتاب «ما رأيت وما سمعت»، وهو عن رحلته الأولى من دمشق إلى فلسطين فالحجاز، وطبع سنة ١٩٢٣م.

رحلة شكيب أرسلان

«الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف»، وهي المسماة بـ«الرحلة الحجازية» ط. المنار، بعناية السيد رشيد رضا. للأديب الكبير أمير البيان شكيب أرسلان، ويذكر في مقدمتها: وبعد: فقد مضت علي حجج كثيرة وأنا أهم بأداء فريضة الحج، والعوائق تعوق، والموانع من حول إلى حول تحول، إلى أن يسر الله بلطفه وحسن توفيقه علي بأداء هذا الفرض في سنة ١٣٤٨هـ.. فكان قصدي إلى الحجاز من لوزان بسويسرة عن طريق نابولي بإيطالية، إذ ركبت منها البحر على باخرة إنكليزية إلى بورسعيد... الخ، ثم الحجاز عن طريق رابغ.. إلى أن قال: وقد وجدت مناسبا أن أنشر ما ارتسم في مخيلتي من هذه

المشاهد، وما انطبع في لوح دماغي من مناظر تلك المشاعر المباركة والمعاهد، مقرونا بما يعن لي من الآراء، مشتملا على ما عندي من الملاحظات... ثم يقول: هذا ولما تسنى إكماله، وبلغ الإبدار هلاله، رأيت أن أتوجه باسم جلالة الملك الهمام، الذي هو غرة في جبين الأيام، عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتها، تذكارا لجميل الأمن الذي مد على هذه البلدان سرادقه، وعرفانا لقدر العدل الذي وطد فيه دعائمه، وناط بالإجراء مواثقه... الخ كلامه.

وتكلم في رحلته عن مكة المكرمة وصفاتها الحسية والمعنوية، تضاريسها ومياهها في الجاهلية و الإسلام، وتناول باقي أصقاع الحجاز ومدنه، ونجد واليمن، وفي سياق كلامه عن العمران أكد أن الإسلام هو دين الحضارة والرقي وذكر أمثلة بحضارة قرطبة والأندلس، ويجدر بالذكر هنا أن شكيب أرسلان زار الأندلس أكثر من مرة، وألف فيها كتبا كثيرة.

وذكر أيضا شيئا من حضارة النيجر وتنبكتو وبلاد السودان (مالي) وهو ينقل عن ابن جبير كثيرا في وصفه للحجاز.

الرحلة الحجازية

لمحمد لبيب البتنوني (ت ١٩٣٧م) وهو أديب مصري مشتغل بالأدب والتاريخ، وكتابه هذا تسجيل لرحلة الخديوي عباس حلمي باشا برفقة أعيان الدولة مثل أحمد شفيق باشا المؤرخ محمد شاكر (وكيل مشيخة الأزهر) والذي يعتبر أول من شغل منصب قاضي قضاة مصر والسودان، وهو والد الإمامين الكبيرين أحمد ومحمود شاكر. وكانت الرحلة عام (١٩٠٩م) وتخلف عن هذه الرحلة أحمد شوقي لعذر ألم به، ولكنه سجلها بقصيدة طارت في الآفاق وهي «إلى عرفات».

تنبيه مهم: جاء في الرحلة: «إن الكسوة كانت تصنع في القاهرة سنويا، وعند الانتهاء منها يعمل لها موكب عظيم في نحو منتصف شهر ذي القعدة، يحضره جناب الخديوي أو من ينوب عنه، وينتهي بها الموكب إلى مسجد الحسين، حيث تسلم في مجلس يعقد في المسجد في حضور أمير الحج للسنة المرسلة فيها» اهـ!!

ومن المعلوم تاريخيا أن السلطان علي دينار رحمه الله (ت١٣٣٥هـ-١٩١٦م) هو من اشتهر عنه كسوة الكعبة المشرفة والمحمل، فهل كان ذلك يتم في القاهرة على نفقته ثم يحمل إلى الكعبة، أم الذي ذكره البتنوني من أمر الخديوي هو كسوة ومحمل آخرين؟ لم يظهر لي جوابه.. وأرجو من صديقي البحاثة د. خالد محمد فرح أن يشفينا جوابا.

رحلة علي الطنطاوي

لفقيد الأدب العلامة علي الطنطاوي سقى الله ثراه، وساقها بأسلوب فائق الحسن، كعادته رحمه الله.

رحلة محمد بهجة البيطار: علامة العراق المشهور، رحمه الله، له «الرحلة الحجازية»، وهو تلميذ العلامة الألوسي رحمه الله.

رحلة الإمام أبي الأشبال أحمد محمد شاكر

لم يفرد لها مصنفا مستقلا، وإنما أشار إلى مشاهدته في بلاد الحرمين سنة حجه. ومع أن هذا ليس من شرطي في هذه المقالة إلا إني سأذكرها لمسيس الحاجة إليها.

قال معلقا على حديث أبي سعيد في (سنن الترمذي:١/٤٣٢ ط/ الحلبي): «أيكم يتجر على هذا.. فقام رجل فصلى معه» ونقل كلام الشافعي في «الأم» وكراهيته له. وكلام مالك في «المدونة» والنهي عنها.

وقول القاضي أبي بكر بن العربي في «عارضة الأحوذي» ثم قال: «والذي ذهب إليه الشافعي من المعنى في هذا الباب صحيح جليل، ينبئ عن نظر ثاقب، وفهم دقيق، وعقل دراك لروح الإسلام ومقاصده... توحيد كلمة المسلمين وجمع قلوبهم على غاية واحدة.. وهي إعلاء كلمة الله، وتوحيد صفوفهم في العمل لهذه الغاية.

ثم قال: وقد رأى المسلمون بأعينهم آثار تفرق جماعاتهم في الصلاة، واضطراب صفوفهم، ولمسوا ذلك بأيديهم..

بل قد بلغنا أن هذا المنكر كان في الحرم المكي، وأنه كان يصلي فيه أربعة يزعمونهم للمذاهب الأربعة، ولكنا لم نر ذلك، إذ إننا لم ندرك هذا العهد بمكة، وإنما حججنا في عهد الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود، وسمعنا أنه أبطل هذه البدعة، وجمع الناس في الحرم على إمام واحد راتب، ونرجو أن يوفق الله علماء الإسلام لإبطال هذه البدعة من جميع المساجد في البلدان بفضل الله وعونه، إنه سميع الدعاء» انتهى.

● هذه المقالة: نشرت قبل عامين في صحيفة «الأحداث» الغراء.

رحلات الحج في كتب العلماء والأدباء والمستشرقين

أحمد بن عبدالمحسن العساف

لأدب الرحلات مكانة عالية بين التصانيف المختلفة، وما ذاك إلا لما يحويه هذا التأليف من فوائد يندر اجتماعها في موضع آخر؛ ولذلك تجد إقبالا من أهل غالب الفنون، فلكتب الرحلات عناية بالشؤون الدينية الخاصة بطريق الرحلة، واهتمام بالأوضاع الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والعلمية، لقاطني الديار التي يمر بها الرحالة، وفيها احتفال بالغرائب والعجائب، وحرص على ملاقاة من يستحق اللقاء من العلماء والأدباء، وإلمام بتاريخ المدن وأسماء البلدان وأخبارها، إضافة إلى أن طابعها يتسم بالإمتاع والمؤانسة، وما أجمل رفقة كتب الرحلات إبان السفر، أو حين انشغال الذهن، ففيها ترويح آمن، ومعلومات لطيفة لا تجلب الملل للناظر فيها.

ومهما تنوعت الرحلات واختلفت، فإن أعظم رحلة يقوم بها إنسان هي تلك الرحلة التي تسبق مشاعره فيها جوارحه، وترنو إليها روحه سابقة جسده، ويهيم بها فؤاده قبل الشروع فيها. ولا تجتمع هذه الصفات إلا لقاصدي البيت العتيق للحج والعمرة؛ ثم اهتبال فرصة القرب لزيارة المدينة النبوية والصلاة في مسجدها، ويا لها من رحلة تستعذبها الأرواح، وتستروح النفوس عبيرها، وتظل ذكراها الجميلة عالقة في ذهن منشئها زمنا طويلا.

وقد ألف بعض العلماء والأدباء

والبلدانيين والمؤرخين والمستشرقين كتبا عن رحلاتهم إلى الحج، فبعضها كتاب خاص عن رحلة الحج فقط، وبعضها كتاب رحلة عامة ضمنها مؤلفها حديثا عن رحلته إلى الحج والحجاز. ويرجع التأليف في هذا الباب إلى القرن السادس الهجري. واشتغال الأدباء به أكثر من اشتغال العلماء، لأن الأدباء يتوسعون في العبارة، ويكتبون عن الحادثة الواحدة صفحات طويلة ماتعة بسبب ما حباهم الله من أدب الدرس؛ والقدرة على تشقيق الكلام وإجادة الوصف، وهذا ما لا يتوافر لدى العلماء الذين يحسبون حساب الكلمة الواحدة، وليس لكثير منهم التفات نحو العبارات البلاغية والبيان الزائد على حد الإفهام؛ إضافة إلى انصرافهم نحو علم المناسك والأحكام، حيث منفعته أعظم وله الأولوية على غيره.

واتسعت خريطة الكتابة عن رحلات الحج حتى شملت مؤلفين من الأندلس والمغرب، ومصر والشام، والهند واليابان، وتركيا وغيرها من عدة بلاد أوروبية طبقا لجنسية المؤلف أو مكان إقامته. واختلفت أحوال المؤلفين ما بين رحلة شخصية، أو مرافقة لأمير أو ملك، أو على رأس وفد دولة أو أمير لموكب حجها، أو ضيف على حكام الحجاز، أو صاحب مشروع سياسي كما في كثير من رحلات المستشرقين. وقد يسر الله أن انبرى بعض الباحثين والمؤسسات الثقافية لخدمة ونشر بعض كتب رحلات الحج، ويبقى الجهد الأعظم في استقصاء جميع ما كتب عن رحلات الحج، ونشره محققا؛ ووضع فهارس كاشفة تعين القارئ على بلوغ مراده، ومعرفة المخطوط منها والمطبوع أو المفقود.

وشملت عناية بعض المؤلفين تتبع كتب رحلات الحج كما فعل الأستاذ الشيخ حمد الجاسر - رحمه الله - في مجلد واحد أسماه «أشهر رحلات الحج»، واختصر د. محمد بن حسن الشريف أكثر من عشرين كتابا من كتب رحلات الحج القديمة والحديثة في أربعة مجلدات بعنوان «المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية»، كما أصدر الأستاذ أحمد محمد محمود كتابا عنوانه «رحلات الحج» في ثلاثة أجزاء، وتحدث فيه عن جملة من كتب رحلات الحج خلال القرون الثلاثة الأخيرة.

وتأتي أهمية كتب رحلات الحج وزيارة الحرمين من عظم فائدتها العلمية وقيمتها لدى الباحثين؛ فضلا عن ارتباطها بالأماكن المقدسة. ومن جوانب أهميتها أنها بيان دقيق لحال المسلمين الدينية ومدى قربهم من الله واتباعهم السنة، خصوصا ما يتعلق بأهل الحرم، إضافة إلى وصف الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية؛ ونقل عادات السكان وطبيعتهم في الأفراح والأحزان، وتسجيل سيرة أمراء الحجاز مع الحجاج وطرق سياستهم للعامة، كما أنها تصف العاطفة ومعاني الأخوة في الدين عند الحجيج وسكان الحرمين، وفيها إيضاح قيمة الأدب ومبلغه؛ وقدر العناية باللغة وعلومها

في زمن الرحلة، كما أنها تخبر عن أمن الطريق إلى الحج عبر العصور، وقد تلمح إلى جهاد المسلمين وشؤونهم العسكرية، ومن خلالها يمكن الإلمام بشيء من تاريخ عمارة الحرمين الشريفين والمشاعر المقدسة، إلى غير ذلك من فوائد وفرائد يتلذذ بها العقل ويطرب لها السمع.

وتمتاز كتب الرحلات التي صنفها العلماء باحتوائها على مناسك الحج وأحكامه، بينما تهتم كتب الأدباءوالمؤرخينبالطرفوالأخبار الأنيسة، والأوصاف الشائقة، وربما لا تخلو من بدع أو خرافات أو معتقدات باطلة، ومن أشهر كتب الرحلات التي لم تسلم من البدع والمعتقدات الخاطئة رحلة ابن بطوطة المسماة «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار». ومن المفارقات أن هذه الرحلة قد ترجمت إلى بضع لغات عالمية! وبعض الرحلات ينكشف شأنها من عنوانها، مثل رحلة أبي عبدالله محمد بن أحمد القيسي، الشهير بالسراج، والملقب ابن مليح، واسمها «أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب».

وتعد رحلة ابن رشيد السبتي من أفضل كتب الرحلات التي دونها العلماء، لما أودعه فيه من متين العلم وأخبار ملاقاة العلماء ومذاكرتهم، وهذه الرحلة مطبوعة محققة في خمسة مجلدات، وعنوانها «ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة». ومن الرحلات المهمة في هذا الباب رحلة الشيخ الشنقيطي، صاحب أضواء البيان، وعنوانها «رحلة الحج إلى بيت الله الحرام»، ورحلة محمد رشيد رضا بعنوان «رحلة الحجاز». ومن أفضل الرحلات المعاصرة التي أملاها الأدباء «مرآة الحرمين» من تأليف اللواء إبراهيم رفعت وكان أميرا على موكب الحج المصري، ورحلة الأمير شكيب أرسلان بعنوان «الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف».

ومن طرائف كتب رحلات الحج أن أحدهم ألف كتابا عن رحلته للحج باللهجة المصرية العامية أسماه «يا هناء للوعد»، وهذا من الغرائب كما يقول الشيخ العلامة د. عبدالكريم الخضير، أمتع الله به. ومنها ما ذكره غلام رسول مهر في رحلة حجه عام ١٣٤٨ من شبه القارة الهندية بعنوان «يوميات رحلة في الحجاز»، حيث تعجب ومرافقيه من انتشار ركوب الحمير في الحج؛ ومن كثرتها التي تعود لانخفاض أجرتها مقارنة بالجمال؛ وهو الأمر الذي يراه أهل الهند عارا وعملا قبيحا، ثم تغير رأيه هو وأصحابه الذين كانوا معه وأصلحوا نظرتهم إلى الحمار كمركوب، بعد أن استخدموه لأداء فريضة الحج، ووصف هذا المنظر بأنه رائع، إذ لم يسبق لأحدهم أن خاض هذه التجربة من قبل! ومن أعجب ما قرأته في رحلات الحج أن المصلين في الحرم كانوا يؤمنون بصوت خافت على دعاء الخطيب للخليفة أو لأمير مكة، فإذا بدأ الخطيب في الدعاء لصلاح الدين الأيوبي – رحمة الله عليه – ارتج المسجد الحرام بالتأمين والبكاء!

ومن ملح هذه الرحلات ما ذكره أحد الرحالة عن نفسه، إذ دخل الحجاز وخرج منها فما رأى وجه امرأة قط لانتشار الحجاب حينذاك! وقد كان حج الملوك والأمراء والكبراء قديما مع باقي الحجاج ولا ينفردون إلا في مواضع قليلة؛ مما جعلهم يطلعون بلا وسيط على أحوال المسلمين، وهذا بخلاف زعماء هذا الزمان الذين تختفي أشباحهم عن جمهرة الحجيج، فلا يرى بعضهم بعضا إلا خلف الشاشات؛ ومع ذلك يتسببون في زحام الطريق والتضييق على الحجاج وفيهم الضعيف والمريض والكبير.

وقد كان للمستشرقين والجواسيس رحلات حج مدونة، فمنها رحلة سرية للضابط الروسي عبدالعزيز دولتشين على أعتاب القرن العشرين الميلادي، ورحلة جوزيف بتس، وهو أول إنجليزي في التاريخ الحديث يزور مكة، ورحلة الفرنسي ليون روش في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي؛ وقد اتخذ اسما عربيا يتخفى تحته؛ فسمى نفسه عمر بن عبدالله، وكان غرضه سياسيا خالصا؛ حيث حاول الوصول إلى شريف مكة واستصدار فتوى شرعية تحرم الجهاد ضد الفرنسيين في الجزائر وتجعله من باب إلقاء النفس إلى التهلكة!

ومن عظم همة القوم ما قام به

المستشرق الهولندي سنوك، الذي تجشم العناء، وسافر إلى مكة، وأقام فيها بضعة أشهر، ثم كتب رسالته للدكتوراه عن الحج، وعلى أساس رحلته هذه وضعت هولندا استراتيجيتها لاحتلال بلاد المسلمين في جنوب شرق آسيا. وللإيطالي فارتيما رحلة في القرن العاشر الهجري، حيث دخل مكة باسم يونس العجمي، وكان جاسوسا لمصلحة البرتغال. ومن الرحلات المهمة رحلة بيرتون إلى مكة في ثياب درويش أفغاني بينما كان ضابطا إيرلنديا يعمل في الجيش البريطاني الموجود في الهند، وكانت رحلته في منتصف القرن الثالث عشر الهجري.

وللمسلمين من الغربيين كتب أخرى؛ فللكاتب النمساوي المسلم محمد أسد رحلة بعنوان «الطريق إلى مكة»؛ وقد ترجمت إلى أكثر من لغة؛ وهو كتاب يجذب قارئه ويمتعه. وقد أثرت رحلة الحج تأثيرا بالغا في الكاتب الأمريكي المسلم جفري لانج وسجل أحداثها في كتابه «الصراع من أجل الإيمان انطباعات أمريكي اعتنق الإسلام»، حيث انبهر بالتنوع البشري في الحج. وكانت رحلة الحج سببا في تغيير أفكار الزعيم الأميركي المسلم مالكوم إكس عن الإسلام؛ حيث استبانت له ضلالة معتقداته السابقة، وعاد إلى بلاده داعية إلى الدين الحق الذي عرفه واقتنع به في بطاح مكة الطاهرة.

ومن الطريف أن رحلة الحج التي شرع بها الكاتب المصري محمد حسين هيكل كانت بسبب نصيحة من المسلم المجري عبدالكريم جرمانوس، الذي تبدلت حياته للأفضل بعد أن أدى فريضة الحج، ومن عظم بركة تلك الرحلة عليه أن وصفها في كتابه عن رحلة الحج بعنوان «الله أكبر» بأنها «لحظة من لحظات الإشراق». وقد وضع هيكل كتابا عن رحلته أسماه «في منزل الوحي»، واشتمل على معان إيمانية لم تكن معهودة في كتاباته من قبل.

ومما يجب اليقظة له الحذر من أن تكون البقاع المقدسة مقصدا للكفار الذين يتسترون بادعاء الإسلام؛ خصوصا أن قضية التحول من دين إلى آخر عملية سهلة لدى فئام من الغربيين لتحقيق أغراضهم وإرضاء نهمهم المعرفي.

وبعد هذا التجوال السريع في الكتب التي أفردت لحفظ رحلات أصحابها لأداء الحج، قد يعتقد بعضنا أن هذا النوع من الكتب قد انتهى بثورة المواصلات والاتصالات ويسر الوصول إلى الديار المقدسة؛ وليست الطريق هنالك! فمن الناس من يكدح عمرا طويلا لجمع نفقة الحج؛ وإن هذا الكدح لقمين بالتوثيق؛ ليعلم المقصرون من الأثرياء والمقتدرين، الذين لا يحجون، كبير فضل الله عليهم وقبح صنيعهم. كما أن للفضلاء من الدعاة جولات دعوية حقيقة بالتدوين؛ ليستفيد منها السابق بالخيرات والمقتصد؛ وعسى أن يهتدي بها كل ظالم لنفسه. ولا شيء يحول دون تسطير إبداعات علمائنا وكتابنا عن حجهم ومشاعرهم في الموسم الميمون في كتاب حافل، أو أن يكتب المسلم الذي كان الحج بالنسبة إليه رحلة من الضلالة إلى الهدى أخبار رحلته، ففي الحج منافع للناس؛ وإمتاع العقول منفعة وأي منفعة.

● نشر هذا المقال في مجلة البيان عدد شهر ذي الحجة عام ١٤٣١هـ.

رحلات أهل العلم في الحج

الشيخ عبدالكريم الخضير

اختلفت طرائق العلماء أثناء حجهم، وكل له طريقته ومنهجه؛ فمنهم من زاول في حجه العبادات الخاصة، واغتنم فضل الزمان والمكان، فأكثر من النوافل ومن الأذكار والابتهال، وقراءة القرآن على الوجه المأمور به، ولا شك أن هذا خير كثير لمن وفق له.

ومنهم من فعل ذلك وزاد عليه؛ بأن تصدر للنفع العام، ووقف نفسه ووقته وجهده لاستقبال الناس وإفتائهم وإرشادهم، والمقرر عند أهل العلم أن النفع المتعدي أفضل من اللازم في الجملة، ولذا صار طلب العلم عند جماهير أهل العلم أفضل من نوافل العبادات؛ لأن نفعه متعد ينتفع به الإنسان وينفع به غيره.

هؤلاء العلماء إذا وصلوا إلى تلك الأماكن، كل سلك مسلكه، وكل بحث عما يناسبه؛ فتجد القارئ يبحث عن القراء ويستفيد منهم ويفيدهم، وتجد المحدث يبحث عن المحدثين، ويستفيد منهم ويفيدهم، وتجد الفقيه كذلك، والمؤرخ كذلك، والأديب كذلك، وكل من له اهتمام بشيء بحث عن نظرائه، وحاورهم وطارحهم وناقشهم، واستفاد منهم وأفادهم، وهذا موجود في الرحلات.

وكثير من أهل العلم ما دونوا رحلاتهم وإن اشتملت على فوائد عظيمة، والسبب أن هذه المدونات جل مؤلفيها ممن له عناية بالأدب ممن يستطيع أن يصوغ المشاهدات، ولكن بعض الناس يشاهد؛ لكن لا يستطيع أن يعبر عما شاهد؛ أما من له عناية بالأدب فإنه يشاهد ربع ساعة؛ فيكتب ما يقرأ في ساعة، وهذا موجود إلى وقتنا هذا.

ومن هذه الرحلات المدونة، بل من أقدمها: «رحلة ابن جبير»، وهو أبوالحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي الشاطبي البلنسي، مولده ليلة السبت عاشر ربيع الأول سنة أربعين وخمسمائة ببلنسية، أخذ القراءات وعني بالأدب؛ فبلغ الغاية فيه، وتقدم في صناعة القريظ والكتابة، يقول لسان الدين بن الخطيب في حقه: «إنه من علماء الأندلس بالفقه، والحديث، والمشاركة بالآداب، وله الرحلة المشهورة»؛ وقال التلمساني في نفح الطيب: «كان انفصاله من غرناطة بقصد الرحلة المشرقية، أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال سنة ثمان وسبعين وخمسمائة (٥٧٨هـ)، ووصل الإسكندرية يوم السبت التاسع والعشرين من ذي القعدة من السنة، فكانت إقامته على متن البحر من الأندلس إلى الإسكندرية ثلاثين يوما»؛ ثلاثون يوما وهو في البحر، إقامته في البحر، وفي مجيئه من الأندلس إلى الإسكندرية ثلاثون يوما، لكن رجوعه إلى الأندلس على متن البحر الأبيض المتوسط ذكروا ستة أشهر؛ لأنه كلما قارب الوصول جاءت ريح ردته إلى مبتدئه، وعلينا أن نشكر هذه النعم التي نتقلب فيها، وكتب التاريخ مملوءة بالعجائب في أخبار الحجاج، وكانت الطرق غير آمنة، قل من يسلم فيها، وكثير منهم يعطب، ذكر الحافظ ابن كثير – رحمه الله – عن رجل أنه حج تسعين مرة حافيا، وذكروا أيضا من الغرائب أن قدميه كقدمي العروس، مع هذه المدة، وإن كان الخبر ما يسلم من نكارة، ويبقى أن له أصلا... يحج عشر مرات أو عشرين مرة على قدميه من بغداد كثير.

مكث ابن جبير شهرا كاملا في البحر، من الأندلس إلى الإسكندرية، ومات – رحمه الله – سنة أربع عشرة وستمائة (٦١٤هـ).

وصف المنازل

جاء في تقدمة الدكتور حسين نصار لهذه الرحلة يقول: هذا الكتاب رحلة قام بها أندلسي للحج، استغرقت عامين وثلاثة أشهر ونصف، من التاسع عشر من شوال سنة ثمان وسبعين وخمسمائة (٥٧٨هـ)، إلى الثاني والعشرين من المحرم سنة إحدى وثمانين وخمسمائة (٥٨١هـ)، وزار فيها مصر وبلاد العرب والعراق والشام وصقلية، ووصف في هذه الرحلة المدن التي مر بها،

والمنازل التي حل فيها وصفا يختلف إسهابا وإيجازا وفقا لأهمية الموضع، وتختلف المظاهر التي عني بوصفها في المدن المتنوعة، تختلف أحيانا وتتفق أحيانا؛ فقد عني في جميع المدن التي وصفها بالمساجد وقبور الصحابة،والمشهورين،والمستشفيات، والمصحات، والآثار المعروفة، وعني في مصر خاصة ببعض النواحي الاجتماعية والاقتصادية، وببلاد العرب بالناحية الدينية خاصة، وفي العراق بالوعظ والوعاظ، وفي الشام بالنواحي السياسية والاقتصادية والحروب بين المسلمين والصليبيين، وفي صقلية بالمسلمين تحت حكم الملك الكافر، وطبيعي أنه التفت في كل مدينة بالأمر الذي اشتهرت به، واهتم بوصفه كمنارة الإسكندرية وأهرام القاهرة، ومقياس جزيرة الروضة، وآثار مكة الإسلامية، والمسجد النبوي بالمدينة، ومسجد الكوفة، ونفط الموصل، وقلعة حلب، والمسجد الأموي بدمشق وما إلى ذلك، والحق أن الكتاب – كما يقول المقدم –: «يتضمن بعض المعلومات التي لا يستغني عنها مؤرخ أو جغرافي أو أديب».

واهتم المؤلف في كل قطر نزل به بتقصي أحوال المغاربة فيه – أحوال قومه – وعلاقة أهله بهم، ووصف ذلك في رحلته وصفا مطولا، والكتاب اختلف في عنوانه؛ فجعله حاجي خليفة صاحب كشف الظنون: «رحلة الكناني»؛ لأن نسبته تنتهي إلى كنانة.

وهذا الكتاب طبع مرارا، مطبوع في أوروبا أكثر من مرة، وطبع في مصر أيضا ولبنان، وفيه فوائد كثيرة جدا، وفيه بعض المخالفات، لا سيما إذا وصف مشهدا أو مزارا، لكنه أخف بكثير من ابن بطوطة أو النابلسي على ما سيأتي.

رحلة ابن رشيد

ومن هذه الرحلات، بل من أهمها، ولو قلت: إنها أهم الرحلات لطالب العلم لما بعدت؛ «رحلة ابن رشيد» محمد بن عمر بن رشيد، أبي عبدالله الفهري السبتي، المولود سنة سبعة وخمسين وستمائة (٦٥٧هـ)، وقال الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة: «واحتفل في صباه بالأدبيات حتى برع في ذلك، ثم رحل إلى «فاس»، فأقام بها وطلب الحديث فمهر فيه، وصنف الرحلة المشرقية في ست مجلدات، وفيه من

الفوائد شيء كثير – هذا كلام ابن حجر– وقفت عليه وانتخبت منه».

وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء: «ولما رجع من رحلته سكن سبتة ملحوظا عند العامة والخاصة»؛ يعني محل عناية من الناس، وذلك لما تميز به من العلم والعمل.

كان ورعا مقتصدا منقبضا عن الناس ذا هيبة ووقار، يسارع في حوائج الناس، يجلب المصالح، ويدرأ المفاسد، يؤثر الفقراء والغرباء والطلبة، لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان مع ذلك على مذهب أهل الحديث، في الصفات يمرها ولا يتأول.

يقول عنه لسان الدين بن الخطيب: «كان فريد دهره، عدالة وجلالة وحفظا وأدبا وهديا، عالي الإسناد، صحيح النقل، تام العناية، عارفا بالقراءات، بارع الخط، كهفا للطلبة»؛ يقول: «وكل تواليفه مفيدة، وكانت وفاته في أواخر المحرم سنة إحدى وعشرين وسبعمائة (٧٢١هـ) بفاس –رحمه الله».

متين العلم

هذه الرحلة اسمها: «ملأ العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة»، ذكر فيها من الفوائد الحديثية ما لا يوجد عند غيره من التحريرات العلمية والاستنباطات الفقهية، والمباحثات والمطارحات الأدبية مع العلماء الذين لقيهم في رحلته، وعلى هذا يتحتم على طالب العلم أن يرجع إلى هذه الرحلة، لا سيما الحريص على الفوائد الحديثية، في مباحثات واستنباطات لا توجد عند غيره، وعول عليها من كتب في مصطلح الحديث ممن جاء بعده في كثير من تحرير المسائل.

ابن رشيد همته متجهة إلى متين العلم؛ ولذا لا تجده يصف المعالم التي شاهدها أو المزارات التي وقف عليها، غير شيء قليل، ولذا فإن الطابع المعهود في كثير من الرحلات لم يكن ملموسا في هذه الرحلة إلا قليلا جدا؛ وذلك لأن اهتمامه منصب على الجانب العلمي.

ومن هذه الرحلات رحلة ابن بطوطة المسماة: «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» لأبي عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة.

طبعات

قال ابن مرزوق: «ولا أعلم أحدا جال البلاد كرحلته، مات سنة تسع وسبعين وسبعمائة (٧٧٩هـ)، ورحلته على النقيض من رحلة ابن رشيد».

واستغرقت رحلته أكثر من ربع قرن، وطبعت الرحلة طبعات عديدة، واختصرت في عدة مختصرات، وطبعت وزارة المعارف العمومية بمصر مهذب رحلة ابن بطوطة،

سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة وألف (١٩٣٨م)بمطبعة بولاق الأميرية.

ومن الرحلات المشهورة رحلة الورثيلاني، واسمها: «نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار»، ومؤلفها الحسين بن محمد السعيد الورثيلاني، مؤرخ من فقهاء المالكية، له اشتغال بالتصوف، نسبته إلى بني ورثيلان، قبيلة بالمغرب الأوسط، قرب بجاية في الجزائر، نشأ بها، وحج فأخذ عن علماء مصر والحجاز، وذكر في رحلته ما شاهده من الأمكنة، ومن اجتمع بهم من الأعيان في حجته سنة تسع وسبعين ومائة وألف (١١٧٩هـ)، وهذه الرحلة طبعت في تونس سنة (١٣٢١هـ) في ثلاثة أجزاء، لكنها طبعة قد لا يستفيد منها كثير من طلاب العلم؛ لأنها طبعة حجرية، وبالخط المغربي العتيق، ثم طبعت في الجزائر سنة (١٣٢٦هـ) في مجلد كبير، وقراءتها متيسرة لطلاب العلم من المشارقة، سهلة - يعني قراءتها - وإن كانت في رسمها وصورتها على الحروف المغربية وطريقتهم، وصورت بعد ذلك سنة (١٣٩٤هـ) في دار الكتاب العربي.

ويبدأ من صفحة ٣٨٥ دخوله مكة المشرفة إلى أن خرج من المدينة في صفحة ٥٣٢ يعني مائة وخمسين صفحة، وفيها فوائد كثيرة، فيها فوائد علمية، وفيها مبالغات وفيها غلو، ولا تسلم، ويعنى في رحلته بوصف الآثار من المساجد والأودية والجبال والآبار وغيرها، ومن لقيه من العلماء، وسمة التصوف ظاهرة في الكتاب.

ومن الرحلات المتداولة المطبوعة، رحلة أبي عبدالله محمد بن أحمد القيسي الشهير بالسراج، والملقب بابن مليح، هذه الرحلة اسمها: «أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب»؛ يعني ابتدأت من المغرب إلى أن انتهت بمدينة النبي ﷺ منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب، ويظهر من العنوان أنه قصد في رحلته النبي ﷺ، وأيضا هي رحلة فيها الكلام عن مكة بما تحتويه من مشاعر، وفيه أيضا الحديث عن المدينة النبوية، ولا يسلم الكتاب مما وجد في سوابقه من التصوف والتعلق بالآثار.

وعلى كل حال، الرحلة هذه مطبوعة، وفيها فوائد وفيها نفس علمي وآداب وأشعار، لكن ليكن القارئ منها على حذر.

ومن رحلات المعاصرين: «مرآة الحرمين»، أو «الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية»، ألفها اللواء: إبراهيم رفعت باشا، وفيها وصف دقيق لكثير من المشاعر، وفيه أيضا صور فوتوغرافية لكثير مما يحتاجه من يريد أن يقف على هذه المشاعر، لا سيما أن هذه الرحلة متقدمة؛ يعني صار لها أكثر من ثمانين سنة، وهي مطبوعة في مجلدين، وفيها أخبار ونكات وطرائف أدبية وتاريخية، وفيها أيضا شيء من المخالفات، لكنها في الجملة فيها فوائد؛ فليكن القارئ فيها على حذر.

و«الرحلة السعودية الحجازية النجدية»، لمحمد سعيد العوري؛ قاضي مدينة بيت المقدس سابقا، فيها تفصيل لأحكام المناسك وآداب الحج، وفيها كلام على الآثار، فيها فوائد علمية كثيرة فقهية تتعلق بالمناسك.

ومن الرحلات المهمة في الباب: رحلة الشيخ صديق حسن خان، هذه الرسالة من تأليف الشيخ أبو الطيب السيد محمد صديق بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي، وتحتوي على مسائل هامة فيما يتعلق بأمر المسلمين، هذه الحجة صارت أو حصلت سنة (١٢٨٥هـ)، وفي ذلك التاريخ كانت رحلة الشيخ بالسفن الشراعية من بمباي إلى جدة، وصادف أن نزل بالحديدة في طريقه ذهابا وإيابا، وقد استغرق سفره ثمانية أشهر من يوم أن غادر جوجال إلى أن عاد إليها.

بدع شائعة

الرسالة أشبه ما تكون وأقرب إلى المناسك، منسك متكامل، فالرسالة تحتوي على ما يتعلق بالحج والعمرة، وزيارة المسجد النبوي؛ مستدلا في جميع ذلك بالكتاب والسنة، مشيرا إلى تلك البدع الشائعة، عكس الرحلات الأدبية الأخرى.

ومن الرحلات مما كتبه الشيخ العلامة المحقق محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله تعالى - رحلته إلى حج بيت الله الحرام، هذه الرسالة أو هذه الرحلة مختصرة فيما يقارب أو يقرب من ثلاثمائة صفحة، وفيها فوائد علمية ومطارحات ومشاركات أدبية شعرية ونثرية شيء كبير؛ فالشيخ له يد في حفظ الشعر، يحفظ من القصائد الشيء الكثير، والتقى بكثير من أهل العلم في هذه الرحلة، وشاركهم وطارحهم في كثير من المسائل العلمية.

النور

ادفع فقط أجرة البريد

- في الكويت **1.5 دينار**
- الدول العربية **3 دنانير**
- باقي دول العالم **8 دنانير**

تودع أجرة البريد في حساب المجلة

رقم الحساب المصرفي الدولي:

KW15KFHO 000000000011010074520

أو ترسل في شيك أو حوالة باسم مجلة «النور»
إلى عنوان المجلة المثبت أدناه

مجلة «النور» ص.ب 24989 الصفاة 13110 ـ الكويت

هاتف: 22964236 وفاكس: 22409414

شبكة الإنترنت: WWW.kfh.com

البريد الإلكتروني: alnoormag@kfh.com

رحلات الحج المغربية.. لذة التقصي وأمانة النقل

د. عبدالهادي التازي
كاتب مغربي

الحج أكبر وأعظم وأهم مؤسسة قدمها الإسلام للمسلمين أينما كانوا وحيثما كانوا، أعظم مؤسسة بما تشتمل عليه من تنوع زاد... الحج أبرز رسالة موجهة إلينا لمعرفة الآخر، ولاكتشاف الآخرين لحوار الحضارات.. مهما كتب الناس؛ سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، فإنهم لن يصلوا إلى استجلاء جميع جوانب هذه المؤسسة الحضارية الكبرى...

ولا نحتاج هنا إلى التذكير بما زودنا به هذا الركن من أركان الإسلام من ثروة فقهية نادرة المثال... وعشرات النوازل، ومئات الحالات التي كان على الفقهاء أن يجدوا لها حلولا تتناسب وأهداف المشرع. ثقافة الحج وحدها تعبر عن فكر خلاق تجلى فيما قدمه الفقهاء لنا؛ سواء أكانوا ينتسبون إلى هذا المذهب أو ذاك، أم ينتسبون إلى هذه المدرسة أو تلك، وبخاصة عندما يمتزج الجانب الفقهي المتعلق بالحج بالجوانب الأخرى المتعلقة بالأسفار وآدابها، وقضايا الإيجار، والعلاقات بين الرجل والمرأة في هذه الفترة، ثقافة الحج التي تتضمن في صدر ما تتضمنه ضبط تلك العلاقات في أثناء الحج والتدريب على تحمل المتاعب ومواجهة المصاعب وتخليق الممارسات..

ولابد أن نذكر أن هذا التشريع – تشريع الحج – خلق للمسلمين عموما، وللمغاربة خصوصا، مرجعية مهمة لثقافتهم وعلمهم، ومن هنا كانوا يعتزون بالسند الذي يعودون به إلى بلادهم، وهم يرددونه في مجالسهم العلمية، يعود المغاربة ليؤدوا صورة صادقة عن طريق تلقنهم، وعن الدين، أو الذين تلقوا منهم تلك العلوم؛ وكان المغاربة القارون بالمغرب يشعرون بالمتعة تغمرهم وهم يقرأون عن الآصرة المقدسة التي تربط العالم الغربي من فاس أو سوس بالعالم من بخارى أو خراسان ... كان المغاربة يعودون بحمولة مهمة من الزاد العلمي والمعرفي، وكانت مكة المكرمة بالنسبة إليهم المرجعية التي يشعرون إزاءها بوجدانهم وآمالهم.

وإن من يقرأ في روايات الحجاج، وفي رحلات العائدين، سيجد ما يؤكد مدى إيمان المغاربة بمصداقية تلك المرجعية التي كانت تعني فضاء عاش فيه نبي الإسلام ﷺ، وصحابته وخلفاؤه الراشدون وعلماء الإسلام من مختلف جهات الدنيا.

كان الحُجاج يعودون وهم يحملون معهم ذكريات وإفادات، ينقلونها إلى المجتمع الذي ينتسبون إليه، هذا المجتمع الذي يستفيد من كل تلك المعلومات للاسترشاد بها والاستئناس بها، وإشاعتها، كانوا ينقلون بعض اللقطات التي يجب ألا يمر عليها القارئ مرور الكرام بوصفها لقطات دالة هادفة، وأحيانا مسلية أيضا!

وإذا كان بعض الحجاج المشارقة قد تألقوا في كتابة رحلاتهم؛ سواء كانوا عجما أو عربا، فإن الحجاج المغاربة بزوا زملاءهم كما وكيفا، فقد احتوت المكتبات المخطوطة والمطبوعة على العشرات والعشرات من الرحلات المغاربية المكتوبة، فيها المقتضب وفيها المسهب، فيها المنثور والمنظوم، والفصيح والعامي على ما سنرى، وما كان حديثا يفترى!

ولقد كان كراتشكوفسكي على حق عندما لاحظ أن المغاربة أحرزوا درجة

السبق في أدب الرحلات، وهي الحقيقة التي أبرزها الراحل الشيخ حمد الجاسر عندما كان – وفي كل مناسبة– يشيد بالتفوق المغربي في هذا الصدد.

إن كل رحلة من الرحلات المغربية تجُر وراءها أكواما من الروايات والحكايات المكتوبة، وإذا أضفنا إلى هذا المكتوب ما يردده المغاربة في رواياتهم الشفوية مما لا ينتهي ولن ينتهي فإننا نصل– في خاتمة المطاف– إلى الاقتناع بأن الزاد المغربي فيما يتصل بالحج وما يتصل بمكة المكرمة والكعبة المشرفة وزمزم والصفا والمروة، يحتاج وحده إلى تتبع؛ لأنه أدب متحف مليء بالعظة والإيمان.

إنها خصائص لا يمكن أن نجدها في رحلات أخرى مما قرأنا عنها بالمشرق، وهذا ما يؤكد حالة الخصوصية بالنسبة إلى المغرب، أو يؤكد مرة أخرى ضرورة عودة المؤرخ في الجزيرة العربية إلى ما سجلته الرحلات المغربية عن مكة المكرمة والمدينة المنورة، وعن «الأطر» التي كانت تقوم عليها مختلف الوظائف الدينية، ومرافق الحياة في تلك الديار المقدسة مما كان يقوم به الحجازيون، وكذا المجاورون والمجاورات. وهكذا تتوفر الرحلة المغربية مثلا على شمولية الموضوعات المطروحة من جهة، وهي من جهة أخرى – لكونها رحلات متتابعة متوالية متلاحقة – تغطي جميع سائر فصول السنة، ففيها ما كان يتم في الصيف، وفيها ما كان يتم في الشتاء أو الربيع أو الخريف، ومن ثم فقد كنا على خبرة من حالة البلاد الحجازية على طول الفصول الأربعة...

إن كثيرا من المعلومات والإفادات ما كان لها أن تعرف من خلال ما قرأناه في تواريخ مكة المكرمة والمدينة المنورة لولا رجوعنا إلى ما حررته أياد مغربية ونقلته إلى الجناح الآخر من دار الإسلام، مما يعني أن تاريخ ذلك الإقليم يوجد – كما قلنا– موزعا في أقاليم أخرى، ومن أبرزها وأهمها بلاد المغرب الكبير، بما فيها الأندلس وطرابلس وتونس والجزائر وموريتانيا وغرب إفريقية على العموم.

وهكذا، فعلى نحو ما أسلفناه نردد هنا أنه منذ السنة التي شرع فيها الحج أصبحنا مدعوين للبحث عن تاريخ الجزيرة في جميع بلاد الدنيا، وحيث يوجد الإسلام؛ أي أن شبه الجزيرة لم تبق حدودها على ما كانت قبل السنة الثامنة من الهجرة، ولكنها حدود اتسعت وترامت وأمست – أو بعض أجزائها على الأقل – محرمة على كل من يريد اقتحامها؛ ما لم تتوافر فيه شروط الإقامة، التي كان من أبرزها وأهمها اعتناق الإسلام...!!

عجيب أمر ذلك التشريع – تشريع الحج – الذي غير أوضاع العالم، وفرض عليه تقنيات من واجبه أن يقبلها إن كان يريد مسالمة دار الإسلام ومعايشتها...

ومن الطريف أن نلمس صدى العلاقات الدولية في هذا الركن من أركان الإسلام، نلمسها في أمر المعاملات التجارية، في أمر التأشيرات والزيارات.

وأية رحلة حجازية في الدنيا سجلت حضور سيدات فضليات وأميرات عالمات جليلات حظين بشهادة قاضي مكة المكرمة ورئيس الموسم، حظين منه بشهادة مكتوبة تتحدث عن حضورهن في مكة المكرمة، وطوافهن وسعيهن ووقوفهن بعرفة، وبسط ذات اليد للفقير والمحتاج.. واقتنائهن العقار، وتحبيسه على أهل الخير والصلاح من المنقطعين والمتبتلين!

ومتى كنا نعرف أن هناك مؤذنين على الجبال المحيطة بمكة المكرمة يُسمعون ذكر الله لمن كان وراء تلك الجبال.. ويعرفون أن لهم عطاءات خاصة لضمان وصول صدى تلك الأصوات، عطاءات تأتيهم مما وراء البحار.

إن المرء ليأسف اليوم وهو يرى أن الحديث عن أدب الرحلة في طريقه إلى النهاية إن لم يكن قد انتهى فعلا بسبب ما جد من تطورات حسنت وسائل أداء الفريضة، لكنها قضت على كثير من مظاهر جمالها وأسرار كمالها التي كانت تتمثل في تلك المبادرات التي أصبحت اليوم أثرا بعد عين، وأمست – فقط – حديثا خاطفا للحجاج المتعجلين، والمعتمرين العابرين.

● **من مقدمة كتاب « مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة»**

الرحلات المغربية الحجازية

رحلة للعبدري والورثيلاني والسنوسي

د. أحمد عيساوي
كاتب جزائري

اشتهر المغرب الإسلامي بكثرة عدد رحاليه، الذين وصلتنا أخبارهم، حيث فاقوا الثلاثين رحلة، لعلنا نذكر منها الآتي:

١- رحلة ابن حوقل (ت٣٢٧هـ)

هو أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي، رحالة مغربي، قام بالعديد من الرحلات دوّنها في كتابه الشهير «المسالك والممالك».

٢- رحلة أبي عبيد البكري (ت ٤٨٧ هـ - ١٠٩٤م)

هو أبو عبدالله بن عبدالعزيز البكري المرسي القرطبي، أصله من مرسية، وقد سكن قرطبة زمنا، وهو مؤرخ ورحالة وجغرافي وفقيه ولغوي وعالم بالأنساب والأحساب، مغربي المستقر، له العديد من المؤلفات أشهرها «المسالك والممالك - المعرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب».

٣- رحلة أبي بكر الزهري الغرناطي (ت ٥٣٢هـ)

رحالة مغربي، ولد بغرناطة، ورحل في البلاد، ثم ألف كتابه عن طبائع أهل المغرب وليبيا ومصر. له كتاب في الرحلة أسماه «الاستبصار في عجائب الأمصار».

٤- رحلة الشريف الإدريسي (ت ٥٤٨هـ)

هو أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن إدريس العلوي القرطبي الصقلي، ولد سنة ٤٩٣هـ في قرطبة، وبها تعلم، وطاف في

البلاد، ثم نزل على حاكم صقلية روجاير الثاني؛ فأجلّه وأعلاه لسعة علمه، وألف له كتابا في الجغرافيا أسماه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق».

٥- رحلة أبي حامد الغرناطي (ت ٥٦٤هـ)

هو أبو حامد محمد بن عبدالرحمن القيسي الغرناطي، ولد في مدينة غرناطة، ورحل إلى مصر فبغداد وخراسان وحلب، ثم جاء إلى دمشق ومات فيها. له كتابان في الرحلات هما «المُغرب في عجائب المغرب» و«تحفة الأصحاب ونخبة الإعجاب».

٦- رحلة ابن جبير الأندلسي (ت ٦١٤هـ)

هو أبو الحسن محمد بن جبير بن سعيد الكناني الأندلسي البلنسي، ولد في بلنسية عام ٥٣٩هـ، وتوفي في غرناطة سنة ٦١٤هـ، له رحلته الشهيرة «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» المعروفة بـ «رحلة ابن جبير».

٧- رحلة أبي محمد العبدري (ت ٦٨٧هـ - ١٢٨٩م)

هو أبو محمد بن محمد بن علي ابن أحمد بن مسعود العبدري البلنسي، لا تُعلم سنة ميلاده، وتُعلم سنة وفاته (بالتقريب سنة ٦٨٧هـ - ١٢٨٩م)، ورحلته وتاريخ ابتدائها يوم الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة عام ثمانية وثمانين وستمائة. وقد حققها الأستاذ أحمد بن جدو (الأستاذ بكلية الآداب جامعة الجزائر) سنة ١٩٦٨م، وطبعت بمطابع البعث بقسنطينة سنة ١٩٧٠م.

وتعد وثيقة مهمة لمعرفة أحوال البلاد الإسلامية المغربية في عهد نهاية دولة الموحدين، وهي رحلة مغربية حجازية، ضاع الجزء الكبير منها والمتعلق ببلاد الحجاز، وإن كان الرحالة قد أشار في العديد من المواضع إلى بقائه بمكة وأخذه العلم على يد مشايخها، وسماها «ما سما إليه الناظر المطرق في خير الرحلة إلى بلاد المشرق»، وقد سماها المحقق «الرحلة المغربية».

٨- رحلة ابن رشيد الأندلسي (ت ٧٢١هـ)

رحالة مغربي أندلسي مشهور،

قام بالعديد من الرحلات، ثم دونها في كتابه الشهير «ملء العيبة فيما اجتمع بطول الغيبة في الرحلة إلى مكة وطيبة».

٩- رحلة أبي البقاء البلوي (ت ٧٣٦هـ)

هو أبو البقاء خالد بن عيسى البلوي، رحالة مغربي أندلسي مشهور، قام بالعديد من الرحلات ثم دونها في كتابه الشهير «تاج المعارف بتحلية علماء المشرق».

١٠- رحلة أبي محمد عبدالله التيجاني التونسي (ت ٧٥٠هـ)

هو أبو محمد عبدالله التونسي، ولد بين سنتي ٦٧٠ و٦٧٥هـ في تونس العاصمة، له رحلة مشهورة تسمى باسمه (رحلة التيجاني) طبعت في تونس سنة ١٩٥٨م بمراجعة المؤرخ التونسي حسن حسني عبدالوهاب.

١١- رحلة ابن بطوطة الطنجي (ت ٧٧٧هـ - ١٣٧٧م)

رحالة مغربي مشهور، هو محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم اللوتي الطنجي، ولد في طنجة ببلاد مراكش سنة ٧٠٣هـ - ١٣٠٤م، وقام بالعديد من الرحلات. دامت رحلاته سبعا وعشرين سنة، أملاها على الفقيه العلامة محمد بن جزي الكلبي، وانتهى من كتابتها سنة ١٣٥٦م، وسماها «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار».

١٢- رحلة أحمد بن قاسم البوني (ت ١١٣٩هـ)

وصاحبها هو أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني (نسبة إلى مدينة بونة المعروفة اليوم باسم عنابة). وقد ولد بعنابة سنة ١٠٦٣هـ، وتوفي فيها سنة ١١٣٩هـ، وله عدة تآليف ذكرها في إجازته، ويعتبر من أهل الرأي والصلاح والعلم والفتوى في الجزائر في أواخر العهد العثماني، وقد ترك رحلة حجازية مغربية أسماها «الروضة الشهية في الرحلة الحجازية»، ولكن رحلته ضاعت.

١٣- رحلة عبدالرزاق بن حمادوش (ت ١١٩٧هـ)

ورحلته تسمى «لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال»، وقد ضاعت كلها، وطبع الجزء الثاني منها في الجزائر سنة ١٩٨٣م بتقديم وتحقيق وتعليق الأستاذ الدكتور أبوالقاسم سعدالله. وقد ولد عبدالرزاق بن حمادوش في الجزائر العاصمة سنة ١١٠٧هـ، في أسرة كانت تحترف مهنة الدباغة، وتوفي في مكان غامض بعد تسعين سنة، وقام برحلته الحجازية سنة ١١٢٥هـ.

١٤- رحلة العايشي (ت ١٦٧٩م)

وتسمى رحلته «ماء الموائد» المطبوعة بفاس في المغرب، وتشابه رحلة السنوسي رحلة العياشي في جزئها الثالث، حيث أفرد فيها الحديث عن العلم وأهله وفضله وترجم للعديد من رجاله، وأحيا فيها معالم طريق حج المغاربة والأماكن الآمنة لسير القوافل المغربية الحجازية.

١٥- رحلة أبي العباس الدرعي (ت ١٧١٧م)

صاحبها هو أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي، صاحب الرحلة الحجازية المعروفة بـ «رحلة الدرعي» أو «الرحلة المراكشية»، التي تشابه رحلة العياشي، إذ سجل فيها خبر رحلاته الأربع إلى بلد الله الحرام، وكان يحفظ عن ظهر قلب نص رحلة العياشي التي تأثر بها أيما تأثر.

١٦- رحلة أحمد القادري (ت ١٧٢١م)

صاحب الرحلة المسماة «نسمة الآس في حجة سيدنا أبي العباس».

١٧- رحلة ابن عمار (ت ١٢٣٤هـ)

وهي الرحلة التي كتبها مفتي المالكية بالجزائر في زمانه أحمد بن عمار الجزائري، المجهول تاريخ الولادة والوفاة. ويعد ابن عمار من صلحاء عصره وأهل الرأي والعلم فيه، وهو أديب وكاتب وناثر وشاعر فحل ومفت صاحب رأي واجتهاد في الدين والمجتمع، وله العديد من المؤلفات، وقد حج البيت سنة ١١٦٦هـ، وجاور بمكة مدة طويلة وصلت به إلى سنة ١١٧٢هـ. وقد ذكر في رحلته الكثير من القضايا التي لا يمكن للحجاج العابرين معرفتها، وعنوان رحلته «نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب»، والتي طبعت سنة ١٩٠٢م في الجزائر، وقد ترجم في رحلته لأكثر من مائتي عالم.

وقد قسم رحلته إلى ثلاثة أقسام، جعل في القسم الأول خزانة للأدب في أحوال مكة والمدينة والحجاز من شعر ونثر وحكمة، وقد ذكر فيه نيته في القيام بأداء فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة في مكة والمدينة، وتحدث فيه عن القسم الثاني والثالث. وقام بأداء فريضة الحج سنة ١٢٠٤هـ، وجاور في بلاد الحجاز ما يقارب اثنتي عشرة سنة، ثم عاد إلى الجزائر، وكتب الرحلة بعد ثلاثين سنة من عودته.

١٨- رحلة محمد أبو راس سنة ١٨٢٣م

ولد محمد بن أحمد بن عبدالقادر بن محمد بن أحمد بن الناصر الجليلي المعسكري، المعروف بأبي راس الناصر، بالقرب من معسكر سنة ١٧٣٤م، وتعلم في المغرب الأقصى، ووصل إلى درجة عالية من العلم، واحتل مكانة مرموقة بين علماء عصره،

ثم سافر إلى الحج أول مرة سنة ١٢٠٤هـ، وعاد سنة ١٢٠٥هـ، وألف كتابه الشهير «عجائب الأسفار ولطائف الأخبار» سنة ١٢٠٦هـ، وقد نشرته مجلة المبشر الجزائرية على حلقات ابتداء من فاتح يناير سنة ١٨٨١م، وحج مرة ثانية سنة ١٢٢٦هـ، وعاد في السنة الموالية ١٢٢٧هـ، واسم رحلته الأولى «عدتي ونحلتي في تعداد رحلتي»، ورحلته الثانية عنوانها «فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته»، وقد أكثر فيهما من ذكر شيوخه وأساتذته، ومن جادلهم وناظرهم من العلماء. وقد سلك في رحلته طريق الحج العادي، ثم ركب البحر من مصر إلى ينبع، ومنها إلى مكة المكرمة، ثم عاد منها بعد أدائه لفريضة الحج، ودخل مصر بعد أن جلت عنها الحملة الفرنسية، ووصف أحوالها أيضا، كما وصف أحوالها قبل الحملة.

١٩- رحلة الحاج ابن الدين الأغواطي

رحلة قام بها الحاج ابن الدين الأغواطي إلى بلاد السودان والشمال الإفريقي ومصر والحج، وذهب إلى «الدرعية» عاصمة الدولة السعودية الفتية آنذاك ووصفها بدقة، وكان الانتهاء من كتاب الرحلة بين سنتي ١٢٤٤-١٢٤٥هـ/ ١٨٢٨م-١٨٢٩م بعد أن عاد من الحج سنة ١٢٤٣هـ.

وقد بين الدكتور أبو القاسم سعدالله أهميتها في رسم صورة للمناطق التي زارها الأغواطي في العقد الثالث من القرن التاسع عشر، كما أنها تحتوي وصفا دقيقا للدرعية عاصمة الدولة السعودية سنة ١٨٢٧م - ١٢٤٣هـ.

٢٠- رحلة محمد بن عثمان السنوسي الحجازية (١٣١٨هـ - ١٩٠٠م)

ولد محمد بن عثمان بن محمد السنوسي بحاضرة تونس يوم ٢٢ ذي القعدة ١٢٦٧هـ الموافق ١٨ سبتمبر ١٨٥١م في أسرة شهيرة بالعلم والآدب والمكانة، يعود أصلها إلى جبل سنوس بالقرب من مستغانم في الغرب الجزائري، وانتقل أجداده مع الشيخ محمد ابن علي السنوسي إلى ليبيا سنة ١٨٢٩م - ١٢٤٤هـ واستقروا بها، ومنها انتقلوا إلى تونس العاصمة وتقلبوا في الوظائف الدينية والعلمية، وكان جده ووالده قاضيين مالكيين بالحاضرة التونسية.

التحق بجامع الزيتونة وكان من أنجب تلامذته، وتخرج منه يحمل شهادة التطويع سنة ١٨٧٠م - ١٢٨٧هـ، ودرس فيه سنين، ثم عينه باي تونس مؤدبا ومعلما لابنه الأمير محمد ناصر باي، وظل يتقلب في المناصب الحكومية، ومنها محرر لجريدة «الرائد التونسي»، ولما انتصبت الحماية الفرنسية على تونس سنة ١٨٨٢م تاقت نفسه للهجرة فمنعته السلطات التونسية من الهجرة فتعلل بأداء فريضة الحج فأذنت له بالسفر، وغادر تونس يوم ٧ رجب ١٢٩٩هـ الموافق ٢٥ مايو ١٨٨٢، وآب إليها من رحلته الحجازية في ٢٦ ربيع الأول ١٣٣٠هـ.

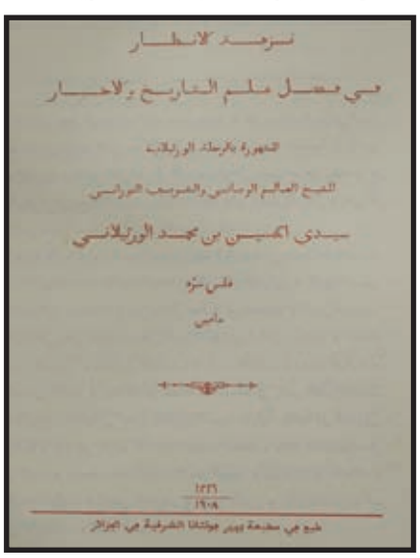

أما تاريخ كتابة هذه الرحلة الحجازية فقد أشار إليه في الصفحتين الثالثة والرابعة من نص الجزء الأول في موفى عام ١٨٨٥م.

وقد كتبها في ثلاثة أجزاء، ذكر في الجزء الأول مزية السفر، ثم وصف رحلته إلى إيطاليا، وفي الجزء الثاني تكلم عن رحلته إلى الأستانة وآسيا الصغرى وبلاد الحجاز التي رآها في الأشهر الحرم.

وفي الجزء الثالث معلومات وأخبار وتراجم وتحقيقات وتعاريف بمختلف الصحف وبالرجال وبالنشاطات السياسية والاجتماعية والفكرية والثقافية والأدبية والصحفية للبلاد التي زارها.

رحلة العبدري (ت ٦٨٧-١٢٨٩م)

صاحب هذه الرحلة هو أبو محمد ابن محمد بن علي بن أحمد بن مسعود العبدري البلنسي، لا تُعلم سنة ميلاده، كما تعرف رحلته، وتاريخ ابتدائها هو يوم الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة عام ثمانية وثمانين وستمائة، وقد حققها الأستاذ أحمد بن جدو بكلية الآداب في جامعة الجزائر سنة ١٩٦٨م، وطبعت بمطابع البعث بقسنطينة سنة ١٩٧٠م.

وتعد هذه الرحلة وثيقة مهمة وأساسية لمعرفة أحوال البلاد الإسلامية المغربية في نهاية دولة الموحدين، وهي رحلة مغربية حجازية، ضاع الجزء الكبير منها، ولا سيما الجزء المتعلق ببلاد الحجاز والأماكن المقدسة في شبه

الجزيرة العربية، وإن كان الرحالة العبدري نفسه قد أشار في العديد من المواضع إلى مكة وأخذه العلم على يد علمائها وأشهر مشايخها، وسمى رحلته «ما سما إليه الناظر المطرق في خير الرحلة إلى بلاد المشرق»، وقد سماها المحقق «الرحلة المغربية».

خلال العهد العثماني

قام الرحالة المغاربة برحلات عديدة خلال العهد العثماني لأداء فريضة الحج، ولكن غالبية هذه الرحلات ضاعت، ولم نعد نسمع بها وبأصحابها شيئا، ومنها ما بقي منه بعض الأجزاء وضاع بعض الأجزاء الأخرى، ومنها ما هو منظوم كقصيدة الشاعر الفصيح والملحون سعيد المنداسي، والتي تعرف بـ «العقيقة» التي نظمها سنة ١٠٨٨هـ - ١٦٧٧م، وموضوعها مدح الرسول ﷺ، ووصف البقاع المقدسة وآثار البلاد الحجازية، ومنزله وذكرياته الدينية الغابرة، والتي شرحها العديد من العلماء الجزائريين.

ومن هذه الرحلات ما هو منثور، وقد لخص المؤرخ الجزائري الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله دوافع الرحلات المغربية الحجازية باتجاه البلاد المقدسة بقوله «...إن الجزائريين الذين توجهوا إلى الجزيرة العربية خلال العهد العثماني لم يذهبوا إليها كجغرافيين أو مؤرخين أو سائحين وإنما توجهوا إليها حجاجا يؤدون الفريضة، ويزورون الحرم الآمن. لذلك، كانت قلوبهم إلى البقاع المقدسة تسبق أرجلهم، وخيالهم يتجاوز مرمى أبصارهم، وأشواقهم إليها تنسيهم آلام الطريق ووعثاء السفر..».

ولنحاول تقديم رحلة الورثيلاني نموذجا من هذه الرحلات مستعينين بما قدمه المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله عنها.

رحلة الورثيلاني (ت ١١٩٣هـ)

تعد رحلة الورثيلاني، المسماة «نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار»، أهم رحلة مغربية عثمانية تتحدث وتصف أحوال الجزيرة العربية عموما وبلاد الحجاز ومكة والمدينة خصوصا، في القرن الثامن عشر الميلادي الثاني عشر الهجري.

وصاحبها هو الحسين بن محمد بن سعيد الورثيلاني (نسبة إلى بني ورثيلان بالقرب من سطيف بوسط الجزائر)، ولد سنة ١١٢٥هـ وتوفي فيها أيضا سنة ١١٩٣هـ في أسرة شريفة محافظة مشهورة بالعلم والرئاسة والأدب. وقد تعلم في قريته عند مشايخ بلدته، ثم طاف يطلب العلم في الجزائر حتى نشأ قوي الثقافة غزير العلم. حج ثلاث مرات، كانت الأولى سنة ١١٥٣هـ، والثانية سنة ١١٦٦هـ، والثالثة سنة ١١٧٩هـ. وكان يجمع ما وقعت عليه يداه من أخبار بلاد الحجاز في كل حجة وعن سائر بلاد الإسلام التي كان يمر بها، كتونس والمغرب وليبيا ومصر والحجاز، وقد سجل كل تلك الأخبار والمعلومات في رحلته.

ولم يكتب الورثيلاني رحلته بيده، ولكنه أملاها على تلامذته في حلقاته العلمية اليومية، كما جرت عادة المشايخ وقتئذ، ولذلك تعددت نسخها وتعددت التحويرات والتصحيفات فيها، وامتلأت بالاستطرادات والتكرار بسبب ضياع دفتره الأصلي الذي كان معه والذي كان يسجل فيه وقائع رحلته عندما تتوقف القافلة.

وقد ذكر ووصف رحلته لبلاد الحجاز وزيارة مدينة رسول الله ﷺ ثم رحلته إلى مكة وأدائه لمناسك الحج والعمرة وتعرفه فيها على «... الرباع والقفار والديار والمناطق والمياه والبساتين والأرياف والقرى والمزارع والأمصار والعلماء والفضلاء والنجباء والأدباء من كل مكان.. أنشأت رحلة عظيمة يستعظمها البادي ويستحسنها الشادي، فإنها تزهو بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار..».

وقد ضمن رحلته ما قرأه وما حفظه عن الشيوخ والرحالة السابقين له، ممن سبقوه وألفوا في أدب الرحلات.

وقد كانت أحكام الورثيلاني وتصوراته وتقريراته على المسلمين قاسية جدا، وذلك لانتشار قطاع الطرق واللصوص وكثرة الاعتداءات، وانحدار القيم والأخلاق والمثل، فمنذ خروجه من الجزائر إلى مكة إلى عودته وهو في شكاية وتذمر من أوضاع المسلمين المتردية، وقد كان قاسيا، كسلفه العبدري، على الرغم من الفارق الزمني الكبير بينهما، كما كان حكمه قاسيا حتى على أهل بلده، فقال في قافلة الحج الجزائرية في الحجاز بأنهم غلاظ شداد، منها قوله: «.. وأهل وطننا فيهم الغلظة والجفاء وسوء الأدب، وعدم إذعانهم للحكم..». ومما جاء فيهم أيضا قوله: «.. وأما الركب الجزائري فلا حكم عندهم أصلا، ولا يتفقون عند الأمر والنهي»، مما اضطره إلى الانفصال عنهم والانضمام إلى الركب المصري.

وقد تعرض لوصف المدن والقرى والآبار وصهاريج المياه، وكذلك وصفه لمدينة رسول الله ﷺ، ووصفه لبدر ورابغ وجبل أحد، ووصفه لمكة وضواحيها، ولكنه لما عاد إلى المدينة المنورة جاور واستقر فيها بعض الوقت ليتسنى له زيارة الأماكن الشريفة.

وقد سجل عادات أهل مكة والمدينة وتقاليدهم، وأحوال الطرق والدروب والمسالك والمحطات، والعلماء الذين أخذ عنهم أو التقاهم، والتقى في جبل عرفات بعالم جليل من جزيرة البحرين، ودار بينهما سجال طويل، اعترف له الورثيلاني بالفضل والعلم. وفي المدينة تعرف على عالم جليل يدعى الشيخ السمان القرشي، وربطتهما علاقة ودية وعلمية، ثم عرج ليصف لنا طريق عودته ومكثه بمصر.

والرحلة قيمة ومفيدة بقدر ما تحتويه من أخبار ومعلومات عن أحوال المسلمين في القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي.

مدير معهد المخطوطات العربية د. فيصل الحفيان:

طرق الحج القديمة ساهمت في التحضر

حوار: محسن عبدالفتاح

تعتبر فريضة الحج عامل توحيد للمسلمين، فبرغم المشاق والمعاناة والمخاطر التي كان قديما يتحملها الحجاج، حيث كانوا يعانون الأخطار والأهوال في طرق الحج القديمة وضروبه، الأمر الذي جعلها محفوفة بالخطر الدائم، كانوا يقدمون على أداء الفريضة دافعهم في ذلك الشوق إلى بلوغ الأرض المقدسة بصفاء روح ومتعة من التعبد الذي لا مثيل له.

كانت قوافل الحج تتحرك مبكرا من أركان الدنيا الأربعة، ومن قارّاتها الخمس، لتصل في توقيت مناسب مع بداية موسم الحج بالأراضي المقدسة، كانت رحلة - رغم مشاقها - فريدة مليئة بالعلم والمعرفة والثقافة والتي تمثل للحاج إضافات ثرية، وتجارب ومعارف ليس لها حد.

الناظر في وثائق التاريخ سوف يجد غنى واسعا لمادة تراث طرق الحج القديمة وآثارها الحضارية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية خاصة في وثائق الرحلات الحجازية وكتب الترجمة وكتب الفقه.

فقد نشرت قوافل الحجاج في طريقها العلم، وبنوا المساجد والمدارس الدينية والزوايا العامرة بالمشايخ والمريدين، وألّفوا في ذلك الكتب ونسخوها ونقلوها على رواحلهم زاد مسافر وتحفة قادم، في رحلة عمر.

عن طرق الحج قديما وأهمية تسليط الضوء عليها باعتبارها صفحات حضارية وتاريخية وثقافية للإسلام والمسلمين التقينا الدكتور فيصل الحفيان، مدير معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الاليكسو)، ليحدثنا عن هذا الموضوع التراثي المهم مركزا على طريق الحج القديم بين مينائي (عيذاب - جدة) على البحر الأحمر في مصر والمملكة العربية السعودية كنموذج لطرق الحج قديما.

● ماذا عن طرق الحج قبل الإسلام؟

- الطرق في زمن الجاهلية كانت مسلوكة إلى مكة المكرمة للحج أو التجارة، حيث يقام بالقرب منها سنويا ثلاثة أسواق هي (عكاظ، ومجنة، وذو المجاز)، وكانو يبتاعون في هذه الأسواق حتى حلول مناسك الحج، وعندما جاء الإسلام كان المسلمين قد كرهوا الاتجار في هذه الأسواق الجاهلية، فنزل قول الله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾(البقرة: ١٩٨).

● ثم ماذا كان الوضع بعد ظهور الإسلام؟

- بعد ظهور الإسلام وانتشاره في أرجاء الجزيرة العربية، وخارجها كانت الجيوش الإسلامية تنطلق من المدينة المنورة عبر الطرق القديمة المعروفة لديهم، لأنهم أدرى بها وبمواردها

من غيرها، وعندما اتسعت رقعة البلاد الإسلامية وتحولت قاعدة الخلافة إلى كل من الشام والعراق؛ حرص الخلفاء والأمراء على عمارة طرق الحج وتحديد مساراتها وحفر الآبار وبرك المياه لتجميع مياه السيول وبناء القصور والمساكن في منازل الطرق وفروعها.

● وهل صعوبات طرق الحج القديمة حالت دون إتمام فريضة الحج للمسلم؟

– عندما تسمو الغايات تهون الصعوبات وتسهل الوسائل ويهرع الناس إلى الحج مستخدمين كل الأسباب والوسائل التي تساعدهم على إنجاح مقاصدهم، مستجيبين لدعوة الرحمن في قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾ (الحج: ٢٧-٢٨).

● وماذا عن أهم طرق الحج من مصر إلى مكة؟ ومتى نشأ؟

– أحد أهم طرق الحج المصري على البحر الأحمر في العصور الوسطى (عيذاب –جدة).

وعن تاريخ نشأة ميناء عيذاب وازدهاره في العصر الإسلامي يرجع في الغالب إلى أواخر القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، متأثرا في ذلك بتطور الحركة الملاحية في البحر الأحمر، وزادت أهمية عيذاب كطريق للحج إلى جدة، ابتداء من سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م، بسبب الشدة العظمى، التي قاستها مصر في عهد الخليفة العبيدي، المستنصر بالله، وتحولت قوافل الحجاج المصريين والمغاربة والأندلسيين عن طريق شبه جزيرة سيناء إلى طريق النيل حتى إدفو أو أسوان، ومنها عبر الصحراء الشرقية إلى عيذاب، وقد كان لعيذاب شهرته العالمية زمن دولة العبيديين، وأصبح من أعظم مراسي الدنيا في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي نتيجة رواج وازدهار تجارة البحر الأحمر.

● هل تطور هذا الطريق القديم بمرور الزمن؟

– نظرا للزيادة المطردة في الحركة و النقل للتجارة والحجاج على الطريق البحري (البحر الأحمر) احتاج الأمر إلى خدمات شركات ملاحية منتظمة، فتم إنشاء شركات مصرية للملاحة التجارية وحمل البضائع والمسافرين، وذلك عام ١٨٥٢م، وكان لفتح قناة السويس المصرية عام ١٨٦٩م، دور رئيسي في تغيير الأنماط الاقتصادية في مصر والحجاز والبحر الأحمر، وتحولت أعداد كبيرة من السفن التي كانت تقصد رأس الرجاء الصالح إلى طريق البحر الأحمر، وخلال كل هذه الفترات لعب هذا الطريق دورا رئيسيا في حركة التجارة والنقل خلال القرن التاسع عشر وبعده.

وماذا عن البعد الثقافي والحضاري لطرق الحج القديمة بشكل عام؟

هذه المواقع والطرق أصبحت بفضل عبور الحجاج منها طوال موسم الحج ذهابا وإيابا مراكز ثقافية وحضارية يجتمع فيها رجال العلم والتجار الذين تجمعهم الصدفة هناك.

إن أجمل ما يلاحظه المتتبع لمحطات الحج ومراكزه هو ما يقف على المرء من وجود هذه المراكز في قلب الصحراء مجتذبة إليها طلبة العلم ورجال الفكر والثقافة، بل والأكثر من ذلك نجد بعض هذه المحطات، وخاصة الكبرى تحتوي على عدد من المعاهد والمدارس التي أسستها جهات بعيدة عن تلك المحطات بقصد أن تكون مرجعا لمذهب من المذاهب التي تعتمدها تلك الجهات، وبهذا تصبح هذه المحطات مركز حوار بين المذاهب والآراء. ومن هنا نجد أهمية هذه المراكز، حيث أنها تعد تراثا ثقافيا لا نجد مثيلا له في الحضارات الأخرى، وقد ذكر الرحالة ابن بطوطة، وهو في طريقه من المغرب لائحة بالمراكز العلمية من طنجة إلى الإسكندرية نرى من خلالها عددا من المدن التي كانت مستعدة لاستقبال الحجاج وتكريمهم وتزويدهم بمختلف الوسائل التي تساعدهم على التنقل من محطة إلى أخرى دون أن يتعرضوا إلى ما يهدد أمنهم، وفي كل هذه المحطات نسمع عن شخصيات علمية تقوم بواجبها في التنوير ونشر المعرفة.

لقد استحق درب الحج المصري القديم بين مينائي (عيذاب– جدة) وعن جدارة أن يكون أحد أهم المواقع الأثرية في سيناء و التي اعتبرتها منظمة اليونيسكو على قائمة التراث العالمي، فهذا الدرب العتيق شهد بانتظام قوافل الحج المباركة لأكثر من ٦٠٠ عام، ونال هذا الطريق اهتمام السلاطين وولاة المسلمين زمن ازدهاره، ووفّروا به كل سبل الراحة لرواده من الحجيج. وليس أقل من تعاون المنظمات العربية والإسلامية المهتمة بالتراث الإسلامي فيما بينها من أجل إحياء هذا الطريق ودراسته وتوثيقه تاريخيا خدمة لعلمائنا وكنموذج يسري ويعمم فيما بعد على بقية طرق الحج القديمة تعميما للفائدة.

طرق الحج ومسالكه

تركي محمد النصر

تُعد طرق الحج منجزا حضاريا مهما من منجزات الحضارة الإسلامية، فقد سارت عليها قوافل الحجيج بروحانية كبيرة تبتغى مرضاة الله، متوجهة إلى رحاب البيت العتيق؛ استجابة لدعوة خليل الرحمن عليه السلام. ولم تكن هذه الطرق مجرد مسارات لعبور الناس والدواب والبضائع؛ بل كانت شرايين حياة تواصل الناس، وتنقل الأفكار والطباع والعادات والتقاليد من مجتمع إلى آخر.

وإن الحج كان - وما زال - نعمة كبرى على العالم الإسلامي. ولولا الحج وانتظام أوقاته لما عمرت طرق المسلمين بالقوافل والتجار؛ لأن كل بلد من بلاد الإسلام كان يرتب شؤون تجارته بحسب موقعه من الأراضي المقدسة، فأهل الأندلس والمغرب الأقصى - مثلا - كانوا يخرجون إلى الحج في قوافل ضخمة قبل موسم الحج بسنة ونصف السنة على الأقل! وكان كل حاج يحمل معه شيئا من محصولات بلاده المطلوبة في بلاد أخرى، ويبيع ويشتري على الطريق، وهكذا كانت ركبان الحج تعتبر من عوامل الرخاء الاقتصادي في العالم الإسلامي، وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى منافع الحج إلى جانب ثواب أدائه.

قال الله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ (الحج:٢٧-٢٩).

لقد تضمنت هذه الآية الكريمة: مشروعية الحج، والرحلة إليه، وطرقه، والفوائد المرجوة منه.

هذا، وتعد دراسة طرق الحج من أهم الدراسات الثقافية والجغرافية في التاريخ الإسلامي؛ وذلك لأنها تدعو إلى دراسة دقيقة عميقة للطرق والوسائل المؤدية إليه، والتعرف على خصائص البلاد والشعوب التي يمر بها الحاج منذ أن يغادر بلده حتى يبلغ بلاد الحرمين الشريفين.

ولعل هذا الاهتمام بطرق الحج يأتي في سياق ما للحج من فوائد: مادية وروحية واقتصادية واجتماعية وثقافية وتاريخية، وما للرحلة المباركة من دور في توثيق الصلة بين الشعوب الإسلامية، والعمل على الوحدة الثقافية والفكرية بين المسلمين، وذلك لما تتضمنه هذه الرحلة من لقاءات وحوارات في طرق الحج، وأثناء اللقاءات في رحاب الأراضي المقدسة.

والناظر إلى حال الجزيرة الجغرافية في العصر الإسلامي؛ يجد أنها قد شهدت ظهورا أو تطورا لسبعة طرق رئيسية للحج والتجارة، هي:

١. طريق الحج الكوفي.
٢. طريق الحج البصري.
٣. طريق الحج الشامي.
٤. طريق الحج المصري (وبلاد إفريقيا والمغرب).
٥. طريق الحج اليمني الساحلي.
٦. طريق الحج اليمني الداخلي.
٧. طريق الحج العماني.

وجميع هذه الطرق الرئيسية تتصل بعضها مع بعض في نقاط رئيسية أو فرعية، وقد لقيت هذه الطرق عناية ملموسة من قبل الخلفاء المسلمين وولاتهم وكذلك من بعض التجار المسلمين، على مر العصور؛ حيث أقيمت على طرق الحج منشآت عديدة مثل:

١. المساجد.
٢. المحطات العامة.
٣. منازل السكن ومرافقها.
٤. الآبار والعيون.
٥. الخانات.
٦. الأسواق.
٧. المنارات (لتوضيح مسار تلك الطرق وتفرعاتها، وهداية الحجاج إليها).

وبعض هذه الطرق استمر استخدامه حتى عهد قريب، فيما اندثر البعض الآخر لأسباب عديدة، منها: الظروف المناخية والتغيرات الجغرافية، والتنقلات

السكانية. وفيما يلي عرض موجز لهذه الطرق:

أولا - طريق الحج الكوفي (درب زبيدة)

يعد طريق الحج الكوفي إلى مكة المكرمة من أهم طرق التجارة والحج في العصر الإسلامي. وقد عرف هذا الطريق فيما بعد باسم «درب زبيدة»، نسبة إلى الفاضلة زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي (ت ٢١٦هـ)، زوجة الخليفة العباسي هارون الرشيد (ت ١٩٣هـ) رحمه الله؛ حيث قامت رحمها الله بالإشراف على إعادة تنظيمه بطريقة هندسية انسيابية دقيقة.

تتمثل أهمية هذا الطريق، الذي يبلغ طوله حوالي ١٤٠٠ كيلومتر، في الخدمة العظيمة التي قدمها إلى حجاج بيت الله الحرام من عاصمة الدولة العباسية (بغداد)، إلى مكة المكرمة، مرورا بالكوفة.

وقد تمت الخدمة المتميزة للحجيج على هذا الطريق من خلال:

١. إنشاء منارات، ووضع علامات إرشادية على الطريق لإرشاد الحجاج.

٢. إنشاء برك لجمع ماء المطر ليستفيد منه الحجاج ويتزودوا به.

يمتد هذا الطريق من بغداد مرورا بالكوفة، حتى ينتهي في عين زبيدة التي تنبع من وادي نعمان، وكانت قد حفرتها واهتمت بمنشآتها السيدة زبيدة رحمها الله.

إلا أن بعض التغيير على مسار الطريق قد حدث بعد انتشار الإسلام في المشرق الإسلامي؛ حيث تحولت المنشآت التي أقيمت على الطريق إلى محطات رئيسية، وبدأ الطريق، الذي كان معروفا في عصري الخلافتين الراشدة والأموية، يزدهر بالتدريج، وقد أولاه الخلفاء العباسيون اهتماما ملحوظا، وأحدثوا فيه إصلاحات كبيرة، ولا سيما تأمينه وتسبيله.

ولم يستبعد المؤرخون أن يكون هذا الدرب قد كان معروفا قبل العصر الإسلامي؛ حيث كانت الحيرة عاصمة المناذرة بالقرب من الموقع الذي قامت فيه الكوفة فيما بعد سنة ١٤هـ.

وربما كانت القوافل التجارية من مكة والمدينة تتجه إلى الحيرة عبر هذا الطريق، وكانت توجد على الطريق مناهل للمياه قبل الإسلام، منها: القادسية، العذيب، الثعلبية، شرف، توقف في بعضها الجيش الإسلامي بقيادة سعد بن أبي وقاص قبل دخوله العراق.

ولعل القادم من الكوفة عبر درب زبيدة لابد أن يمر عبر «فيد» - هي قرية في نصف طريق مكة من الكوفة - وكان الحجاج القادمون من الكوفة وعبرها وما حولها يودعون ما يثقل من أمتعتهم عند أهلها، فإذا رجعوا أخذوها، ووهبوا لمن أودعوها شيئا من ذلك. وتعتبر هذه القرية الصغيرة مهمة جدا بالنسبة إلى الحجاج؛ وذلك بسبب وجودها في موقع مقطوع.

ذكر ياقوت أن أهلها مغوثة الحاج في هذا الموضع المنقطع، ولا غرو في ذلك؛ فهم أحفاد حاتم الطائي.

ثانيا - طريق الحج البصري

تأسست مدينة البصرة بعد الفتح الإسلامي للعراق سنة ١٤هـ، وارتبطت بطريق مباشر مع مكة المكرمة. ويعد طريق البصرة من الطرق المهمة في العصر الإسلامي المبكر، ويبدو أن أهمية هذا الطريق تركزت في القرون الثلاثة الأولى للهجرة. ويلتقي طريق البصرة مع طريق الكوفة في ذات عرق، ويلتقي الطريقان أيضا في معدن النقرة الذي يرتبط في هذه المحطة منطلقا من النباج.

ويلاحظ في كتابات الجغرافيين المسلمين قلة المعلومات التفصيلية عن طريق البصرة، ولعل سبب ذلك أن معظمهم عاش في القرن الثالث الهجري، وهي الفترة التي كان التركيز فيها على طريق الكوفة أكثر من طريق البصرة. ومع ذلك، لم يكن هذا الطريق بمنأى عن اهتمام الخلفاء المسلمين.

أما آثار الطريق فنشاهدها إلى اليوم في عدد من المواقع، ففي الأسياح عين ابن فهيد توجد أطلال قصر كبير مبني بالحجارة وله بقايا عقود نصف دائرية وغرف جلوس، وبالقرب منه آثار العيون والقنوات القديمة والبرك والسدود، وفي ضرية لا تزال آثار البلدة القديمة باقية لليوم، بالإضافة إلى العيون والبرك وتشاهد آثار الأعلام «الرجوم» المتراكمة على امتداد الطريق، خصوصا في المناطق السهلية المستوية. ويلاحظ أن بعض محطات الطريق استمر فيها أو بالقرب منها الاستيطان الحضاري؛ بسبب توافر المياه والمناطق الرعوية، كما أن بعض المحطات اختفت معالمها

تحت الكثبان الرملية.

ومن المحطات المهمة على طريق البصرة بركة الخرابة الواقعة عند التقاء الطريق مع طريق الكوفة بالقرب من ذات عرق، وهي عبارة عن بركة دائرية مدرجة من أعلاها إلى أسفلها، وتجاورها بركة مربعة مدرجة أيضا، وبينهما على مستوى سطح الأرض غرفة للمراقبة مقببة ولها أبواب ذات عقود نصف دائرية، ويمر من تحت مستوى الغرفة قناتا تصريف للمياه من البركة المربعة (المصفاة) إلى البركة الدائرية.

وتصل المياه إلى البركة بواسطة قناة أرضية مسقوفة تمتد من وادي العقيق لمسافة ١٥ كيلا تقريبا، وبالقرب من هذه النقطة توجد بركة العقيق الواقعة في محطة غمرة المشهورة. ولا يستبعد أن بركة الخرابة كانت تخدم المسافرين القادمين من البصرة والكوفة على حد سواء.

ويصل طول طريق البصرة - مكة حوالي ١٢٠٠ كيل، ولا تزال بعض محطاته القديمة محتفظة بأسمائها حتى يومنا هذا.

ومن هذه المواقع: حفر أبي موسى في موضع حفر الباطن الآن.

ثالثا - طريق الحاج الشامي

يعد هذا الطريق من الطرق الرئيسية المهمة، حيث يصل مدينة دمشق بالمدينة المنورة. وبلغ عدد محطاته بين المدينتين ٢٣ محطة، يقع معظمها داخل الأراضي السعودية، وقد تغيرت أحوال الطريق عبر العصور الإسلامية بسبب تغير الأحوال السياسية، الأمر الذي أدى إلى ظهور محطات ومرافق جديدة في العصور الإسلامية المتأخرة، وهي فترات الأيوبيين والمماليك والعثمانيين، وكان هذا سببا في اختفاء محطات ومرافق كانت

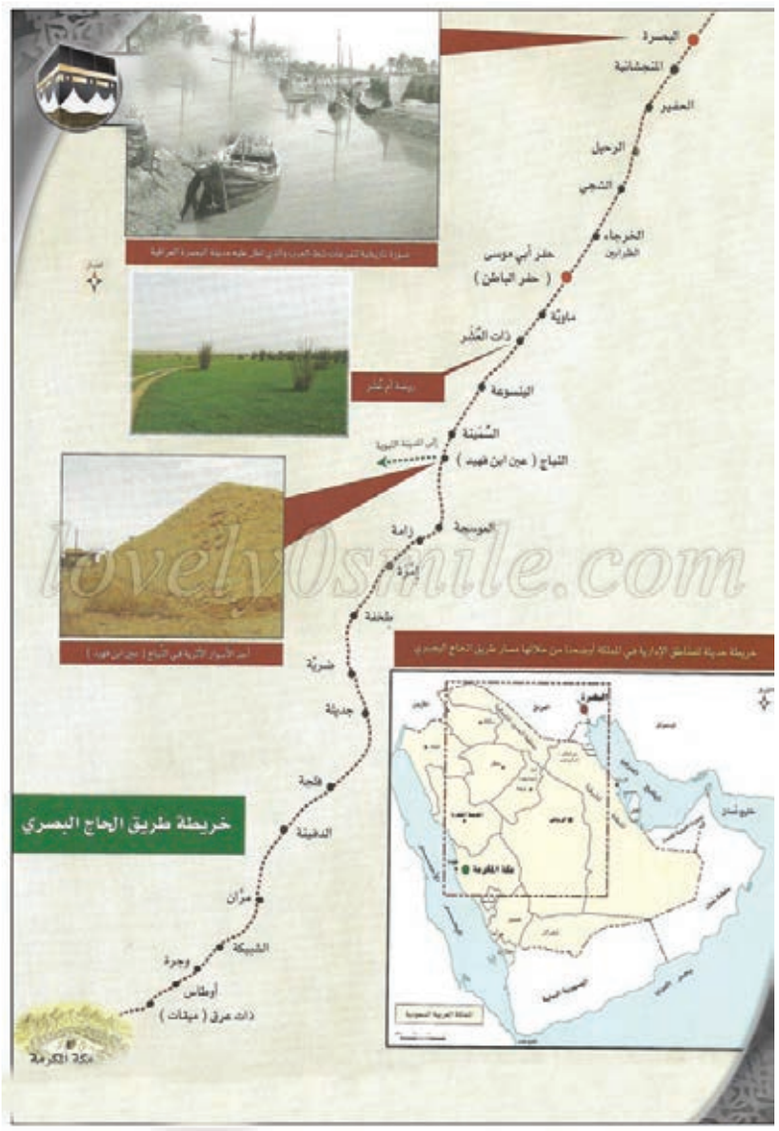

عامرة في العصر الأموي والعباسي والفاطمي.

وتدل آثار الطريق الباقية على تطور الحضارة الإسلامية، فقد تم اكتشاف عشرات النقوش الإسلامية، التي يعود بعضها إلى القرن الأول الهجري، وهناك كتابات تأسيسية على منشآت الطريق من قلاع وبرك وآبار.

ومن أهم آثار الطريق:

١. قلعة ذات الحاج.

٢. قلعة تبوك.

٣. آثار الأخضر، وفيها مدينة إسلامية، وثلاث برك وقلعة.

٤. آثار المعظم وفيها قلعة وبركة وآثار البريكة، وكانت تسمى قديما بـ «الدار الحمراء»، وفيها بقايا قلعة وبركة.

٥. آثار الحجر والعلا، والتي يتبعها عدد من المرافق.

٦. قلعة زمرد.

٧. قلعة الصورة.

٨. أسطبل عنتر والفحلتين.

٩. آثار نصيف.

١٠. قلعة الحفيرة.

وتشاهد أيضا على امتداد طريق الحج الشامي آثار سكة حديد الحجاز التي تم تنفيذها في عهد السلطان عبدالحميد في الفترة ما بين عامي ١٩٠٠ و١٩٠٦م.

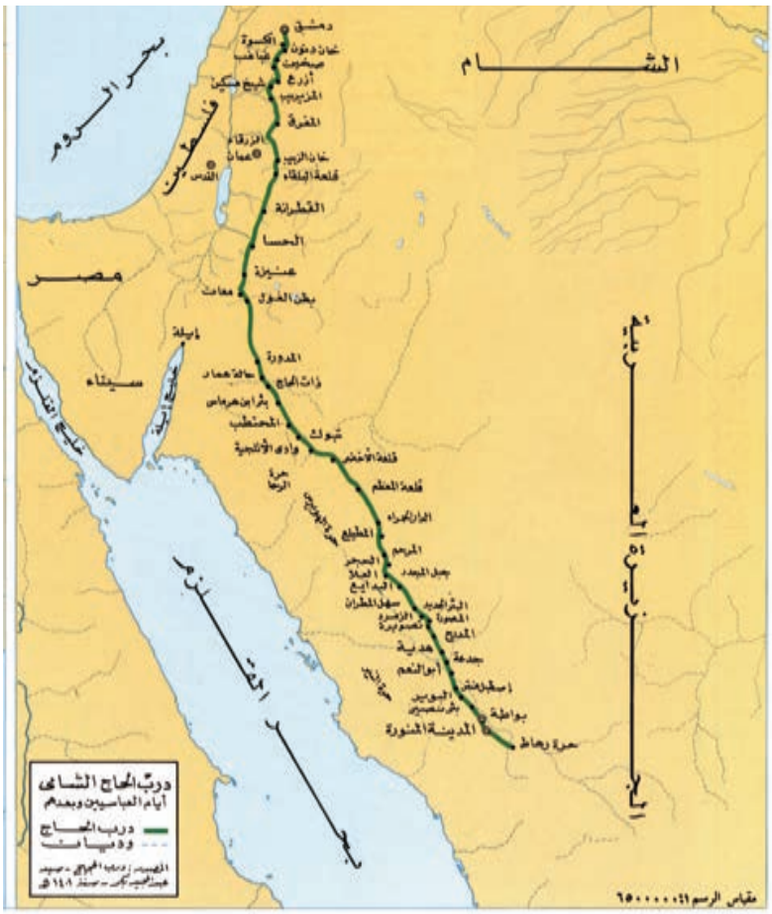

ومن الآثار الباقية للطريق: المحطات المبنية بالحجر وأجزاء من مسار السكة والجسور.

أما وصف تفاصيل طريق الحج الشامي؛ فلعل رحلة ابن بطوطة من الشام إلى الحجاز تكون نموذجا حيا يصف لنا هذا الطريق:

فبعد تجمع القوافل في دمشق تنطلق باتجاه الجنوب مرورا بالكسوة وإزرع ثم أذرعات (درعا)، ثم إلى قلعة البلقاء والقطرانة، ثم بعد الكرك والثنية يرتحلون إلى معان (وهي آخر بلاد الشام)، ثم من عقبة الصوان إلى الصحراء التي يقال فيها: «داخلها مفقود وخارجها مولود». وبعد مسيرة يومين ينزلون ذات حج، وهي حسيان لا عمارة بها، ثم إلى وادي بلدح ولا ماء به، ثم إلى تبوك وهو الموضع الذي غزاه رسول الله ﷺ، ثم يرحل الركب من تبوك ويجدون السير ليلا ونهارا خوفا من هذه البرية، وفي وسطها الوادي الأخيضر، ومن هنالك ينزلون بركة المعظم، وهي ضخمة، ونسبتها إلى الملك المعظم من أولاد أيوب. وفي الخامس من أيام رحيلهم عن تبوك يصلون البئر الحجر حجر ثمود، وهي كثيرة الماء، ولكن لا يردها أحد من الناس، مع شدة عطشهم، اقتداء بفعل رسول الله ﷺ حين مر بها في غزوة تبوك.

وهناك قرية العلا، وهي قرية كبيرة حسنة لها بساتين النخل والمياه المعينة، يقيم فيها الحجاج أياما، يتزودون ويغسلون ثيابهم.

ثم يرحل الركب من العلا فينزلون في الوادي المعروف بالعطاس، وهو شديد الحر تهب فيه السموم المهلكة.

ثم ينزلون البلد الكريم الشريف طيبة مدينة رسول الله ﷺ، ثم يتابعون دربهم الميمون إلى مكة الكرمة.

رابعا - طريق الحج المصري (وبلاد إفريقيا والمغرب)

كانت مصر هي ملتقى حجاج المغرب والأندلس وجميع دول شمال إفريقيا، حيث يتجمعون هناك في عدة مناطق في القاهرة، مثل: جامع أحمد بن طولون، وعند بركة الحج (وهي الآن منطقة حدائق القبة)، ويأتي أمير الحج الذي سيكون مسؤولا عن بعثة الحجاج المصريين.

وتتجمع الشرطة في حضور عدد كبير من المواطنين، وهم يودعون كسوة الكعبة إلى الأراضي المقدسة.

لقد قسم الأستاذ الدكتور علي إبراهيم الغبان المراحل التي مر بها درب الحج المصري إلى أربع مراحل:

- المرحلة الأولى: وتمتد من الفتح الإسلامي لمصر وحتى منتصف القرن الخامس الهجري، وكان للطريق خلالها مساران في الجزيرة العربية: أحدهما داخلي والآخر ساحلي.

- المرحلة الثانية: مرحلة طريق عيذاب، وتمتد من عام نيف وأربعين وأربعمائة إلى سنة ٦٦٦هـ، وخلال هذه الفترة توقف استخدام الطريق البري في شمال الحجاز، وكان الحجاج المصريون يركبون السفن النيلية إلى قوص، ثم يسافرون بالقوافل إلى عيذاب، ثم يعبرون البحر إلى جدة.

- المرحلة الثالثة: وتمتد من سنة ٦٦٧هـ إلى سنة ١٣٠١هـ، وخلالها عاد الحجاج إلى استخدام الطريق البري الساحلي.

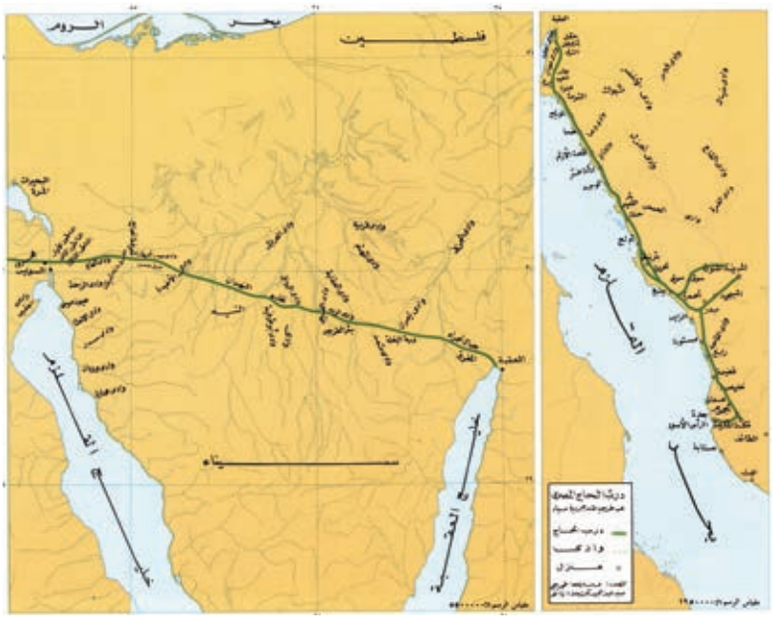

– المرحلة الرابعة: من سنة ١٣٠١هـ إلى يومنا هذا.

كانت «الفسطاط» هي مركز التجميع في طريق الحج المصري، وكان ميناء عيذاب هو بداية الرحلة البحرية إلى بيت الله الحرام، وهو أهم الموانئ المصرية على البحر الأحمر، وكانت ترد إليه مراكب الهند واليمن وتغادره، بالإضافة إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة، وقد ظل هذا الميناء طريق الحج الوحيد إلى مكة لفترة زمنية طويلة.

وكانت قوافل حجاج بلاد المغرب الإسلامي تبدأ بالانطلاق من مدن المغرب كمراكش وفاس وسلا، وأحيانا كانت تضم حجاج السنغال، وبعد تجمع الحجاج تنطلق قافلتهم سالكة إما الطريق البري المحاذي للبحر المتوسط، وإما الطريق البحري عبر البحر المتوسط.

واعتادت هذه القافلة أن تكون على موعد مع غيرها من قوافل الحج للحجاج الجزائريين والتونسيين والليبيين؛ وذلك لمرور طريق الحج بمدن المهدية وصفاقس وسوسة وطرابلس وبرقة وطبرق، ثم تعبر هذه القوافل مجتمعة الأراضي المصرية بمحاذاة الساحل حتى تصل إلى ميناء الإسكندرية ثم رشيد، وبعدها تركب قوافل الحجاج المراكب النيلية عبر فرع رشيد إلى أن تصل جميعها إلى القاهرة وتلتقي مع قافلة الحج المصرية حتى تأنس بها ذهابا وإيابا عند مكان شمال القاهرة كان يعرف آنذاك ببركة الحاج، وموقعه حاليا القرية المعروفة باسم البركة إحدى قرى مركز شبين القناطر في محافظة القليوبية.

ثم تواصل جميع القوافل مسيرتها برا حتى تصل إلى ميناء القلزم (السويس حاليا)، ومنه إما مواصلة الطريق البري عبر سيناء، ثم محاذاة البحر الأحمر برا إلى مدينة جدة، وإما تبحر القوافل في السفن عبر البحر الأحمر إلى ميناء جدة ومنه برا إلى المدينة ثم إلى مكة المكرمة.

خامسا - طريق الحج اليمني الساحلي

وينطلق هذا الطريق من صنعاء ويتجه بمحاذاة ساحل البحر الأحمر، وبين مكة وصنعاء ١٢ محطة. وقد أوضحت المسوحات والدراسات الأثرية الحديثة عددا من المواقع الأثرية التي كانت عامرة في العصور الإسلامية المبكرة.

ومن أهم هذه المواقع: سهى، وعثر، وعشم، والسرين. وكشفت الدراسات عن الآثار المعمارية بالإضافة إلى أدوات فخارية وخزفية ونقوش خطية وغيرها.

سادسا - طريق الحج اليمني الداخلي

يبدأ هذا الطريق من صنعاء مرورا بصعدة، ويسلك المناطق الجبلية لمنطقة عسير والحجاز مارا بالقرب من موقع جرش، ثم يتجمع إلى بيشة وتبالة وتربة حتى يصل قرن المنازل فمكة المكرمة.

وقد بلغت المحطات على هذا الطريق فيما بين صنعاء ومكة ٢٥ محطة رئيسية.

وكشفت الاستطلاعات والدراسات الأثرية عن جوانب مهمة تتمثل في الأعمال الهندسية من رصف للطريق في المناطق الوعرة والمنشآت المائية والكتابات الإسلامية الصخرية المبكرة وأحجار المسافة، ومن المناطق التي يمكن فيها مشاهدة آثار هذا الطريق منطقة الراكبة والمصلولة وكريف العلب.

سابعا - طريق الحج العماني والساحل الشرقي للجزيرة العربية

هناك طريقان داخليان من عمان إلى مكة، أحدهما يأخذ من عمان إلى يبرين ثم إلى اليمامة ثم إلى ضرية. وتذكر المصادر الجغرافية أن ضرية كانت ملتقى حجاج بصرة والبحرين

وهناك يفترقون إذا انصرفوا من الحج، فيأخذ حجاج البصرة طريق الشمال وحجاج البحرين طريق اليمين. وهناك طريق آخر من عمان يتجه إلى فرق ثم عوكلان ثم إلى ساحل هباة وبعدها إلى الشحر.

وبإمكان حجاج عمان أخذ أحد الطريقين من اليمن عن طريق الحج الساحلي الموازي لساحل البحر الأحمر الذي يمر بعدد من المخاليف والمنازل مثل: مخلاف عك والحردة ومخلاف حكم وعثر ومرسى وضنكان والسرين حتى الشعيبة ثم جدة فمكة.

كما يمكن لحجاج عمان أخذ الطريق الداخلي من اليمن إلى مكة مرورا بعدد من المنازل بعضها لا يزال معروفا حتى اليوم، مثل: رنية وتربة حتى يصل إلى مكة.

خاتمة

بين الأستاذ الدكتور سعد بن عبدالعزيز الراشد من خلال دراسته لطرق الحج ووصفها، أن هذه الطرق تتركز في معظمها ضمن النطاق الجغرافي للمملكة العربية السعودية، وآثارها الإنشائية والمعمارية المختلفة لا تزال باقية حتى اليوم الحاضر كشاهد على اهتمام المسلمين بطرق الحج على مر العصور، كما أن اهتمام بلاد الحرمين بالمحافظة على هذه الآثار الخالدة نابع من اهتمام الدولة بتراث المسلمين كونه مصدرا من مصادر دراسة التاريخ الإسلامي للأجيال الحاضرة واللاحقة.

غير أن رحلة الحج إلى الأراضي المقدسة كانت على الدوام محفوفة بالمخاطر، خصوصا في العهود التي بدأت فيها الفتن تدب في الدولة الإسلامية وبداية اختلال الأمن بسبب الحروب والفتن وتعديات القبائل على الطرق وأعمال النهب والسلب والقتل وقطع الطرق منذ نهاية القرن الثالث الهجري؛ الأمر الذي أدى إلى انقطاع الحج لسنوات متصلة، بالإضافة إلى هدم وتخريب محطات طرق الحج، وتدمير الآبار والبرك، بل إن الأمر كان يتعدى إلى إثارة الذعر والخوف لحجاج بيت الله الحرام داخل المشاعر المقدسة أحيانا.

كما أن الحجاج كانوا يتعرضون لمخاطر الجوع والعطش في سفرهم على طرق الحج الطويلة، ويتعرضون أيضا لبعض الكوارث الطبيعية في أسفارهم، ومن ذلك العواصف والبرد الشديد والأمطار الغزيرة والسيول الجارفة.

ولقد أراد الله تعالى أن يكون لبلاد الحرمين الاهتمام بالحجاج وتأمين الطرق التي يسيرون عليها؛ حيث أصبح الحجاج آمنين عند أسفارهم وأثناء أدائهم لشعائر الحج، لدرجة أن الراكب كان يخرج وحده من اليمن وتهامة الحجاز والبصرة والبحرين وعمان وأنقرة والشام لا يحمل سلاحا، بل سلاحه عصاه لا يخشى كيد عدو ولا أحد يريده بسوء.

مراجع

● انظر كتاب: «معجم ما ألف عن الحج عبر العصور» للدكتور عبدالعزيز بن راشد السنيدي، وكتاب: «المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة» لأبي إسحاق الحربي، وتحقيق حمد الجاسر، ومعجم البلدان لياقوت الحموي. وكتاب: «طريق الحج البصري» لعوض بن صالح السرور، ودراسة بعنوان «طرق الحج القديمة» للدكتور سعد بن عبدالعزيز الراشد، و«أطلس تاريخ الإسلام» للدكتور حسين مؤنس.

من الإبل إلى السيارات.. وصف دقيق عن شهود عيان

حملات الحج الكويتية

التحرير

يوثق كتاب «حملات الحج الكويتية عبر التاريخ» الذي أعده كل من الكُتّاب عدنان سالم الرومي وصالح خالد المسباح ود. خالد يوسف الشطي، والصادر في الكويت عن دار «اقرأ» للنشر عام ١٤٣١هجرية ٢٠١٠ ميلادية الحملات التي قام بها أبناء الكويت منذ نشأتها، سواء على الإبل حيث خطورة قطع المفازة المهلكة، أو بواسطة السيارات حديثا، والكتاب غني بالتفاصيل والمعلومات الدقيقة، بل وبالطرائف أيضا التي حدثت في ذلك الوقت.

يبدأ المؤلفون بتحديد موقع الكويت لمن يجهله، فيذكر الكتاب الذي يقع في نحو ٥٤٠ صفحة من القطع المتوسط أن الكويت تقع على جون صالح للملاحة، محمي بجزيرة فيلكا، وهذا الموقع لم يعين ويحدد نشاط سكانها الاقتصادي، بل إنه هو الذي أمدها بأسباب البقاء وجعلها المرفأ الطبيعي لأراضي نجد والمنفذ للشمال الشرقي من شبه الجزيرة العربية، كما جعلها حلقة وصل تجاري يصل إيران بالجزيرة العربية، ويوضح المؤلفون أن «هذا ما يجعلهم يميلون إلى الرأي الذي يرى أن ميناء الكويت قديما لعب دورا واضحا كمحطة لعبور حجاج إيران والعراق إلى الأماكن المقدسة في الجزيرة العربية».

ويذكر الكتاب أن أراضي الكويت اعتبرت -قديما- منزلا من منازل الحاج البصري، وخصوصا قرية الجهراء وما جاورها من الأراضي شمالا، مستشهدا بقصة وقعت في (١٢٦١هـ-١٨٤٥م) حينما «خرج حجاج كثر من بلاد فارس والبحرين والأحساء والقطيف والكويت، وبينما هم جادون في السير إلى بيت الله الحرام إذ خرج عليهم مجموعة من اللصوص حول الدهناء، على رأس سرية ضخمة فأوقعوا فيهم قتلا ونهبا، وذهب أكثر من نصف الحجاج قتلا، أما بقية الحجاج فإنهم هربوا هائمين على وجوههم في البراري، ومعظمهم ماتوا جوعا وعطشا، وغنموا منهم أموالا كثيرة، فلما علم بذلك الإمام فيصل جرد عليهم جيشا كبيرا، وخرج هذا الجيش من الرياض بقيادته، وبعد ذلك تبعه متعب بن عبدالله الرشيد أمير حائل بجيش كثيف من شمر».

ويقول المؤلفون: أقدم نص حصلنا عليه يوثق رحلات الحج في الكويت، النص الذي نشرته مجلة الدار في عددها الثاني عام ٢٠٠٦م الذي فيه «أن قافلة خرجت من الكويت (١٢١٨هـ- ١٧٩٨م) لأداء الحج حتى وصلت «ركبة» التي تقع بعد «الموية» حيث لم يأذن لهم الإمام سعود بن عبدالعزيز بالتقدم إلى مكة، وأمرهم مندوبه بالعودة إلى الكويت ولا يعلم السبب».

استقبال الحجاج الإيرانيين

كانت الكويت محطة أو منزلا لاستقبال الحجاج الإيرانيين، وكانت دولة بني خالد تقوم بهذا الدور، ومنها أن مدينة الكوفة قديما كانت من منازل الحاج العراقي والإيراني، وقد قامت بهذا الدور منذ القدم، وكان يتفرع منها طريقان: أحدهما يتجه إلى البصرة ثم إلى الحفر، وطريق آخر يتجه إلى حائل ثم المدينة. هكذا يؤكد الكتاب ويضيف المؤلفون أنه «بعد البحث في المراجع والمصادر التاريخية وجدنا أن في الكويت حملات حج على الإبل، منذ عام ١٨٠٠م، حيث كان للحاج فهد بن راشد الدويلة حملة منذ ذلك التاريخ، فقد ولد عام ١٧٧٢م وتوفي عام ١٨٤٥م.

وأما أقدم تاريخ الحجاج الكويت عن طريق البحر حصلنا عليه فهو سنة (١٢٧٠هـ-١٨٥٣م)، وفي هذه السنة حج والد الشيخ محمد الصالح الإبراهيم، وهو صغير عن طريق البحر، وكان معه الحاج شاهين الغانم، ووالد الشيخ يوسف بن عيسى القناعي».

عصابات تتربص

وينقل الكتاب ما ذكره الرحالة الضابط الروسي الحاج: عبدالعزيز دولشتين عام ١٨٩٨-١٨٩٩م مما شاهده في الطريق بين مكة والمدينة، حيث يقول: «في الطريق بين مكة وجدة، حيث الحركة دائمة تشكلت من شتى الأوباش عصابات كاملة من قطاع الطرق تنهب وتسلب، على الدوام رغم وجود المخافر، أما في الطريق بين مكة والمدينة المنورة وينبع، فإن هذا الشر يتطور أثناء حركة الحجاج، فهناك قبائل برمتها تتعاطى السلب والنهب، دون أن تعتبر البتة ذلك جريمة، وتبيع علنا وبكل حرية ما تحصل عليه من الأشياء بهذه الطريقة، وأثناء إحدى الوقفات في الطريق بين مكة والمدينة المنورة، ظهر رجل من بطن لهابة، وأخذ يتنقل بين الركب كله عارضا بيع سلاح وحزام وألبسة حج وغيرها، وبدلة حاج قتله قبل ذاك، الأمر الذي اعترف به بنفسه علنا، ورغم السعر التافه الذي طلبه، لم يعمد أحد من الركب إلى شراء المعروض.

وفيما بعد حين تغفو القافلة، يعمد هؤلاء البدو إلى السرقة، متسللين خفية، ويسلبون كل ما تقع عليه أيديهم، وهناك كثيرون يعتقدون وليس دون مبرر، أن مقترفي أعمال النهب والسلب هم سائقو جمال القافلة بالذات، الذين كما يقال: يعرفون الأشرار جيدا، ويعطونهم التعليمات عمن ينهبون وكيف ينهبون، وما إلى ذلك، ولهذا يحاول المسافرون بجميع الوسائل أن يستميلوا سائقي الجمال في قافلتهم، بإعطائهم يوميا (البخشيش) وبقايا الطعام.

وباء رهيب

لعل أشهر أوبئة الكوليرا هو ما ظهر في سنة ١٨٣١م، والذي انتقل إلى الحجاز من الهند، وآنذاك كما يقال، مات ثلاثة أرباع الحجاج، وانتشر الوباء في عموم أوروبا، والوباء التالي نشب -كما يذكر الكتاب- في سنة ١٨٣٤م، ثم في سنة ١٨٣٧م وسنة ١٨٤٠م، ثم عاثت الكوليرا فسادا طوال خمس سنوات على التوالي -في سنوات ١٨٤٦، ١٨٤٧، ١٨٤٨، ١٨٤٩، ١٨٥٠م، ولكن وباء سنة ١٨٦٥م تميز بفتك شديد، وقد بدأ من الحجاج القادمين من الهند ودام في السنة التالية ١٨٦٦م.

ويقول شاهد عيان بحسب الكتاب: «كان الحج الكبير يوم الجمعة، الخامس من نيسان -أبريل عام ١٨٦٥م وقد توافد عدد خارق من الحجاج، للإقامة عند عرفات، كما بدا، جرت بسلامة، انتقلوا إلى منى، وهنا أيضا كان اليوم الأول هادئا، صحيح أن حجاجا ماتوا، ولكن عدد الموتى كان قليلا.

وآنذاك لم تكن قد ظهرت القاعدة القاضية بطمر الخرفان المذبوحة على سبيل التضحية، كان كل حاج يذبح ويرمي قرب خيمته، وقرب الخيمة أيضا كانوا يرمون بقايا الأغنام المذبوحة لأجل الأكل، قبيل مساء اليوم الأول انتشرت من تعفن جيف الاغنام رائحة كريهة إلى حد أنه كان من المستحيل التنفس.

وفي المساء ازداد في الحال عدد الموتى المنقولة جثثهم للدفن، وفي الخيام المجاورة لنا وقعت أيضا حالات مرض وموت، ولكن لم يخطر بعد في بالنا أن هذا وباء، في اليوم التالي، ازداد عدد الموتى إلى حد أنه لم يكن يتسنى دفنهم، وقبيل مساء

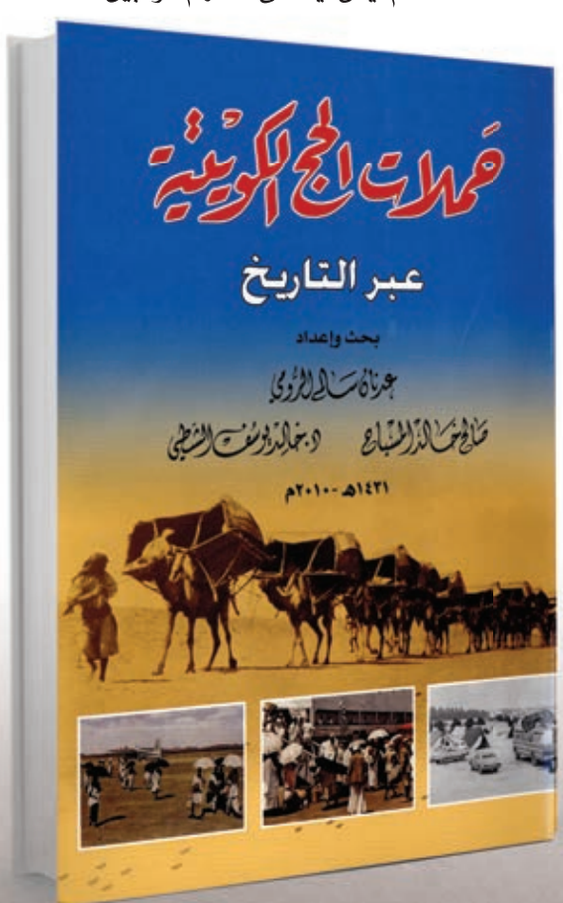

ذلك اليوم، كان شارع منى مكسوا كله بجثث الحجاج الذين ماتوا أثناء أداء شعيرة رمي الأحجار (الجمار)، ولأداء هذه الشعيرة كان يتعين السير على الجثث حقا وفعلا».

الاستعداد للحج قديما

يبدأ الاستعداد لرحلة الحج بإعداد الجمل ولوازم الرحلة، فيشتري صاحب الحملة الجمال قبل موسم الحج، ويضعها في الصحراء أو في حوطة يملكها، ويكون اختيار صاحب الحملة -عادة- الأنثى من الإبل، وذلك لما فيها من الصفات التي تؤهلها لتحمل مشاق الطرق أكثر من الذكر، ثم يقوم صاحب الحملة بوضع وسم الحملة على جزء من بدن الإبل، ليعرف صاحب الحملة إبله، إذا سرقت أو ضلت في الصحراء، وحفاظا على خوفها من التشقق بسبب السير الطويل في الطرق الصحراوية الوعرة فإنه يضع قطعة من الجلد على أخفافها، في حين يبدأ الحاج سواء صاحب حملة أو منفردا في إعداد بعض المواد اللازمة، والتي منها: شراء خيمة أو خيام سهلة الطي والنشر والنصب، وإعداد طقم -القهوة كاملا، من (فناجيل) ومحمصة ومدق وهاون وأوان لحفظ البن حبا ومسحوقا، وكانت هذه الأدوات تحفظ في كيس له جيوب، وكل جيب توضع فيه مادة من المواد، كما يقوم بشراء مؤن تكفي الفترة التي سيقضيها في هذه الرحلة: أرزا ودقيقا وبنا وسكرا، وتمرا يعمل على شكل «خبيصة».

إقامة الأفراح

ويوضح المؤلفون كيف أن الأفراح تعم إذا عُلِم أن رجلا في (الفريج) يريد الحج، فتكون الزيارات والتبريكات، ويوضع علم الكويت على سطح الدار.

فعندما تحين ساعة الرحيل يتم الوداع من الأهالي والأصدقاء والمعارف في (الفرجان)، وتنهمر الدموع لفراقهم، ولخشيتهم أن يصيبهم مكروه، لا قدر الله.

وبعد ذلك يبدأ أمير الحملة بتوجيه نداء إلى الحجيج بعدم مخالفة أوامره أو الإسراع وسبق الحملة أو التباطؤ عنها أو الانشغال بأمور ثانية بالبر مما يرهقه، وهو الشخص الذي همه الأول أن يصل إلى مكة المكرمة بالسلامة، مع عدم ضياع أحد من أفراد حملته، فبعد أن يتم وضع الزاد والماء على الإبل التي هي (الركوبة) التي بالإمكان ركوبها من دون خطورة، يبدأ مسير القافلة والكل يلوح لهم بالأيادي مودعين.

طرق الإبل

ويوضح الكتاب نقلا عن الشيخ سعد الربيعة الذي وصف طرق الإبل المعتاد من قديم الزمان وصفا دقيقا وافيا: إن الطريق كان يبدأ من الرقعي إلى مكة، وهو الطريق الذي سلكه أهل الكويت، وكان يسمى قديما بدرب زبيدة، وإليكم التفصيل، كما ورد بالكتاب: يتجمع الحاج عندما يحين موعد الانطلاق، في مكان قريب من منزل صاحب الحملة، أو قد يكون خارج سور البلد -غالبا- في منطقة الشامية الواقعة خارج السور، وهي تعتبر المحطة الأولى عندما يكون الانطلاق - بعد الخروج من دروازة نايف - وقد كانت هذه المحطة هي المحطة الأولى للقوافل التجارية الذاهبة إلى نجد والشام والقادمة منهما، حيث تتجمع فيها القوافل بعد أن ترتوي من مياه آبارها، ثم يتم الانطلاق باتجاه قرية الجهراء التي تبعد عن مدينة الكويت عشرين ميلا.

وصف دقيق

بينما يصف الحاج أحمد البزيع حملة والده بزيع يرحمه الله على الإبل في الثلاثينيات، ثم توقفت في نهاية حج عام ١٩٤٦م فيقول: حججت إلى بيت الله الحرام عام ١٩٤٦م على الإبل، أما صفة الطريق فقد سرنا من الكويت إلى الجهراء، ونزلنا على ماء فيها اسمها «السليل» ولايزال اسمه معروفا، وهو مورد للإبل والمواشي، ثم مررنا على الرقعي، ثم دخلنا حفر الباطن، وأقمنا فيه يومين أو ثلاثة للراحة والاستجمام وتخليص الأوراق الجمركية، وكان أمير الحفر آنذاك ابن عبدالواحد، ومن شعيب الباطن مررنا على ذنيب الذيب، وفيها بعض أشجار السدر المتشابك، ثم انطلقنا إلى «ثمامي» أول منطقة الدهناء، ثم مررنا على قرية «جبة» وهي مورد ماء فيه قبيلة حرب، ثم اتجهنا نحو منطقة الأسياح متجهين إلى منطقة القصيم (بريدة وعنيزة)، وكان من عادة أهل الكويت ترك بعض زادهم عند أهل القصيم؛ يأخذونه منهم حين عودتهم من الحج ليعينهم على مواصلة الطريق إلى الكويت، وقد تركت زادي عند يوسف الوابلي -رحمه الله- وهو الذي جعلني أميرا على صاحبي: علي بن خريص وابن وطيان، وكان عمري آنذاك ثماني عشرة سنة، وبعد منطقة القصيم مررنا «ركبة» ديار عتيبة، ومشينا فيها مدة طويلة حتى وصلنا إلى مدينة الطائف للإحرام في مكان يسمى «الضريبة» ويسمى اليوم بالسيل، هذا الطريق من الكويت إلى مكة قطعناه في شهر ونصف، ثم أدينا مناسك الحج، ومكثنا في مكة سبعة أو عشرة أيام، وسكنا في «الأبطح» حيث هو سكن الكويتيين

في مكة، وهو قرب قصر الأشراف.
وبعد الانتهاء من أداء مناسك الحج اتجهنا إلى المدينة المنورة، مرورا بمستورة ورابغ، على البحر الأحمر، فيما يقارب اثني عشر يوما، ثم مكثنا في المدينة المنورة ما يقارب سبعة أيام، ثم رجعنا إلى القصيم، وأخذنا ما تركناه من زاد، ثم رجعنا إلى الكويت، فكانت مدة الرحلة كلها ثلاثة شهور.

ظهور السيارات

بدأت رحلات الحج عن طريق السيارات في الكويت -كما يذكر الكتاب- منذ عام ١٩٣٢م، وقد أوردت صحيفة «صوت الحجاز» تعليقا عن خبر وصول عبدالوهاب بن خلف باشا النقيب من الكويت إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج عن طريق البر بالسيارات، وهي المرة الأولى التي تمر فيها سيارات من الكويت إلى مكة المكرمة ويراها الناس.
وفي عام ١٩٥٤ توقفت حملات الحج على الإبل نهائيا، واتخذت حملات الحج الكويتية جميعها السيارات وسيلة للنقل، ومنذ ذلك التاريخ وحملات الحج الكويتية تستخدم السيارات، ومازالت إلى يومنا تستخدم السيارات، ومع تيسر التنقل عبر الجو بدأت تنخفض رحلات الحج على السيارات اليوم حتى بلغت حاليا ١٠٪ من حجاج الكويت، حيث يفضل الأغلب السفر للحج عبر الطائرات، إذ هي وسيلة مريحة وسريعة وسهلة لانتقالهم لأداء مناسك الحج.

وصف الطريق

وكانت حملات حج السيارات تنطلق من الكويت في منتصف شهر ذي القعدة، وكانوا يغادرون الشدادية -مركز تجمعهم- إلى الصقعبي على الحدود السعودية، ثم يتوجهون إلى منطقة جرية فيمكثون طوال اليوم لإنهاء إجراءات الدخول والجمارك، ثم يتوجهون إلى أماكن معروفة بوجود آبار للماء فيها، مثل أم عقلة ورماح ومرات والمجمعة وعفيف، حيث يتفرع الطريق من هناك إلى اتجاهين: أحدهما إلى مكة المكرمة، حيث يتوجه الحجاج، من عفيف إلى الدوادمي ثم إلى مناطق أخرى تنتهي بالطائف، فمكة المكرمة.

وفيما يلي نماذج لبعض رحلات الحج الكويتية الموثقة:

رحلة عبد اللطيف البدر

المسماة: «الرحلة الميمونة إلى بيت الله الحرام» عام ١٩٣٢م (١).
تعد هذه الرحلة أول سجل موثق لمسار حجاج الكويت بواسطة الجمال، رصد فيها الكاتب حركة القافلة بالساعة والدقيقة منذ خروجها من الكويت نحو حفر الباطن فمدينة بريدة، فالمدينة المنورة، فمكة المكرمة، ثم العودة عبر سهل ركبة فمران وضرية، إلى مدينة بريدة، ومنها إلى الكويت، في رحلة استغرقت نحو ثلاثة أشهر.
وقد قدم الكاتب وصفا دقيقا لمعالم الطريق ومراحله المختلفة، والظاهرات الطبيعية التي مر بها: كالأودية والجبال والنباتات. وهو أمر لا نجده عند كثير ممن سجل رحلته لحج بيت الله الحرام، فأغلبهم يركز على المناسك والمشاهد في كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة، أما الطريق فكانت أوصافهم له عامة، لا تقف عند التفصيلات الدقيقة لمسار الرحلة.
وتجدر الإشارة إلى أن أول تسجيل موثق لرحلة حجاج الكويت إلى مكة المكرمة كان القصيدة التي نظمها المرحوم الشيخ عبدالله خلف الدحيان، الذي غادر الكويت بمعية جماعة من آل البدر، بطريق البر في (١٦) من شوال عام (١٣٢٤هـ) الموافق: (٣ من ديسمبر ١٩٠٦م)، فوصل إلى المدينة المنورة يوم (١٩) من ذي القعدة (١٣٢٤هـ) الموافق: (٤ من يناير ١٩٠٧م)، وبعد أن مكث فيها نحو ثماني ليال غادرها إلى مكة المكرمة التي وصل إليها يوم (٦) من ذي الحجة الموافق: (١٢ من يناير ١٩٠٧م)، وبعد أن قضى مناسك الحج عادت الحملة بطريق البر، أما هو ورفاقه من آل البدر فقد سافروا من جدة بطريق البحر بالباخرة إلى بومبي، وبعد أن مكثوا هناك نحو أسبوع استقلوا مركبا آخر نقلهم إلى البصرة، ومنها إلى الكويت التي وصلوا إليها في (٢٦) من محرم عام (١٣٢٥هـ) الموافق: (١١ من مارس ١٩٠٧م).
وقد بلغ عدد أبيات القصيدة المذكورة (١٥٦) بيتا، وصف فيها أحوال الطريق منذ خروجهم من الكويت إلى حين عودتهم، ومدح فيها رفاقه في تلك الرحلة وركز على فضائل المدينة المنورة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وفي مكة المكرمة وصف الكعبة والبيت الحرام ومناسك الحج والعمرة.
وتعد قصيدة الشيخ عبدالله الخلف حافزا دفع العديد من الحجاج إلى توثيق رحلاتهم المباركة إلى بيت الله العتيق، إلا أن الشيخ الدحيان رحمه الله تعالى لم يذكر من مراحل الطريق إلى المدينة المنورة سوى بريدة.
أما الفاضل مساعد البدر

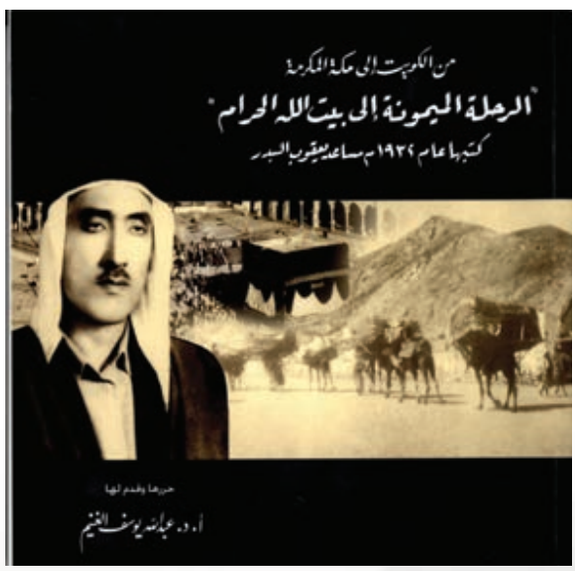

رحمه الله تعالى فقد ذكر عشرات الأسماء، تفصيلا في رحلته.

كما أن الطريق من المدينة المنورة إلى مكة عند الشيخ الدحيان يمر بذي الحليفة، وهو محل الإحرام، في حين أن الطريق الذي سلكته حملات الحج التي صاحبها مساعد البدر من المدينة المنورة عبر شرقي حرة رهاط إلى بركة المسلح، ويكون الإحرام من ذات عرق أو الضريبة هو ميقات حجاج نجد. كما وصف مساعد البدر طريق العودة البري.

أما الشيخ عبدالله الخلف الدحيان فلم يذكر هذا الطريق البري في رحلته لأنه عاد عن طريق البحر.

وتعتبر هذه التفاصيل التي ذكرها الفاضل مساعد البدر، رحمه الله، من أهم الأمور التي ميزت رحلته التي تقدم صورة كاملة للحج بطريق البر، وبتفصيلات تفرد بها عمن سبقه.

مضمون الرحلة ومدتها

يصف الكاتب الطريق من الكويت إلى مكة المكرمة، والعودة منها بعد أداء فريضة الحج، وقد تم له ذلك على ظهور الإبل - قبل استخدام السيارات في حملات الحج -، وقد استغرقت تلك الرحلة نحو (٩٥) يوما، ابتداء من (١٨) من فبراير إلى (٢٣) مايو عام (١٩٣٢م).

وقد ذكر الكاتب من كان في صحبته من حجاج الكويت، فنص على ثلاث حملات: «لعثمان الراشد، وابن حمود، والفلاح».

كما ذكر من أسماء العائلات التي صاحبت حملتهم: «الصقر، والحميضي، والسمكة، والدويري، والعصفور، والفليج، والصميط، وجماعة من العوازم، والمفرح، وابن زوير، وابن مديرس، والمشاري».

أما الأشخاص الذين ذكرهم بالاسم فهم: «محمد بن محطب، وإبراهيم الحفيتي، وعلي حسين التمار، وشاهين الفودري، وإبراهيم بن سيار، ويوسف الصميط، وسبيكة الصميط».

وقدر عدد خيام الحجاج عند الحفر بنحو خمسين خيمة، وعند وصولهم إلى المدينة المنورة ذكر مجموعة من الحجاج الذين أتوا عن طريق البحر وهم: «محمد الزاحم، وفهد الزاحم، وإبراهيم الخميس، وأحمد ابل، وعبد العزيز الحمر، وابن سدحان».

ومما يذكر هنا أنه كان عدد من الحجاج يفضلون طريق البحر لأنه أكثر أمانا وراحة من عبور الصحراء، وكانوا يذهبون بالسفن الشراعية أو البخارية إلى بومبي، ويركبون باخرة أخرى توصلهم إلى جدة. ويزداد عدد أولئك الحجاج أو يقل تبعا لدرجة الأمان في الصحراء.

وتذكر الوثائق البريطانية أنه في عام (١٩٠٨م) أمر الشيخ جابر المبارك - نائب الشيخ مبارك، رحمهما الله - بمنع الحج عن طريق البر بسبب الحروب داخل الصحراء.

وذكر صاحب الرحلة، رحمه الله، بأنه كان معهم في طريق الحج في تلك السنة الشيخ صباح، ولم يذكر من هو صباح المقصود، كما أنه لم يشر إليه بصفته أميرا للحج، وإن كان تصرفه مع الحجاج يدل على تلك الصفة، فقد ذكر مرة أنه قد تأخر الشيخ صباح عن الركب بسبب ضياع ستة جمال للعوازم، وعندما تاه ابن زوير وابن مديرس عن الطريق بحث عنهم رجال الشيخ صباح وأرشدوهم إلى الطريق.

وتجدر الإشارة إلى أنه حتى عام (١٩٢٦م) كان أمير الحج الفاضل عبد العزيز بن حسن، الذي استمر في عمله هذا نحو عشرين عاما، وهو من آل مهنا من القصيم، وقد ذكر اسمه أميرا للحج في عام (١٩٠٦م) ضمن يوميات الخليج.

وتعد هذه الرحلة أول وصف دقيق للطريق المذكور، تتبع الكاتب منازله والمسافات بين تلك المنازل بالساعات والدقائق، وقدم تقريرا واضحا لمعالم سطح الأرض التي يمر بها الطريق مثل: الأودية، والشعاب، والجبال، والخبرات، والكثبان الرملية، والآبار، وذكر ما ينبت في أنحاء الطريق من النباتات كالعرفج، والحمض، والسدر، والدوم، وغير ذلك من أنواع الشجر والنبات.

وسجل الكاتب أسماء القرى والبلاد التي كانت على طريق الحج المذكور أو قريبة منه، وكان يذكر أحيانا سكانا من القبائل وعددهم وأميرهم في ذلك الوقت، وسجل أيضا أسماء الأودية والكثبان الرملية والجبال التي كانت في طريق رحلة الحج وأشكالها.

ويقول محرر الرسالة الدكتور عبدالله يوسف الغنيم: «ولقد كانت لي معرفة سابقة بالمناطق التي وصفها مساعد البدر-كاتب هذه الرحلة- فقد ذهبت إلى الحج بطريق السيارات القديم مرتين في عامي: (١٩٥٨ و١٩٥٩م)، ثم قمت بدراسة ميدانية علمية عن أشكال سطح الأرض في الجزيرة العربية عام (١٩٧٣م)، تنقلت فيها بين معظم المناطق التي سار فيها الكاتب مثل: مناطق «اللعاعة، وضرية، ومسكة، وجبال طمية، والأبانان، وعسعس، وشعبى، وعيده، وسواج، ورمال المظهور، وعريق الدسم»، وغير ذلك من المناطق التي لم يمحها الزمن من ذاكرتي وسجلتها في دراسة جغرافية نشرت عام (١٩٩٩م)».

ويستطرد قائلا: وأشهد أن مساعد البدر قد أحسن في وصف الطريق وأجاد، وأنه وثق مسارا مهما من طرق الحج بأسلوب دقيق لا نجده عند من سبقه من الرحالين الذين سجلوا خط سيرهم للحج إلى بيت الله الحرام، واتسم أسلوبه بالإيجاز، وبخلوه من المبالغات التي يلجأ إليها أحيانا كتاب الرحلات، وما أشار إليه من صعاب في رحلته لا يتجاوز الواقع الذي كانت عليه ظروف الطرق في الجزيرة العربية في ذلك الوقت.

مختصر مسار الرحلة

أما عن مسار الرحلة (ذهابا): فيبدأ من الكويت إلى الحفر، ومنها إلى بريدة عبر كثبان الدهناء، ومرورا بمحطة أساسية وهي قبة، ومن بريدة تتجه القافلة إلى المدينة المنورة مرورا بعقلة الصقور والنقرة وعرجا والحناكية، ومن المدينة المنورة لم تأخذ القافلة الطريق المعتاد إلى مكة – وهو طريق ذو الحليفة وبدر ورابغ الذي يسير في سهل تهامة إلى مكة – بل يعود الحجاج شرقا ليأخذوا طريق الحج القديم المعروف بطريق «زبيدة» – نسبة إلى الفاضلة زبيدة زوجة هارون الرشيد التي اعتنت بهذا الدرب لخدمة الحجاج –، وهو يأخذ بين حرتي رهاط وكشب، مارا بأفيعية وبركة المسلح، ومن ثم يحرم الحاج من الضريبة عند قرن المنازل أو السيل، وهو ميقات حجاج نجد، ومن هناك إلى مكة لقضاء مناسك الحج.

أما عن مسار الرحلة إيابا إلى الكويت: فيسير الطريق في مراحله الأولى باتجاه الشمال الشرقي إلى بركة العقيق، ثم يعبر هضبة ركبة إلى مران، ويتجه شمالا إلى الطرف الجنوبي من عريق الدسم (نفود العريق) الذي يقطعه بالاتجاه إلى ضرية شرقا، ثم يتحول إلى الشمال والشمال الشرقي إلى بريدة، حيث يعود من الطريق نفسه الذي سلكته القافلة في ذهابها إلى الحج، وأجزاء كثيرة من الطريق يتفق مع طريق الحج القديم (درب زبيدة).

وفي خاتمة هذه الرحلة الميمونة يقول الفاضل مساعد البدر، رحمه الله تعالى: «وفي الساعة الثانية عشرة صباحا تحركنا، وأصبحنا بمؤازرة حظائر ابن سعود، وفي شمال مدينة هجر الرقعي، ثم نزلنا لصلاة الفجر في شرق الرقعي، وسرنا من جديد، ووصلنا آبار الرقعي، وبعد ساعة وربع قطعنا الحرة (الأرض الصلبة)، وهناك تلقانا مستقبلا الأخ عبداللطيف بسيارة الشيخ عبدالله السالم، وسيارة الشيخ سعود، وانطلقنا بالسيارتين نحو الجهراء، وعندما وصلنا الجهراء تعطلنا لمدة ساعة ننتظر السيارة الثانية التي افترقت عنا، ثم وصلنا البيت في الكويت يوم الاثنين (٢٣ من مايو ١٩٣٢م)، ثم وصلت حملتنا (المحمولة على الجمال) في يوم الأربعاء الموافق (٢٥ من مايو ١٩٣٢م)».

أما رحلة الشيخ عبدالله خلف الدحيان عام ١٣٢٤هـ – التي تمت الإشارة إليها آنفا– فهي من أشهر الرحلات في تاريخ الكويت، وقد أرخها العلامة الدحيان بقصيدة طويلة وصف الرحلة وصفا قل نظيره، وكانت مجلة «الوعي الإسلامي» قد نشرت جزء من هذه القصيدة في عددها رقم (٤٠٠) في عام ١٤١٩هـ، وهذا مطلعها المبارك:

لنيل العلا والمجد سير الرواحل
يحثحثها بالجد كل حلاحل
ويسعى يطوف البيد لا متوانيا
ويرمي حصى التسويف رمي التكاسل
ألذُ وأشهى من مواصلة الدُّمى
لديه دوام السير فوق الذلائل
ولليعملات اليوم يلتذ راكب
لقطع الفيافي غير وان وهازل
إذا زمزم الحادي ترامت إلى الحمى
ومدت لأعناق وراء الدلائل

ولما وقف عليها الفاضل الأديب الشيخ عبدالله بن الحاج محمد بن خليل قرظها بهذه الأبيات، مؤرخا عام الحج – شكر الله سعيه – وهذا قوله زاد فضله:

يا إمام العصر يا من قد سما
فوق هام المجد بالدر الأنيق
قد أضاء الكون لما أسفرت
رحلة الترحال منا للعقيق
ودعانا الأنس لما أرخوا
حل عبدالله في البيت العتيق

وأما الرحلة المباركة للعلامة عبدالله ابن الشيخ حسن الكوهجي، والتي وصلت تفاصيلها إلينا عبر قصيدته الرائعة المسمّاة «الرحلة الكويتية والنحلة المكية» عام ١٣٦٨هـ، وقد تم نشرها كاملة في العدد (٥٢٥) من أعداد مجلة «الوعي الإسلامي».

والشيخ عبدالله الكوهجي هو: من علماء بلدة كوهج الواقعة في بر فارس، وكان يتردد على الكويت للدعوة والإرشاد، واجتمع مع العلماء الفضلاء، الشيخ محمد بن مانع، والشيخ عبدالرحمن السعدي.

وكان الشيخ محمد بن سليمان الجراح، رحمه الله، حريصا على الاستفادة منه.

وأقتصر على هذه الأبيات الفريدة من مطلع قصيدته المباركة:

برب الورى خلاقنا الواحد العلي
أقول مقالا منبئا عن ترحلي
تنقلت من أرض الكويت لأربع
وعشرين من ذي قعدة متفضل
بثامن عام بعد ستين أتبعت
ثلاث مئين بعد ألف مكمل
فمذ سار ركبي بالكرام تنسمت
على الروح روحي ريح طيب مفضل
جرت عبرات القلب مني صبابة
إلى الحرم المكي مثوى الفضائل

هوامش:

(١) انظر: «الرحلة الميمونة إلى بيت الله الحرام من الكويت إلى مكة المكرمة» والتي كتبها مساعد يعقوب البدر، رحمه الله، وحررها وقدم لها الأستاذ الدكتور عبدالله يوسف الغنيم. والكتاب من إصدارات مركز البحوث والدراسات الكويتية ٢٠١١م.

مخطوطة نادرة
طريق الحج من إسطنبول إلى مكة

تعد هذه الخريطة من أقدم الخرائط الطبوغرافية لمنطقة الخليج العربي وبلاد ما بين النهرين، حيث ترجع إلى الثلث الأول من القرن السابع عشر الميلادي، وهي عبارة عن لفافة، يزيد طولها على ثلاثة أمتار.

وهي مرسومة بالحبر الأسود والألوان المائية، كانت قد رسمت لتوضيح المعالم والتضاريس الجغرافية، حيث أن الرسام وُفِّق في استخدام اللون الأزرق لتمييز المسطحات المائية من خلجان وبحار وأنهار، أما اليابسة فقد تركت من دون تلوين أي بلون الورق الأصلي، في حين استخدم اللون الأصفر والأخضر لتلوين الجبال والمرتفعات.

كما تم تلوين الطرق باللون الأسود، بينما كتبت

بيانات الخريطة باللغة التركية، بالخط العربي «الرقعة» بالحبر الأسود.

وترصد الخريطة المنطقة الممتدة من أعالي دجلة والفرات مرورا بالأراضي التركية والعراقية، فشط العرب والخليج العربي إلى بحر العرب جنوبا، متتبعة في ذلك طريق الملاحة البحري على محور واحد، حيث تبدأ الخريطة من شمال شرق تركيا بدءا من قلعة «أرض الروم» وعبر سلسلة جبال الأناضول إلى بحر العرب.

(يظهر هذا العمل قيمة المخطوطة المرسومة كوثيقة تاريخية وفنية)

• مركز التطوير الثقافي
المكتبة التراثية - قطر

في الحجة المكية والزورة المحمدية (١)

القصيدة الذهبية

١- أيَا عَذَبات البَان منْ أيْمن الحِمى
رَعَى اللهُ عَيْشا في رُباكَ قَطَعْناهُ

٢- سَرقناه منْ شَرخ الشَباب وَرَوْقِه
فَلَما سَرقْنا الصَّفوَ منه سُرقْنَاهُ

٣-وجَاءَتْ جُيوشُ البَيْنِ يَقدمُها القَضَا
فَبَدَّدَ شَمْلًا بالحِجَازِ نَظَمْناهُ

٤- حرام بذي الدنيا دوام اجتماعنا
فكم صرمت للشمل حَبْلًا وصلناهُ

٥- فَيَا أيْنَ أيَّامٌ تَوَلَّتْ عَلَى الحِمى
وَلَيلٌ مَعَ العُشَّاقِ فيه سَمَرْنَاهُ

٦- وَنَحنُ لِجيرانِ المُحصَّب جيرَة
نُوَفِّي لَهُمْ حُسْنَ الوِدادِ وَنَزْعَاهُ

٧- وَنَخْلُو بِمنْ نَهوى إذَا رَقَدَ الوَرَى
وَيجْلُو عَلينَا مَنْ نُحبُّ مُحَيَّاهُ

٨- فَقُرْبٌ وَلاَ بُعْدٌ وَشَمْلٌ مُجَمَّع
وَكَأسُ وِصَالٍ بَيْنَنَا قَدْ أدَرْنَاهُ

٩- فَهاتِيكَ أيَّامُ الحَياةِ وَغَيْرُهَا
مَمَاتٌ فَيَا لَيْتَ النَّوَى ما شَهِدْناهُ!!

١٠- فَيَا مَا أمَرَّ البَيْنَ مَا أقْتَلَ الهَوَى
أمَا يَا الهَوَى إنَّ الهنَا قَدْ سُلِبْناهُ

١١- فَوَاللهِ لَمْ يُبْقِ الفِرَاقُ لَذَاذَة
فَلَوْ مِنْ سَبيلٍ لِلفِرَاقِ فَرَقْناهُ

١٢- فَكَمْ مِنْ قَتيلٍ بَيْنَنا بِسهامه
فَلَوْ أنَّنَا نُعْطَى القِصَاصَ قَتَلْنَاهُ

١٣-فأحْبَابُنا بالشَّوْقِ بالحُبِّ بالجَوى
لِحُرْمَةِ عَقْدٍ عِنْدَنا مَا حَلَلْنَاهُ

١٤- لحقٍّ هَوَانَا فيكُمُ ووِدادنَا
لِميثَاقِ عَهْدٍ صَادقٍ مَا نَقَضْنَاهُ

١٥- أعيدُوا لَنَا أعيادَنَا بِرِبُوعِكُمْ
وَوَقْتَ سُرُورٍ في حِمَاكُمْ قَضَيْنَاهُ

١٦-فَمَا العَيْشُ إلاَّ مَا قَضَيْنَا عَلَى الحِمى
فَذَاكَ الذَّي مِنْ عُمرنا قَدْ عَدَدْنَاه

١٧- فَيا لَيْتَ عَنَّا أغْمَضَ البَيْنُ طَرْفَهُ
وَيَا لَيْتَ وَقْتًا لِلفِرَاقِ فَقَدْنَاهُ

١٨- وَتَرجِعُ أيَّامُ المُحَصَّبِ مِنْ مِنى
وَيبدُو ثَراهُ لِلْعُيُونِ وحَصْبَاهُ

١٩- وَتَسْرَحُ فِيهِ العِيسُ بينَ ثُمَامه
وتَستَنْشِقُ الأرْوَاحُ نَشْرَ خُزَامَاهُ

٢٠- وَنَشْكو إلى أحْبَابِنَا طُولَ شَوقِنَا
إلَيْهِمْ وَمَاذا بالفِرَاقِ لَقِينَاهُ

٢١- فَلاَ كَانت الدُّنْيَا إذَا لَمْ يُعايَنوا
هُمُ القَصْدُ في أوْلَى المَشُوقِ وأخرَاهُ

٢٢-عليكُمْ سَلاَمُ اللهِ يَا سَاكِني الحِمى
بِكُمْ طَابَ رَيَّاهُ بِكُمْ طَابَ سُكْنَاهُ

٢٣- وَرَبِّكُمُ لَوْلاكُمُ مَا نَوَدُّهُ
وَلاَ القَلْبَ مِنْ شَوْقٍ إلَيْهِ أذَبْنَاهُ

٢٤- أسُكَّانَ وادي المُنْحَني زَادَ وَجْدُنَا
بِمَغْنَى حِمَاكُمْ ذَاكَ مَغْنىً شَغَفْنَاهُ

٢٥- نَحنُّ إلى تِلْكَ الرُّبُوعِ تَشَوُّقًا
فَفِيهَا لَنَا عَهْدٌ وعَقْدٌ عَقَدْنَاهُ

---

(١) جزء من «القصيدة الذهبية في الحجة المكية والزورة المحمدية» نظمها الإمام العلامة مجد الدين جمال الإسلام محمد بن أبي بكر بن رشيد البغدادي (ت٦٦٢هـ) وللقصيدة بقية تتحدث بإبداع عن زيارة المدينة المنورة.

٢٦- وَرَبِّ بَرَانَا مَا سلوْنا رَبُوعَكُمْ
وَمَا كَانَ مِنْ رَبْعٍ سِوَاهُ سَلُوْنَاهُ

٢٧- فَيَا هَلْ إلى رَبعِ الأعَاريبِ عوْدَةٌ
فَذَاكَ وَحَقِّ اللهِ ربْعٌ حَبَبنَاهُ

٢٨- قضَيْنَا مَعَ الأحْبابِ فيه مآربًا
إلى الحَشْرِ لا تُنْسَى سَقَى اللهُ مَرْعَاهُ

٢٩- فشُدُّوا مَطايانَا إلى الرَّبْعِ ثَانيًا
فإنَّ الهَوى عَنْ رَبْعِهِمْ مَا ثَنَيْنَاهُ

٣٠- فَفي ربْعِهِمْ لله بَيْتٌ مُبَارَكٌ
إلَيْهِ قُلُوبُ الخَلْقِ تَهْوي وَتَهْوَاهُ

٣١- يَطُوفُ بِهِ الجَاني فَيُغفَرُ ذَنبهُ
ويسْقُطُ عَنْهُ جُرْمُهُ وخَطَاياهُ

٣٢- فَكَمْ لَذَّةٍ كَمْ فَرْحَةٍ لطَوافه
فَللّهِ مَا أحْلَى الطَّوَافَ وَأهْنَاهُ

٣٣- نَطُوفُ كَأنَّا في الجِنَانِ نَطُوفُهَا
وَلاَ هَمَّ لاَ غَمٌّ فَذَاكَ نَفَيْنَاهُ

٣٤- فَيَا شَوْقَنَا نَحْوَ الطَّوَافِ وَطِيبِهِ
فذلك شوقٌ لا يُحاطُ بمعناهُ

٣٥- فمَنْ لم يَذُقهُ لم يذقْ قطُّ لذةً
فَذُقْهُ تَذُقْ يا صاح ما قد أُذقْنَاهُ

٣٦- فَوَاللهِ ما نَنْسَى الحِمَى فَقُلوبُنَا
هُنَاكَ تَركْنَاها فيا كَيفَ نَنْساهُ

٣٧- تَرَى رَجْعَةً هل عَودةٌ لطَوافنا
وَذَاكَ الحِمَى قبلَ المنيَّةِ نَغْشاهُ

٣٨- وَوَاللهِ ما نَنْسَى زَمانَ مَسيرنا
إليه وَكُلُّ الرَّكْبِ قَدْ لَذَّ مَسْرَاهُ

٣٩- وَقَدْ نُسِيَتْ أولادُنا وَنساؤُنا
وَأموالُنا فَالقَلْبَ عَنهُمْ شَغَلْنَاهُ

٤٠- تَراءَتْ لنا أعْلامُ وَصْلٍ على اللِّوَى
فَمِنْ أجْلِها فالقلْبَ عَنْهُم لَوَيْناهُ

٤١- جَعَلْنا إلَهَ الْعَرْشِ نُصْبَ عُيونِنا
ومَنْ دُونَهُ خَلفَ الظُّهُورِ نَبَذْناهُ

٤٢- وَسِرْنا نَشُقُّ الْبِيدَ لِلبَلَدِ الذي
بِجَهْدٍ وَشِقٍّ لِلنُّفوسِ بَلَغْنَاهُ

٤٣- رِجالًا وَرُكْبانًا على كُلِّ ضامِرٍ
ومِنْ كُلِّ ذِي فَجٍّ عَمِيقٍ أتَيْنَاهُ

٤٤- نَخوضُ إليه الْبَرَّ والبَحرَ والدُّجَى
وَلا قَاطِعٌ إلا وَعَنهُ قَطَعْنَاهُ

٤٥- ونَطْوِي الفَلا من شدَّةِ الشَّوقِ للِّقَا
فتُمْسِي الفَلا تَحكي سِجِلًا قَطَعْنَاهُ

٤٦- وَلا صَدَّنا عن قَصْدِنا بُعْدُ أهْلِنا
ولا هَجْرُ جارٍ أو حَبيبٍ أَلِفْنَاهُ

٤٧- وَأموالُنا مَبذُولَةٌ وَنُفُوسُنا
ولَم نُبقِ شَيئًا منهما ما بَذَلْنَاهُ

٤٨- عَرَفْنا الَّذي نَبْغِي وَنَطلُبُ فَضلَهُ
فَهانَ عَلينا كُلُّ شَيءٍ بَذَلْنَاهُ

٤٩- فَمَنْ عَرَفَ المطلوبَ هانَتْ شَدائدٌ
عَليه ويَهْوَى كُلَّ ما فِيهِ يَلْقاهُ

٥٠- فيَا لَو تَرانا كُنتَ تَنظُرُ عُصْبَةً
حَيارَى سُكارَى نَحوَ مَكَّةَ وُلاَّهُ

٥١- فَللّهِ كَم ليلٍ قَطَعْنَاهُ بالسُّرَى
وَبَرٍّ بِسَيْرِ اليَعْمَلاتِ بَرَيْنَاهُ

٥٢- وكَمْ مِنْ طَريقٍ مُفْزِعٍ في مَسيرنا
سَلَكْنا وَوَادٍ بالمَخُوفاتِ جُزْنَاهُ

٥٣- وَلَو قِيلَ إنَّ النَّارَ دُونَ مَزاركُمْ
دُفَعْنا إلَيْها وَالعَذُولَ دَفَعْنَاهُ

٥٤- فَمَوْلَى المَوالي للزِّيارَةِ قد دَعَا
أنَقْعُدُ عَنها وَالمَزُورُ هُو اللهُ؟!

٥٥- تَرادَفَتِ الأشْواقُ واضَّرمَ الحَشَا
فَمَنْ ذَا لَهُ صَبْرٌ وفي النَّارِ أحْشَاهُ

٥٦- وأسْرَى بِنا الحادي فَأمْعَنَ في السُّرَى
وَوَلَّى الكَرَى نَوْمَ الجُفونِ نَفَيْنَاهُ

٥٧- ولَمَّا بَدا مِيقاتُ إحرامِ حَجِّنا
نَزَلْنا بِهِ وَالعِيسَ فيه أنَخْنَاهُ

٥٨- لِيَغتَسِلَ الحُجَّاجُ فيه ويُحرِمُوا
فَمِنْهُ نُلَبِّي رَبَّنا لا حُرِمْنَاهُ

٥٩- ونادَى مُنادٍ للحَجيجِ لِيُحرِمُوا
فَلَمْ يَبْقَ إلا مَن أجابَ وَلَبَّاهُ

٦٠- وجُرِّدَتِ القُمْصانُ وَالكُلُّ أحْرَمُوا
ولا لُبسَ لا طِيبَ جميعًا هَجَرْنَاهُ

٦١- ولا لَهْوَ لا صَيْدٌ ولا نَقْرَبُ النِّسَا
ولا رَفَثَ لا فِسْقَ كُلًا رَفَضْنَاهُ

٦٢- وَصِرْنا كَأمْواتٍ لَفَفْنا جُسُومَنا
بِأكْفانِنا كُلٌّ ذَليلٌ لِمَولاهُ
٦٣- لعلَّ يَرى ذُلَّ العِبادِ وَكَسْرَهُمْ
فَيرحَمُهُمْ رَبٌّ يُرَجُّونَ رُحْمَاهُ
٦٤- يُنادُونَهُ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ ذا العُلى
وسَعْدَيْكَ كُلَّ الشِّرْكِ عَنكَ نَفَيْناهُ
٦٥- فَلَو كُنتَ يا هَذا تُشاهِدُ حالَهُمْ
لأَبْكاكَ ذاكَ الحالُ في حالِ مَرآهُ
٦٦- وُجوهُهُمُ غُبرٌ وشُعثٌ رؤُوسُهُمْ
فَلا رَأسَ إلا لِلإلَهِ كَشَفْناهُ
٦٧- لَبِسْنا دُرُوعًا من خُضوعٍ لِرَبِّنا
ومَا كان من دِرعِ المعاصي خَلَعْناهُ
٦٨- وَذاك قَليلٌ في كثيرِ ذُنوبِنا
فيا طالَما رَبَّ العِبادِ عَصَيْناهُ
٦٩- إلى زَمزمٍ زُمَّتْ رِكابُ مَطِيِّنا
ونَحوَ الصَّفا عِيسَ الوُفودِ صَفَفْناهُ
٧٠- نَؤُمُّ مَقامًا للخَليلِ مُعظَّمًا
إليه استَبَقْنا والرِّكابَ حَثَثْناهُ
٧١- ونحنُ نُلَبِّي في صُعودٍ ومَهْبِطٍ
كَذا حالُنا في كُلِّ مَرقًى رَقِيناهُ
٧٢- وكم نَشزِ عالٍ عَلَتْهُ وُفُودُنا
وتَعْلُو به الأصواتُ حينَ عَلَوْناهُ
٧٣- نَحُجُّ لِبيتٍ حَجَّهُ الرُّسْلُ قَبْلَنا
لِنشهَدَ نَفْعًا في الكتابِ وُعِدْناهُ
٧٤- دَعانا إليه اللهُ قَبلَ بنائِه
فَقُلْنا لَهُ لَبَّيْكَ داعٍ أَجَبْناهُ
٧٥- أَتَيْناكَ لَبَّيْناكَ جِئْناكَ رَبَّنا
إليكَ هَرَبْنا والأنامَ تَرَكْناهُ
٧٦- وَوَجْهَكَ نَبْغي أنْتَ للقَلْبِ قِبْلَةٌ
إذا ما حَجَجْنا أنتَ للحَجِّ رُمْناهُ
٧٧-فَمَا البَيْتُ ما الأرْكانُ ما الحِجْرُ ما الصَّفا
وما زمزمٌ أنتَ الذي قدْ قَصَدْناهُ
٧٨- وأنتَ مُنانا أنتَ غايَةُ سُؤْلِنا
وأنتَ الذي دُنْيا وأُخْرى أرَدْناهُ
٧٩- إليكَ شَدَدْنا الرَّحْلَ نَخْتَرِقُ الفَلا
فكَم سَدَّ سَدٌّ في سَوادٍ خَرَقْناهُ
٨٠- كذلك ما زِلْنا نُحاوِلُ سَيْرَنا
نَهارًا ولَيْلاً عِيسَنا مَا أرَحْناهُ
٨١- إلى أنْ بَدَتْ إحدَى المعالِمِ من مِنًى
وَهَبَّ نَسيمٌ بالوصولِ نَشَقْناهُ
٨٢- ونادَى بِنا حادِي البِشارَةِ والهَنا
فهذا الحِمَى هذا ثَراهُ غَشِيْناهُ

رُؤيةُ البَيت

٨٣- وما زالَ وفدُ اللهِ يَقصِدُ مَكةً
إلى أن بَدا البيتُ العتيقُ ورُكْناهُ
٨٤-فضجَّتْ ضُيوفُ اللهِ بالذِّكرِ والدُّعا
وكَبَّرَتِ الحُجَّاجُ حين رَأيناهُ
٨٥- وَقد كادَتِ الأرواحُ تَزهَقُ فَرحَةً
لِما نَحنُ من عُظْمِ السُّرورِ وَجدْناهُ
٨٦- تُصافِحُنا الأملاكُ مَن كان راكبًا
وتَعتَنِقُ الماشي إذا ثَمَّ تَلْقاهُ

طوافُ القُدوم

٨٧- فطُفْنا بِهِ سَبْعًا رَمَلْنا ثلاثَةً
وَأربعَةً مَشْيًا كما قَد أُمِرْناهُ
٨٨- كذلكَ طافَ الهاشميُّ محمدٌ
طَوافَ قُدومٍ مثلَ ما طافَ طُفْناهُ
٨٩- وَسالَتْ دُموعٌ من غَمامِ جُفونِنا
على ما مَضَى من إثمِ ذنبٍ كَسَبْناه
٩٠- ونحنُ ضُيوفُ اللهِ جِئْنا لِبَيْتِه
نُريدُ القِرَى نَبْغي مِنَ اللهِ حُسْنَاهُ
٩١- فنَادَى بنا أهلاً ضُيوفي تَباشَرُوا
وَقَرُّوا عُيونًا فالحجيجَ قَبِلْناهُ
٩٢-غدًا تَنْظُروني في جِنانِ خُلودكم
وذاك قِراكُم مَعْ نَعيمٍ ذَخَرْناهُ
٩٣- فأيُّ قِرًى يَعلُو قِرَانا لِضَيْفِنا
وأيُّ ثَوابٍ مِثلِ ما قَد أَثَبْناهُ
٩٤- وكُلُّ مُسيءٍ قد أَقَلْنا عِثارَهُ
ولا وِزْرَ إلا عَنكُمُ قَد وَضَعْناهُ
٩٥- ولا نَصَبٌ إلا وعِندي جَزاؤُهُ
وكُلُّ الذي أنفقْتُمُوه حَسَبْناهُ
٩٦- سَأعطيكمُ أَضْعافَ أَضْعافِ مِثْلِه
فَطِيبُوا نُفوسًا فَضْلَنا قد مَنَحْناهُ
٩٧- فيا مَرْحَبًا بالقادمين لِبَيْتِنا
إلَيَّ حَجَجْتُمْ لا لِبَيْتٍ بَنَيْناهُ

٩٨- عليَّ الجَزا منِّي المثوبةُ والرِّضا
ثـوابُـكُـمُ يـومَ الجَـزاءِ ضَمِنَّاهُ
٩٩- فطِيبُوا سُرورًا وافرَحُوا وتَباشَرُوا
وتِيهُوا وهِيمُوا بابَنا قد فَتَحْناهُ
١٠٠- ولا ذنبَ إلا قد غفرناهُ عَنكمُ
وما كان مِنْ عَيبٍ عَليكُمْ سَتَرْناهُ
١٠١- فهذا الذي نِلْنا بِيَومِ قُدومنا
وأوَّلُ ضِيقٍ لِلصُّدُورِ شَرَحْنَاهُ

المَبيت بمِنى والمَسير إلى عرفات

١٠٢- وبِتْنا بأقطارِ المُحَصَّبِ من مِنًى
فيَا طِيبَ لَيلٍ بِالمُحَصَّبِ بِتْنَاهُ
١٠٣- وفي يَومِنا سِرْنا إلى الجبَلِ الذي
مِنَ البُعْدِ جِئْنَاهُ لما قَد وَجَدْنَاهُ
١٠٤- فلا حَجَّ إلا أنْ نكونَ بأرضِه
وُقوفًا وهذا في الصَّحيحِ رويناهُ
١٠٥- إليه ابْتَدَرْنا قاصدينَ إلَهَنا
فَلَوْلاهُ ما كُنَّا لِحَجٍّ سَلَكْنَاهُ
١٠٦- وَسِرْنا إليه قاصدين وُقوفَنا
عليه ومِن كلِّ الجِهاتِ أَتَيْنَاهُ
١٠٧- عَلى عَلَمَيْه للوُقوفِ جَلالَةٌ
فلا زالَتا تُحْمَى وتُحْرَسُ أرْجاهُ
١٠٨- وبَينهما جُزْنا إليه بزحْمَةٍ
فيَا طِيبَها ليتَ الزِّحامَ رَجَعْناهُ
١٠٩- ولَمَّا رأيْناهُ تَعالَى عَجيجُنا
نُلَبِّي وبالتَّهْليلِ مِنَّا مَلأْناهُ
١١٠- وفيه نَزَلْنا بُكرَةً بذُنوبِنا
وما كانَ من ثُقْلِ المَعاصي حَمَلْناهُ

الوُقوفُ بعَرفة

١١١- وبعدَ زَوالِ الشَّمسِ كان وُقوفُنا
إلى الليلِ نَبكي والدعاءَ أَطَلْناهُ
١١٢- فكَمْ حامدٍ كَم ذاكرٍ ومُسَبِّحٍ
وكَمْ مُذنبٍ يَشكُو لِمَولاهُ بَلْوَاهُ
١١٣- فكم خاضعٍ كمْ خاشعٍ مُتذَلِّلٍ
وكَم سائلٍ مُدَّتْ إلى اللهِ كَفَّاهُ
١١٤- وسَاوَى عَزيزٌ في الوُقوفِ ذَليلَنا
وكم ثَوبِ عِزٍّ في الوُقوفِ لَبِسْنَاهُ
١١٥- ورَبٌّ دَعانا ناظِرٌ لِخُضوعِنا
خَبيرٌ عَليمٌ بالذي قد أَرَدْنَاهُ
١١٦- ولَمَّا رأى تلكَ الدُّموعَ التي جَرَتْ
وطُولَ خُشوعٍ مَعْ خُضوعٍ خَضَعْنَاهُ
١١٧- تَجلَّى عَلينا بالمَتابِ وبالرِّضا
وباهَى بنا الأمْلاكَ حينَ وَقَفْناهُ
١١٨- وقال انظُرُوا شُعْثًا وغُبْرًا جُسومُهُمْ
أَجِرْنا أغَثْنا يا إلَهَا دَعَوْنَاهُ
١١٩- وقدْ هَجَرُوا أموالَهُم وديارَهُمْ
وأولادَهُم والكُلُّ يَرفَعُ شَكْواهُ
١٢٠- إلَيَّ فإنِّي ربُّهم ومَليكُهُمْ
لِمَن يَشتَكي المملوكُ إلا لِمَوْلاهُ
١٢١- ألاَ فاشْهَدوا أنِّي غَفرتُ ذُنوبَهُمْ
ألاَ فانْسَخُوا ما كان عَنْهُم نَسَخْناهُ
١٢٢- فقد بُدِّلَتْ تلكَ المَساوي مَحاسِنًا
وذلكَ وَعْدٌ من لَدُنَّا وَعَدْنَاهُ
١٢٣- فيا صاحبي مَن مِثْلُنا في مَقامنا
ومَن ذا الذي قدْ نالَ ما نحنُ نِلْناهُ
١٢٤- على عَرفاتٍ قد وَقَفْنا بِموقفٍ
بِه الذَّنبُ مَغفورٌ وفيه مَحَوْناهُ
١٢٥- وقد أَقْبَلَ الباري عَلينا بِفَضْلِه
وقال ابْشِرُوا فالعفوُ فيكم نَشَرْناهُ
١٢٦- وعنكمْ ضَمِنَّا كُلَّ تابِعَةٍ جَرَتْ
عَلَيْكُمْ وأَمَّا حَقُّنا فَوَهَبْنَاهُ
١٢٧- أقَلْناكُمُ من كُلِّ ما قدْ جَنَيْتُمُ
وما كانَ من عُذرٍ لدَيْنا عَذَرْناهُ
١٢٨- فيا مَن أساءَ يا مَن عَصَى لو رَأَيْتَنا
وَأَوْزارُنا تُرْمَى ويَرْحَمُنا اللهُ
١٢٩- وَدِدْتُ بأنْ لو كُنتَ بين رِحالنا
وتَرجُو رحيمًا كُلُّنا يَتَرجَّاهُ
١٣٠- وَقَفنا لدَيْه تائبينَ مِنَ الخَطا
وغُفرانَنا من ربِّنا قد طَلَبْنَاهُ
١٣١- أُمِرْنا بِحُسْنِ الظنِّ واللهُ حَثَّنا
عليه وهذا في الحديثِ رويناهُ
١٣٢- عليه اتَّكَلْنا واطْمَأَنَّتْ قُلوبُنا
لِما عِندَهُ من وُسْعِ عَفوٍ عَرَفْناهُ

١٣٣- فَطُوبَى لِمَنْ ذاكَ المقامُ مقامُهُ
وبُشْراهُ في يومِ التَّغابُنِ بُشْراهُ
١٣٤- تَرى مَوقِفًا فيهِ الخزائنُ فُتِّحَتْ
وأَوْلَى علينا اللهُ منها عَطاياهُ
١٣٥- فَصالَحَ مَهْجورًا وَقَرَّبَ مُبْعَدًا
وذاكَ مَقامُ الصُّلْحِ للصُّلْحِ قُمْناهُ
١٣٦- ودارَ علينا الكأسُ بالفَضْلِ والرِّضا
سُقينا شَرابًا مِثْلَهُ ما سُقيناهُ
١٣٧- فإنْ شِئتَ تُسْقَى ما سُقينا على الحِمَى
فَخَلِّ الوَنَى واقْصِدْ مَقامًا قَصَدْناهُ
١٣٨- وفيهِ بسَطْنا للرَّحيمِ كُفُوفَنا
فقالَ كُفِيتُمْ عَفْوَنا قد بَسَطْناهُ
١٣٩- وأَعْتَقَنا كُلًّا وأَهْدَرَ ما مَضَى
وقالَ لنا كلُّ العِتابِ طَوَيْناهُ

ذِكرُ خِزيِ إبليسَ اللَّعين

١٤٠- فإبليسُ مَغمومٌ لكثرَةِ ما يَرَى
مِنَ العِتقِ مَحْقُورًا ذليلًا دَحَرْناهُ
١٤١- عَلى رَأسِهِ يَحْثو التُّرابَ مُناديًا
بأَعْوانِهِ وَيْلاهُ ذا اليومَ وَيْلاهُ
١٤٢- وأَظْهَرَ مِنَّا حَسْرَةً ونَدامَةً
وكُلَّ بِناءٍ قَدْ بَنَاهُ هَدَمْناهُ
١٤٣- تَرَكْناهُ يَبْكي بَعْدَما كانَ ضاحِكًا
فكَمْ مُذنِبٍ مِن كَفِّهِ قد سَلَلْناهُ
١٤٤- وكَمْ أَمَلٍ نِلْناهُ يَومَ وُقوفِنا
وكَمْ مِن أَسيرٍ لِلمَعاصي فَكَكْناهُ
١٤٥- وكَمْ قَد رَفَعْنا لِلإلهِ مَطالِبًا
ولا أَحَدًا مِمَّنْ نُحِبُّ نَسِيناهُ
١٤٦- وَخُصِّصَتِ الآباءُ والأَهْلُ بالدُّعا
وكَم صاحِبٍ دانٍ وَنَاءٍ ذَكَرْناهُ
١٤٧- كذا فَعَلَ الحُجَّاجُ هاتيكَ عادَةً
وما فَعَلَ الحُجَّاجُ فيهِ فَعَلْناهُ
١٤٨- وَظَلَّ إلى وَقتِ الغُروبِ وُقوفُنا
وقيلَ ادْفَعوا فَالكُلُّ مِنكُمْ قَبِلْناهُ

الإفاضَةُ والمَبيتُ بِمُزدَلِفَةَ وذِكرُ اللهِ عندَ المَشْعَر

١٤٩- أَفيضُوا وأَنتُمْ حامِدونَ إِلَهَكُمْ
إلى مَشْعَرٍ جاءَ الكِتابُ بِذِكْراهُ
١٥٠- وسِيرُوا إليهِ واذْكُرُوا اللهَ عِنْدَهُ
فَسِرْنا وفي وَقتِ العِشاءِ نَزَلْناهُ
١٥١- وفيهِ جَمَعْنا مَغرِبًا وعِشاءَها
تَرَى عائِدًا جَمْعًا لِجَمْعٍ جَمَعْناهُ
١٥٢- وبِتْنا بِهِ حتى لَقَطْنا حِمارَنا
وَرَبَّا شَكَرْناهُ عَلى ما هَدانا هُ
١٥٣- ومِنهُ أَفَضْنا حَيثُما النَّاسُ قَبْلَنا
أَفاضُوا وغُفْرانَ الإلهِ طَلَبْناهُ

نُزولُ مِنى والرَّمْيِ والحلْقُ والنَّحر

١٥٤- ونَحْوَ مِنًى مِلْنا بها كانَ عيدُنا
ونِلْنا بِها مَا القَلبُ كانَ تَمَنَّاهُ
١٥٥- فَمَنْ مِنكُمُ بِاللهِ عَيَّدَ عيدَنا
فَعيدُ مِنًى رَبُّ البَرِيَّةِ أَعْلاهُ
١٥٦- وفيهِ رَمَيْنا لِلعِقابِ حِمارَنا
ولا جُرْمَ إلا مَعْ حِمارٍ رَمَيْناهُ
١٥٧- وبالجَمْرَةِ القُصوى بَدَأْنا وعِنْدَها
حَلَقْنا وقَصَّرْنا لِشَعْرٍ حَضَرْناهُ
١٥٨- ولَمَّا حَلَقْنا حَلَّ لُبْسُ مَخيطِنا
فيا حَلْقَةً منها المَخيطَ لَبِسْناهُ
١٥٩- وفيها نَحَرْنا الهَدْيَ طَوْعًا لِرَبِّنا
وإبْليسَ لَمَّا أَنْ نَحَرْنا نَحَرْناهُ
١٦٠- ومِن بعدِها يَوْمانِ لِلرَّمْيِ عاجِلًا
ففيها رَمَيْنا والإلهَ دَعَوْناهُ
١٦١- وإيَّاهُ أَرْضَيْنا بِرَمْيِ حِمارِنا
وشَيْطانَنا المَرْجومَ ثُمَّ رَجَمْناهُ
١٦٢- وَبالخَيْفِ أَعْطانا الإلَهُ أَمانَنا
وَأَذْهَبَ عَنَّا كُلَّ ما نَحنُ نَخْشاهُ

النَّفرَةُ مِن مِنى

١٦٣- ورُدَّتْ إلى البيتِ الحَرامِ وُفودُنا
نَحِنُّ لَهُ كالطَّيْرِ حَنَّ لِمَأْواهُ
١٦٤- وطُفْنا طَوافًا لِلإفاضَةِ حَولَهُ
وَفُزْنا بِهِ بَعدَ الجِمارِ وَزُرْناهُ
١٦٥- ومِن بعدِ ما زُرْنا دَخَلناهُ دَخْلَةً
كأَنَّا دَخَلْنا الخُلْدَ حينَ دَخَلْناهُ
١٦٦- وَنِلْنا أَمانَ اللهِ عِندَ دُخولِهِ
كذا أَخبَرَ القُرآنُ فيما قَرَأْناهُ

١٦٧- فيا مَنزلًا قدْ كانَ أَبْرَكَ مَنْزِلٍ
نَزَلْناهُ في الدُّنيا وَبَيْتًا حَجَجْناهُ
١٦٨- تَرى حَجَّةً أُخرى إليه ودَخْلةً
وهذا عَلى رَبِّ الوَرَى نَتَمَنَّاهُ
١٦٩- فإخوانَنا ما كانَ أَحْلَى دُخولَنَا
إليهِ وَلُبْثًا في ذُرَاهُ لَبِثْناهُ

طوافُ الإفاضَة

١٧٠- نَطوفُ بِه واللهُ يُحْصي طَوافَنا
لِيُسْقِطَ عَنَّا ما نَسينا وَأَحْصاهُ
١٧١- وبِالحَجَرِ الميمونِ عُجْنَا فَإنَّهُ
لَرَبِّ السَّما والأرضِ للخَلْقِ يُمْناهُ
١٧٢- نُقَبِّلُهُ مِن حُبِّنا لإلَهِنا
وكَمْ لَثَمَةٍ طَيَّ الطَّوافِ لَثَمْناهُ
١٧٣- وذاكَ لنا يومَ القيامةِ شاهِدٌ
وفيهِ لَنا للهِ عَهْدٌ عَهِدْناهُ
١٧٤- ونَستَلِمُ الرُّكْنَ اليَمانيَّ طاعةً
ونَستَغْفِرُ المَولَى إذا ما لَمَسْناهُ
١٧٥- ومُلْتَزَمٌ فيه الْتَزَمْنا لِرَبِّنا
عُهودًا وعَهْدَ اللهِ فيهِ لَزِمْناهُ
١٧٦- وكَم مَوقِفٍ فيهِ يُجابُ لنا الدُّعَا
دَعَوْنا بِهِ والقَصْدَ فيهِ نَوَيْناهُ

الصَّلاةُ بالمقامِ والشُّربُ من زَمزمَ والسَّعي

١٧٧- وصَلَّى بأركانِ المقامِ حَجيجُنا
وفي زَمْزَمٍ ماءً طَهُورًا وَرَدْناهُ
١٧٨- وفيهِ الشِّفا فيهِ بُلوغُ مُرادِنا
لِما نَحنُ نَنْوِيهِ إذا ما شَرِبْناهُ
١٧٩- وبينَ الصَّفا والمروةِ الوَفدُ قد سَعَى
فإنَّ تَمامَ الحَجِّ تَكميلُ مَسْعاهُ
١٨٠- فسَبْعًا سَعاها سَيِّدُ الرُّسْلِ قَبلَنا
ونحنُ تَبِعْناهُ فَسَبْعًا سَعَيْناهُ
١٨١- نُهَرْوِلُ في أثنائِها كُلَّ مَرَّةٍ
فَهَذاكَ مِن فِعلِ الرَّسولِ فَعَلْناهُ

تَمامُ الحجِّ والتَّحلُّلُ الثَّاني

١٨٢- وبعدَ تَمامِ الحجِّ والنُّسْكِ كلِّها
حَلَلْنا وباقي عِيسِنا قَد أَنَخْناهُ
١٨٣- فمَنْ شاءَ وافَى الصَّيْدَ والطِّيبَ والنِّسا
فقد تَمَّ حَجٌّ للإلَهِ حَجَجْناهُ
١٨٤- ولما اعتَمَرْنا كان أَبْرَكَ عُمْرِنا
زمانٌ نَراهُ باعتِمارٍ عَمَرْناهُ

ذِكرُ أقسامِ الدُّعاءِ بعد تَمامِ النُّسُك

١٨٥- ولما قَضَيْنا للإلَهِ مَناسِكًا
ذَكَرْناهُ والمطلوبَ مِنهُ سَأَلْناهُ
١٨٦- فمِنْ طالبٍ حظًّا بِدُنْيا فمَا لهُ
خَلاقٌ بِأُخْراهُ إذا اللهُ لاقاهُ
١٨٧- ومِن طالبٍ حُسْنًا بِدُنْيا لِدينِهِ
وحُسْنًا بِأُخْراهُ وذاكَ يُوَفَّاهُ
١٨٨- وآخَرَ لا يَبغي مِنَ اللهِ حاجَةً
سوى نظرةٍ في وجهِهِ يومَ عُقْباهُ

طوافُ الوَداع

١٨٩- وباتَ حَجيجُ اللهِ بالبيتِ مُحْدِقًا
ورحمةُ رَبِّ العَرشِ إذْ ذاكَ تَغْشاهُ
١٩٠- تَداعَى رِفاقٌ بالرَّحيلِ فمَا تَرَى
سِوى دَمعِ عَينٍ بالدعاءِ مَزَجْناهُ
١٩١- لِفُرْقةِ بيتِ اللهِ والحجَرِ الذي
لأجلِهِما صَعْبَ الأُمورِ سَلَكْناهُ
١٩٢- وودَّعَتِ الحُجَّاجُ بَيتَ إلَهِها
وكُلُّهُمُ تَجري مِنَ الحُزنِ عَيناهُ
١٩٣- فَللَّهِ كم باكٍ وصاحِبِ حَسْرَةٍ
يَوَدُّ بِأنَّ اللهَ كانَ تَوَفَّاهُ
١٩٤- فلو تَشْهَدُ التَّوديعَ يومًا لِبَيْتِهِ
فإنَّ فِراقَ البَيْتِ مُرًّا وَجَدْناهُ
١٩٥- فما فُرقَةُ الأولادِ واللهِ إنهُ
أَمَرُّ وأَدْهَى ذاكَ شَيْءٌ خَبَرْناهُ
١٩٦- فمَن لم يُجَرِّبْ ليسَ يَعرِفُ قَدْرَهُ
فجَرِّبْ تَجِدْ تَصديقَ ما قد ذَكَرْناهُ
١٩٧- لقد صُدِعَتْ أكبادُنا وقُلوبُنا
لِما نَحنُ مِن مُرِّ الفِراقِ شَرِبْناهُ
١٩٨- ووَاللهِ لولا أنْ نُؤَمِّلَ عَودَةً
إليهِ لَذُقْنا الموتَ حينَ فُجِعْناهُ

كتب المناسك

رشيد ناجي الحسن - ياسين كتاني

الحج أحد أركان الإسلام، ومن أعظم الطاعات لرب الأنام، ومن أهم الطرق الموصلة إلى تكفير الذنوب، وطاعة علام الغيوب.

ولإتمام هذه الفريضة العظيمة، المشتملة على عبادات بدنية ومالية، وحسية ومعنوية، وجسمية وروحية - بخلاف سائر العبادات - بدأ اهتمام العلماء بتعريف الناس بهذا الركن العظيم، وإيضاح أحكامه ومسائله وأركانه وواجباته وسننه، وما يتبع ذلك من أعمال، وما ينبغي عليهم فيه من أمور معينة لبلوغ الأمل الأسمى؛ فعقدوا لذلك الأبواب الخاصة بالمناسك، كما أفردها جمع كبير من المؤلفين بكتب خاصة؛ فكثرت فيها المصنفات، وتنوعت بين مطول ومختصر ومتوسط، وبين مجرد من الأدلة ومقترن بها، وبين مختصر في مذهب واحد ومقارن لأقوال أئمة المذاهب الأخرى، وعُرف ذلك العلم بـ «علم المناسك».

وما هذه العناية الفائقة إلا لأهميتها ودقة أحكام الحج ومتعلقاته، ولاسيما أن النبي ﷺ لم يحج إلا مرة واحدة؛ فلأجل ذلك كثرت المسائل في المناسك، وتجددت بين الحين والآخر، حتى أضفت على علم المناسك شيئا من الصعوبة والدقة، مما يدل على أهمية هذا الجانب وضرورة التمرس فيه. ولعل هذا ما دفع بشيخ الإسلام ابن تيمة -رحمه الله- إلى أن يقول: «... وعلم المناسك أدق ما في العبادات» (منهاج السنة النبوية ٤٩٧/٥).

بل إنه قد جاء في الأثر عن أبي حنيفة -رحمه الله تعالى- أنه كان يراوده تردد في تحديد أفضل العبادات الإسلامية، وعندما حج قال: «أيقنت الآن أن الحج أفضل العبادات».

عناية العلماء بكتب المناسك

لقد تناول الفقهاء مناسك الحج بأسلوب علمي سهل، لأن تعليم الناس يقتضي ذلك. وقد اختلفت الكتب التي ألفت في هذا الشأن من مذهب إلى آخر.

ومؤلفات هذا الفن معروفة، وأكثرها متوافرة، ولا يمكن عرضها في هذه العجالة. وقلما تجد كل هذه العلوم على المذاهب الأربعة مجتمعة في مؤلف واحد كما جمعها الإمام العلامة عز الدين ابن جماعة الكناني (المتوفى سنة ٧٦٧هـ) -رحمه الله تعالى- في كتابه المسمى «هداية السالك إلى المذاهب الأربعة في المناسك».

وفي ما يلي إطلالة على بعض كتب

المناسك التي ألفت في كل مذهب من المذاهب الأربعة:

أولا - عند الحنفية

١. «البحر العميق في مناسك المعتمر والحاج إلى بيت الله العتيق» للعلامة أبي البقاء، محمد بن أحمد بن محمد ابن الضياء الحنفي، المتوفى سنة ٨٥٤هـ، رحمه الله تعالى.

وهو كتاب من أنفس ما ألف في هذا الجانب، حيث توسع فيه مصنفه، وأسهب في مسائل المناسك، وأضاف إليه فنونا أخرى، كفضائل المسجد الأقصى.

٢. «المسالك في المناسك» للإمام العلامة محمد بن مكرم بن شعبان الكرماني الحنفي، المتوفى سنة ٩٧٥هـ، رحمه الله تعالى.

٣. «لباب المناسك وعباب المسالك»، المشهور بـ «المنسك المتوسط»، للإمام العلامة عبدالله بن إبراهيم العمري السندي المكي الحنفي، رحمه الله تعالى.

ثانيا - عند المالكية

١. «كتاب الحج من المسائل المستخرجة من الأسمعة مما ليس في المدونة» للإمام العلامة محمد بن أحمد بن عبدالعزيز الأموي القرطبي الأندلسي، أبي عبدالله المالكي، المتوفى سنة ٢٥٥هـ، رحمه الله تعالى.

٢. «مناسك الحج» للإمام العلامة خليل بن إسحاق الجندي، المتوفى سنة ٧٧٦هـ، رحمه الله تعالى.

٣. «إرشاد السالك إلى أفعال المناسك» للإمام العلامة برهان الدين إبراهيم بن فرحون المدني المالكي، المتوفى سنة ٧٩٩هـ، رحمه الله تعالى.

ثالثا - عند الشافعية

١. «شفاء الغليل ودواء العليل في حج بيت الرب العظيم الجليل» للإمام العلامة أبي بكر بن علي بن محمد بن ظهيرة القرشي المكي الشافعي، المتوفى سنة ٨٨٩هـ، رحمه الله تعالى.

٢. «الإيضاح في مناسك الحج والعمرة» للإمام العلامة أبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف الأذرعي النووي، المتوفى سنة ٦٧٦هـ، رحمه الله تعالى.

٣. «الإفصاح على مسائل الإيضاح» للإمام العلامة ابن حجر الهيتمي، المتوفى سنة ٩٧٣ هـ، رحمه الله تعالى.

رابعا - عند الحنابلة

١. «بغية الناسك في أحكام المناسك» للإمام العلامة محمد بن أحمد بن علي البُهوتي، الشهير بـ «الخلوتي»، المتوفى سنة ١٠٨٨هـ، رحمه الله تعالى.

٢. «مصباح السالك إلى أحكام المناسك» للإمام العلامة سليمان بن علي بن مشرف النجدي، المتوفى سنة ١٠٧٩هـ، رحمه الله تعالى، وهو جد الشيخ محمد بن عبدالوهاب، رحمه الله تعالى.

٣. «مفيد الأنام ونور الظلام في تحرير الأحكام لحج بيت الله الحرام» للشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بن جاسر النجدي التميمي الوهيبي الأشيقري المكي، المتوفى سنة ١٤٠١هـ، رحمه الله تعالى.

كتب على المذاهب الأربعة

١. «هداية السالك إلى المذاهب الأربعة في المناسك» للإمام العلامة عز الدين بن جماعة الكناني، المتوفى سنة ٧٦٧هـ، رحمه الله تعالى. وقد سبق الإشارة إليه.

٢. «مناسك الحج على المذاهب الأربعة» للإمام العلامة الشيخ محمد بن مانع، رحمه الله تعالى، وآخرين.

٣. «الحج والعمرة وأعمالهما على المذاهب الأربعة وزيارة مسجد الرسول ﷺ» للشيخ العلامة محمد محيي الدين عبدالحميد، رحمه الله تعالى.

٤. «جامع المسالك في أحكام المناسك» للشيخ عبدالله بن سليمان آل بليهد.

في المنظور الإسلامي
طب العلاج الطبيعي

د. جمال الدين الفاروقي
كيرالا - الهند

الإنسان منذ بدأ حياته على وجه الأرض تعلق بالطبيعة، تفاعل بأوضاعها، واستلهم منها من العبر والدروس ما تقوم به حياته ويسد حاجاته، مما صار للطبيعة الكونية أثر في صياغة عاداته وتحديد أعماله والحفاظ على كيانه.

ومن هذا القبيل اهتمامه بالصحة وقضاياها. وقد هيأ الله الطبيعة بحيث يوفر للإنسان حياة ناعمة سالمة من الأمراض والأسقام. إن الوظائف الكونية ومواردها من الطاقة والحرارة والبرودة كلها تساهم في تهيئة البيئة المواتية لحياة الإنسان. والصحة الجسمية للإنسان موقوفة على مطابقة تصرفاته الحياتية لمقتضيات الطبيعة. حتى ولو خالفها، إما بجهله أو بسوء تصرفاته، فيتعرض للأمراض والأسقام، فإن الطبيعة الجسمية بذاتها تلجأ به إلى وسائل العلاج السليمة. والطب الطبيعي إذ أحرى أن يوصف بأنه أسلوب الحياة الأليفة بالطبيعة الإلهية، وليس معناه أن الطب الكيميائي واليوناني وغيرهما يخالف الطبيعة، ولكن في غالب الأحيان نرى علوم الطب الحديثة تلح الإنسان على اللجوء إلى معالجات طبية تضر بصحته وتذهب بحيويته، وتجعله رهينا للأمراض والأوجاع ما بقي الروح في جسمه.

خاصيات الموارد الطبيعية

إن الله أودع الموارد الطبيعية من الماء والهواء والحرارة بحيث تقوم بدورها في تشفية الأمراض وضمان الصحة الجسمية والنفسية للإنسان، والماء مثلا له فوائد طبية كثيرة، والله يقول:

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ (الفرقان: ٤٨)، ويقول أيضا: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ (ق: ٩).

وخاصيات الماء الطبيعية تتوقف على عنصرين «الطهارة والبركة»، ولكليهما أثر كبير في تشفية الأمراض والمحافظة على الصحة، والقرآن يحكي لنا تجارب نبي الله أيوب عليه السلام حين مسه الضر، وقال: إني مسني الضر، فرد الله عليه قائلا: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ (سورة ص: ٤٢)، والماء كلما مس الجسم نشط عضلاته وحرك أوعيته وأوردته.. وكان النبي ﷺ يدلك يديه وقدميه حين يتوضأ. والصدمات اليسيرة التي تصيب الجسم يمكن أن يبرأ من ألمها بمجرد تدليك الجزء المصاب بالماء البارد. وهناك علاقة أخرى بين الماء والتراب، وذلك أن الماء الملوث لو جرى فوق التراب أزال عنه الأدناس واللوثات ويكون طهورا، وفي الماء فوائد طبية كثيرة ما لا يوجد في المشروبات المصطنعة التي تملأ الأسواق.

وكذلك حرارة الشمس، وقد جعل الله أشعة الشمس مصدرا للطاقة والعناصر الحيوية التي يحتاج إليها الإنسان، وينصح الأطباء أن يعرض المواليد الجدد لأشعة الشمس وقت الصباح والمساء لفترة قصيرة، والبشرة في الجسم الإنساني تقبل العناصر الحيوية من الأشعة وتمزجها بهورمونات مختلفة مما يستخلص منه الفيتامين. وقد أكد المتخصصون كذلك، أن استخدام أشعة الشمس غذاء ودواء سوف يخفف للإنسان وطأة الأمراض، ويسهل عليه معالجتها بصورة أيسر تكلفة وأكثر فاعلية، وأثبتت التجارب الطبية أن أشعة الشمس لها أثر في معالجة أمراض السرطان.

ويمكن التعرض للشمس بالجسم مباشرة بلبس ثياب القطن الأبيض، وعلماء الطب الطبيعي يداوون المصابين بالأمراض الجلدية بهذا الضوء، وديننا - الإسلام - أيضا أولى اهتماما بالغا بهذه الطريقة في العلاج، والتعرض للشمس صار في حياة المسلم شيئا عاديا إذ يخرج خمس مرات إلى المسجد، اثنان منها في بياض النهار، مما يتيح لجسمه الفرصة للتداوي الذاتي بضوء الشمس، والعبادات ليست أعمال تعبدية فحسب، بل هي عادات صحية سليمة.

كما أن الهواء النقي يشغل حيزا كبيرا من الآفاق الجوية، ويتوفر هذا الهواء في مساحة ٥٠ كم٢ من سطح الأرض، وهو دائما يتعرض لأعمال التصفية والتنقية، وذلك للحفاظ على وجود الحياة والأحياء فوق الأرض. وعملية التنفس التي تجري في كل حركاتنا وسكناتنا تقوم بدفع الهواء إلى داخل الجسم ويقبل منه المواد النافعة كما يترك المواد الضارة. والهواء النقي يصقل العقل ويزيد الجسم نشاطا كما يزيد من عدد الكريات الحمراء في الدم. ويقوي عضلات العين، وينظم الدوران الدموي مما يجعل الجسم بكافة أعضائه ووظائفه في نشاط وصحته.

الطعام المفرط يسبب الأمراض

إن أكبر ما يعتدي به المرء على النظام الطبيعي للصحة هو أسلوب حياته وتصرفاته الغذائية التي قام بترويجها الثقافة الاستهلاكية، ومن أخطر ظواهرها الإفراط في الطعام وعدم الالتزام بالحمية مما تتزاحم منه المعدة، ولا يجد الجسم وقتا لهضم هذه المواد الغذائية وتوصيل عناصرها الحيوية إلى الأعضاء الوظيفية. وقد جهز الله النظام الداخلي لمعالجة الغذاء بحيث يوفر لجميع أعضاء الجسم فوائده الصحية. والطعام الذي يتناوله الإنسان مرة يتطلب ثماني ساعات لهضمه وتوزيع عناصره الحيوية. ومعناه أنه لا يصح تناول وجبة ثانية إلا بعد مضي هذه الفترة. ولكن العادات الخاطئة التي يعمد إليها الإنسان والمتمثلة في تراكم الطعام في المعدة، تجلب إلينا الأمراض المستعصية والمزمنة، ويمكن القول: إن ٩٠ في المائة من الأمراض البدنية تأتي من جراء سوء التغذية وفساد عملية الهضم.

وقد أرشد الإسلام المسلمين إلى ثقافة غذائية متزنة منسجمة مع طبيعة جسمه ومتماشية مع متطلبات الجهاز الهضمي. وقد حذر الرسول ﷺ أمته من الإفراط في تناول الطعام. وقال «من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت»، وفي سياق الكلام عن الكافرين يقول القرآن:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ (محمد: ١٢)، والآية الكريمة تنبئنا أن الذين يأكلون ويشبعون دائما تكون دنياهم جحيما بالأمراض والأسقام. وتبيانا لهذه الحقيقة قال ﷺ ما معناه: أهل الشبع في الدنيا هم أهل الجوع غدا في الآخرة. وذات يوم رأى النبي ﷺ رجلا أكرش فقال له: يا حبذا لو أنفقت ما أنفقت لهذا البطن لأمر آخر.

التعليمات النبوية لحماية الصحة

والدين الحنيف يقدم للبشرية أساسا متينا لصيانة الصحة وتفادي الأمراض، وهو الذي يتمثل في قوله ﷺ: «ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن لم يفعل فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه»

(١). وهذا التوزيع الغذائي يسهل للمعدة عملية الهضم ويضمن لكافة الأعضاء في الجسم صحة وإتقانا في وظائفها، وقد جاء في كلام العرب ما يشير إلى الأسباب الرئيسة لجميع الأمراض. ومنه قولهم: «المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء، وأصل كل داء البرداء». والحمية تجعل الإنسان بصيرا بصحة جسمه ومراقبا على ما يطرأ عليه من الحالات المرضية، ومعنى البرداء هو إدخال الطعام على الطعام الذي هو الآخر عاملا في مضاعفة حدة المرض وإفساد المعدة.

وحين بعث الرسول ﷺ معاذا إلى اليمن قال له: «إياك والتنعم، فإن عباد الله ليسوا متنعمين» (٢)، وهذا الحديث يبين لنا أسلوب الحياة المادية التي آثرها الرسول ﷺ لنفسه ولأمته. أضف إلى هذا أحوال بيته ﷺ، إذ كان لا يرفع من بيته الدخان لشهرين أو أكثر لعدم وجود ما يطبخ، وإنما كان طعامهم وشرابهم في هذه الفترة التمر والماء، ومع ذلك ما نقصت مناعتهم وما مرضوا وما وهنوا، وهذه الحقيقة إن دلت على شيء فإنها تدل على أن الجسم الإنساني ووظائف أعضائه وأجهزته أحوج إلى الإمساك منه إلى الشبع، ولم يرو في تاريخ البشرية موت أحد بالإمساك عن الطعام والقصد فيه، بل مات وهلك الملايين وصار أضعاف مضاعفتهم في أمراض مزمنة مستعصية نتيجة انهماكهم في شبع بطونهم وعدم اكتراثهم لنداء الطبيعة.

والأسلوب السليم للثقافة الغذائية يتمثل في قوله ﷺ وهو يقول: «ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطنه؛ بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه؛ فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه» (٣). وما دام الوازع الديني موجودا في ضمير المؤمن فإنه ينبهه بسلبيات الأكل المفرط. والحديث المذكور أجدر أن يسجل بأسطر ذهبية ليكون شعارا لصحة كل مسلم، ولم يجد البشرية ولن يجدوا إرشادا أغلى منه للحفاظ على الثقافة الغذائية الصحيحة التي تجنب الجوع والأمراض في وقت واحد، ولكن، هيهات إذ أصبح المسلمون يحملون معهم الأمراض في حلهم وترحالهم أكثر من غيرهم.

كما أن الرسول ﷺ يحذر بأضرار الإفراط والإسراف وقد قال عمر رضي الله عنه: «إياكم والبطنة، فإنها مفسدة للجسم، مورثة للسقم، مكسلة عن الصلاة، وعليكم والقصد فإنه أصلح للجسد، وأبعد عن السرف، وإن الله تعالى ليبغض الحبر السمين». وهذه الأضرار تصيب الإنسان في ظاهر جسمه، أما الذي يصيبه باطنا فإن ذلك وارد في قوله ﷺ: «أول بلاء حدث في هذه الأمة بعد نبيها الشبع، فإن القوم لما شبعت بطونهم سمنت أبدانهم وضعفت قلوبهم وحجمت شهواتهم». وأفكار لقمان عليه السلام هي الأخرى تبلور تلك الأضرار الباطنية، جاء ذلك في معرض كلامه لابنه وهو يقول: «يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة، وإن الشبع يورث البلادة ويعمي القلب».

النظام الصحي

توجد في الجسم الإنساني قوة إلهية، تعمل عمل الطبيب، وهي توجد كذلك داخل كل المخلوقات، وفي المنظور الديني نسميها الروح ووظيفتها أن تقوم بإصلاح العيوب والقصور الذي يحدث في الجسم وصيانة الخلايا من التلف والفساد. وتجري هاتان الوظيفتان دون انقطاع، إلا أن وصول الطعام بكمية كبيرة في المعدة يعوق انطلاقها، لأن الروح الواحد حين يقوم بوظيفتين في وقت واحد يستهلك مزيدا من الطاقة، وأيسر طريقة للعلاج هو تجنب الغذاء المفرط، وإذا لم يستعد الإنسان لذلك فإن الجسم بذاته يسحب خاصية الجوع ويدفع صاحبه إلى الإمساك عن الطعام.

والإمساك عن الطعام يتمثل في جميع الكائنات الحية، وهناك حيوانات وأشجار تترك الغذاء في أوقات معينة، والأشجار حين تسقط أوراقها في المواسم المعينة لكي تتنشط بعد ذلك، وتخرج أوراقا ناعمة أروع من الأولى، وتوجد فيها العناصر الحيوية أكثر مما كان من قبل، وكذلك الدودة، تترك الماء والغذاء لمدة واحد وعشرين يوما لتصير بعد ذلك فراشة جميلة، والدجاجة تحضن بيضها المخصب واحدا وعشرين يوما، تقضي هذه المدة في نوع من الإمساك، ولا تخرج فيها إلا لبعض الحاجات، والطاقة المكتسبة من خلال تغذيتها المستمرة تستهلك أيام الإمساك حتى تفقس الأفراخ، بينما تصبح الدجاجة الأم أكثر نشاطا وجمالا وغيرة على أفراخها. والحيوانات الأليفة التي نربيها تمتنع عن الطعام حين تنزل بها الأمراض. وكذلك نشاهد هذه الظاهرة في المرضى، إذ يمتنعون عن الطعام أيام المرض، يأتي في صورة الملل والتضجر تارة وبمرارة في الفم تارة أخرى، وهذا الملل يأتي إنذارا من داخل الجسم يخبر صاحبه أن الروح في شغل شاغل بصيانة الأعضاء والوظائف الداخلية، وأن الطعام الذي يدخل المعدة في هذه الأحوال سيضر تلك العمليات. والرسول ﷺ يقول: «لا تكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب فإن الله يطعمهم ويسقيهم» (٤).

ومن هذا المنطلق صار يضرب المثل «صوموا تصحوا» (٥)، والصوم لا يطهر الجسم فحسب، بل يطهر القلب أيضا، والنفس دائما تشتهي الأطعمة، والصائم يملك نفسه أمام هذه الشهوات مع أن الأطعمة جاهزة لديه، والمسلم يستلهم نيته للصوم من قوته الإيمانية مما يكتسب بذلك الصفات المحمودة مثل الثبات والشجاعة والتفاؤل، وكل هذا يجعل

صدره منشرحا يمكنه من مواجهة الأزمات. وغزوة بدر التي وقعت في السنة الثانية للهجرة خير دليل على صحة ما ذكرنا، وفيها عبرة لأولي الأبصار كما أشار إليه القرآن، وعبرتها ليس مقصورة في انتصار الفئة القليلة على الفئة الكثيرة، بل ينبغي أن نستلهم العبر أيضا من تضحيات النبي ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم، إذ كانوا يخرجون إلى ساحة القتال وهم صائمون. وإن فلسفة الحرب تتوقف على تزويد الجنود بما يحتاجون من الطعام بغض النظر إلى الحلال والحرام، حتى يكونوا على أتم الاستعداد النفسي واللياقة البدنية قبل الزحف، ولكن الإسلام قدم درسا جديد، وقد أقنع العالم بأن الصوم سيكسب لصاحبه من صفات الإقدام والحماسة وروح التضحية ما لا يناله لو كان شبعانا.

الأمراض تطهر الجسم

علماء الطب الطبيعي لهم اراؤهم المتميزة عن الأمراض، وذلك أن الأمراض ليست أعداء الإنسان، بل هي أصدقاؤه، ويقولون إن كل ما نسميه مرضا، فهو في الحقيقة وسائل تطهير الجسم ووظائفه، ولا يجوز أن نعيق انطلاقه بالأدوية الضارة، وبعبارة أخرى الأمراض يتمثل فيها العلاج الذي يقوم به الجسم تلقائيا، وهي إجراءات أمنية وعملية أليفة بالجسم، كما أنها من ضمن النظام الطبيعي الذي وضعه الخالق، ولا داعي لقمعها أو إبعادها عن الجسم. فمثلا القيء: هو من الإجراءات الأمنية التي يعمد إليها الجسم حين يدخل الجوف المأكولات التي يتعسر هضمها فتصير متعفنة مسمومة، والذي يشرب السم يقيء فورا. وإذا تمهل في ذلك فإن شفاءه في إيقائه، والحامل كذلك تقيء وقت الصباح، وذلك تجنبا لتسرب المواد المسمومة إلى جسم الجنين، فالقيء إذن رحمة، وهو من الوسائل الوقائية التي تجهز بها الجسم الإنساني، وكذلك الإسهال: الذي ينتج عن تراكم الملوثات من بقايا البراز والمسمومات مما تتخلى عنه الأمعاء، والجسم بذاته يقوم بهذه العمليات، وليس علينا إلا أن نطاوعه في مهماته ولا نقاومه بالأدوية، كما أن العطس هو الآخر من الإجراءات الوقائية التي يقوم بها الجسم، وذلك حينما يحمل الغبار مع التنفس فيصل إلى الرئة، والرئة أكثر الأعضاء الداخلية حاجة إلى الصيانة والتطهير الفوري، لذلك يأتي العطاس كرد فعل للجسم للحفاظ على الرئة والدفاع عن وظيفتها. ونظرا لأهمية هذه العملية وخطورتها ودورها في النظام الجسمي؛ أمر الرسول ﷺ أن يحمد الله عند العطاس، ولا نفطن إلى قيمة هذه النعمة الإلهية إلا حين نفقدها. وفي حالات الزكام يسيل الأنف، ويخرج منه المخاط والبلغم وهو ليس شيئا يخاف منه. بل هو مثل البول والبراز، وكل ما في الأمر أن الزكام يطهر المناخير والجيوب الأنفية، وإذا داويناه بالأدوية ذات الفاعلية الكيميائية ستكون عاقبته وخيمة، إذ ينشأ عنها الصداع وانسداد الأنف والربو، وكذلك السعال هو عملية إخراج البلغم المتراكم في الرئة، ولو لجأنا إلى الدواء حين تظهر أعراضه لأعقنا تلك العملية، ونتج عنه أمراض الرئة والربو. والأمراض الجلدية تظهر حين ينهض الجسم بمهمة إخراج الملوثات المتراكمة في الدم، وإذا تألم أي جزء من أجزاء الجسم فإنه يدل على أن ذلك الجزء يحتاج إلى ترميم وإصلاح.

ورسولنا الحبيب ﷺ يخبرنا عن الحمى وفاعليتها الإيجابية على المريض، وفي حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ذكرت الحمى عند رسول الله، فسبها رجل، فقال رسول الله: لا تسبها، فإنها تنفي الذنوب كما تنفي النار خبث الحديد» (٦)، قال بعض السلف: إن الحمى تدخل في كل الأعضاء والمفاصل البالغ عددها ثلاثمائة وستين مفصلا، ومعنى ذلك أنها تدخل فيها وتخرج ما بها من الخبث والدنس وتطهرها من حالات الإصابات الداخلية. وقد أثبتت الاكتشافات أن حرارة الجسم المتزايدة تقضي على انتشار الفيروسات والباكتيريا. وإذا حم الجسم فليس علينا إلا أن نصبر وننتظر ماذا ستفعل بنا، وبعد البرء من الحمى يكتسب الجسم مزيدا من النشاط، وعلى هذا يقول أبقراط عالم الطب المشهور: «لو أعطيتموني الحمى سأقضي على كل الأمراض، وقول أبي هريرة رضي الله عنه يؤيد ما قال أبقراط، وهو يقول: ما من مرض يصيبني أحب إلي من الحمى، لأنها تدخل في كل عضو مني» (٧).

ولو عاش المسلم مراعيا لهذه الإرشادات النبوية والتعليمات الإلهية فإنه سيمكنه من الحمية والوقاية ما لا يبلغ إليه المعالجات الطبية الحديثة ذات التكلفة الباهظة. ومن كان له من نفسه واعظ كان عليه من الله حافظ.

هوامش

١- رواه ابن ماجة رقم الحديث ٣٣٤٩.
٢- رواه الإمام أحمد والبيهقي.
٣- منهاج المسلم / أبو بكر الجزائري : ص. ١٠٤.
٤- رواه ابن ماجة . كتاب الطب.
٥- ذكره المنذري في الترغيب والترهيب ٢/٨٣.
٦- رواه ابن ماجة برقم : ٣٤٦٩.
٧- زاد المعاد / ابن قيم الجوزية . جـ ٤ ص: ٣٢.

مقصد التعارف وأثره في تقوية النسيج الاجتماعي

د. إبراهيم مهنا
باحث بوزارة الأوقاف الكويتية

التعارف: مصدر من عرف؛ بمعنى: علم، يقال: عرّفه الأمر: أعلمه إياه. وتعارف القوم: أي عرف بعضهم بعضا. وفي الحديث: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف» (١).

التعارف من مقاصد الشريعة

للعلماء طرق عديدة في معرفة مقاصد الشريعة الإسلامية واكتشافها، وقد يسّر الله تعالى سبل الوصول إلى بعض حكمه البالغة، وأسرار أحكامه الباهرة، حيث نص بشكل واضح على كثير من العلل والحكم، وفي بعض الأحيان لا ينص الشارع على المقاصد من الأحكام بشكل مباشر، ولكن يمكن الوصول إليها بطرق؛ منها استقراء النصوص للتعرف على المقصد المطلوب.

وجل هذه الطرق تستند إلى دلالة الخطاب الشرعي، فتارة يستقل النص الشرعي بإفادة المقاصد، وتارة لا يفيد إلا بانضمامه مع قرائن أخرى، وتارة تستنبط عن طريق مسالك العلة، أو عن طريق استقراء النصوص الشرعية حيث تجتمع الدلائل على معنى مقاصدي مطلوب.

ويمكن أن تستند معرفة المقاصد إلى عمل النبي ﷺ، وفي هذا يقول د. عبد المجيد النجار: «إن الأفعال النبوية يمكن أن تكون بذاتها، أو بقرائن ظروفها وأحوالها، مسلكا يعرف منه المقصد الشرعي؛ وذلك لأن النبي ﷺ لما يداوم على إتيان فعل ما في مناسبات متعددة وفي ظروف مختلفة؛ فإن تلك المداومة يتحصل منها للناظر فيها أن تلك الأفعال إنما كانت لتحقيق هدف من أجله وقعت وتكررت، وذلك هو المقصد الشرعي منها، فيعرف إذن من خلال ذات تلك الأفعال المتكررة» (٢).

ونجد أن مقصد التعارف يمكن معرفته من دلالة النص الشرعي المباشرة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ (سورة الحجرات:١٣). حيث بيّن الله عز وجل بشكل واضح العلة من خلق الناس شعوبا وقبائل فقال: ﴿لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾.

وكذلك يمكن استنباط مقصد التعارف من دلالة فعل النبي ﷺ المتكرر، فقد كان حريصا على معرفة الناس والتعرف على أحوالهم وأخبارهم، يبادرهم بالسلام والابتسام، ونحو ذلك مما سيأتي بشيء من التفصيل لاحقا.

التعارف من مقاصد بعض العبادات والحدود

أولا- التعارف من مقاصد الحج

في الحج يتحقق معنى التعارف بين المسلمين، وإن اختلفت اللغات والأوطان والمشارب، فهم يجتمعون على صعيد واحد أياما متتاليات، ما جمعهم إلا طاعتهم لله عز وجل، فيتعارفون بينهم ويتراحمون، فيكون التعارف من أكبر أسباب الألفة بين أهل الإسلام. وفي الحج يتم التعرف على أحوال المسلمين في كل مكان، حيث يسمع المسلم من أخيه القادم من مشارق الأرض ومغاربها مباشرة عن أحوال المسلمين في بلاده، ويتبادلون المنافع والخبرات، والنصح والإرشاد.

ثانيا- التعارف من مقاصد صلوات الجمع والجماعات

كان المسجد حلقة الاتصال بين المسلمين، به يتم التعارف والتآلف، وقد شرع الله تعالى الاجتماع للصلوات الخمس والجمع والعيدين؛ لما في الاجتماع من حصول التنافس في الخيرات، والتنشط عليها والتعلم والتعليم لأحكامها، فإن العالم ينبه الجاهل، والجاهل يتعلم بالقول وبالفعل من العالم، ويقتدي الناس بعضهم ببعض. وكذلك لما يحصل في الاجتماع للصلوات في المساجد من تعارف وتواصل بين المسلمين، وتتوطد معرفة الجيران وأهل الحي الواحد بإتيانهم إلى الصلوات في المساجد.

ثالثا- التعارف من مقاصد تحريم الزنا

اختلاط الأنساب واضطرابها من نتائج جريمة الزنا الوخيمة، فكان ذلك من أسباب تحريم الزنا. وقد لحظ الإمام ابن القيم هذا المعنى في تحريم الزنا، فقال: «ولما كان الزنا من أمهات الجرائم وكبائر المعاصي؛ لما فيه من اختلاف الأنساب الذي يبطل معه التعارف والتناصر على إحياء الدين، وفي هذا هلاك الحرث والنسل فشاكل في معانيه أو في أكثرها القتل الذي فيه هلاك ذلك، فزجر عنه بالقصاص ليرتدع عن مثل فعله من يهم به، فيعود ذلك بعمارة الدنيا وصلاح العالم، الموصل إلى إقامة العبادات، الموصلة إلى نعيم الآخرة» (٣).

آداب إسلامية تعمق التعارف بين الناس

أولا- إفشاء السلام

التحية بوابة التعارف ومدخله الأمثل، ولا تحية أروع من السلام، ولقد حث الإسلام على إفشاء السلام قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام» (٤). وجعل إفشاء السلام سبيلا للتحاب، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أَوَلَا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» (٥).

وبذل السلام وإفشاؤه يكون على جميع أفراد المجتمع من نعرف ومن لا نعرف، فقد سئل النبي ﷺ: أي الإسلام خير؟ فقال: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف» (٦).

ويضاف لفضيلة إفشاء السلام استجلاب المصافحة، وجعلها سببا لغفران الذنوب، قال رسول الله ﷺ: «إن المسلم إذا لقي أخاه المسلم فأخذ بيده تحاتت عنهما ذنوبهما، كما تتحات الورق من الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف، وإلا غفر لهما، ولو كانت ذنوبهما مثل زبد البحر» (٧).

ثانيا- التبسم وبشاشة الوجه

إن كان السلام بوابة التعارف، فإن الابتسامة والبشاشة مفتاح القلوب، وبهما تتهيأ النفوس لتعميق التعارف، وتستعد للتواصل الإيجابي الفعال، والتبسم علامة على صفاء القلب ونقائه، وبشاشة الوجه دلالة على اللين والتسامح، وكان النبي ﷺ طلق الوجه، كثير التبسم، ويحض على ذلك، ويرغب فيه، ويجعله من المعروف، قال ﷺ: «تبسمك في وجه أخيك لك صدقة» (٨)، وقال ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق» (٩).

ثالثا- صلة الأرحام والقرابة

أولى الناس بتعزيز التعارف معهم هم ذوو الأرحام والقرابة، قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ (لقمان:١٥)، وعن علي

بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث ليس لأحد من الناس فيهن رخصة: بر الوالدين مسلما كان أو كافرا ...» (١٠). وهذه أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما تستفتي النبي ﷺ في صلة أمها المشركة التي جاءت لزيارتها بعد صلح الحديبية فيقول لها النبي ﷺ: «نعم صليها» (١١).

وقال الله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ (الإسراء: ٢٦)، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ (النحل: ٩٠)، وتأمل عموم لفظ ذي القربى، فيشمل المسلم وغير المسلم، إذ إن أخوال المسلم قد يكونون من أهل الكتاب من غير المسلمين؛ لجواز مناكحتهم.

رابعا- حسن الجوار

حرص الإسلام أشد الحرص على تحقيق الأمن المجتمعي، فكان من آدابه تعظيم شأن الجار، فقد وصى الله تعالى بجميع أنواع الجيران، ذي القرابة منهم والغريب، القريب والبعيد، المسلم وغير المسلم، فقال سبحانه: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ (النساء: ٣٦)، وجعل النبي ﷺ حسن الجوار من كمال الإيمان، فها هو يقسم بالله تعالى: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن! قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه» (١٢).

والإحسان إلى الجار يكون بمواساته، وحسن عشرته، وبكف الأذى عنه، وبالمحاماة دونه، وبتحمل أذاه، وفي الحديث: «خير الجيران عند الله خيرهم لجاره» (١٣).

خامسا- حسن الاستماع

حسن الاستماع للآخرين أساس مهم لتحقيق التعارف بين الناس، فإن حسن الاستماع دليل التقدير والاحترام، وهل يتواصل التعارف بين الناس وينجح من دون تقدير واحترام؟

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «لجليسي عليّ ثلاث: أن أرميه بطرفي إذا أقبل، وأن أوسع له إذا جلس، وأصغي إليه إذا تحدث» (١٤). ومن وصايا الحسن البصري: «إذا جالست فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلم حسن الاستماع كما تعلم حسن القول، ولا تقطع على أحد حديثه» (١٥).

من ثمرات التعارف

التآلف والتحاب

التآلف والتحاب من ثمار التعارف، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف» (١٦)، وفي رواية عن سلمان رضي الله عنه: «القلوب» بدل «الأرواح» (١٧). والخير للمؤمن أن يكون ممن يألفه الناس ويأنسوا به، فعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن مألفة ولا خير فيمن لا يَألف ولا يُؤلف» (١٨)، ولن يتحقق هذا التآلف والتحاب دون حصول تعارف حقيقي بين الناس.

التعاون والتكامل

لعل التعاون والتكامل بين الناس من أهم ثمار التعارف، فهو النتاج العملي للتعارف؛ إذ تتفاوت قدرات البشر وإمكاناتهم، ولا يمكن لإنسان أن يستغني عن الآخرين، فبعد التعارف يتكامل الناس ويتعاونون من أجل تحقيق أهدافهم المشتركة، ونشر قيم الحق وفضائله، ونبذ الباطل ورذائله، أو بعبارة أخرى: للتعاون على تطبيق العقد المدني (الدستور) الذي توافق عليه المواطنون على اختلاف دياناتهم وألوانهم وأشكالهم، وهذا التعاون والتكامل لن يحدث إلا إذا كان على أسس صحيحة متعارف عليها، فكلما كان محل التعاون قريبا من الحق والعدل، كان أدعى لتقارب الناس وتعاونهم على تحقيقه. قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ (المائدة: ٢).

الهوامش

١- لسان العرب، المعجم الوسيط، مادة (عرف). والحديث متفق عليه. البخاري ح٣٣٦، ومسلم ح١٥٩.
٢- مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، ص٣٤.
٣- إعلام الموقعين ٨٣/٢.
٤- رواه الدارمي (استئذان) ح٢٥١٨، (صلاة) ح١٤٢٤، والترمذي (أطعمة) ح١٧٧٨، (صفة القيامة) ح٢٤٠٩، وأحمد ح٧٥٩١، ٧٩٤٥، ٩٩٩٦، ٢٢٦٦٨، وابن ماجه (إقامة) ح١٣٢٤.
٥- رواه مسلم (إيمان) ح٨١.
٦- رواه البخاري (إيمان) ح١١، ٢٧، ومسلم (إيمان) ح٥٦.
٧- رواه الطبراني في الكبير ح٦١٥٠.
٨- رواه الترمذي (بر وصلة) ح١٨٧٩.
٩- رواه مسلم (استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء) ح١٤٤.
١٠- رواه البيهقي في شعب الإيمان.
١١- رواه البخاري (جزية) ح٢٩٤٦، ومسلم (زكاة) ح١٦٧٠، ١٦٧١.
١٢- رواه البخاري (أدب) ح٥٥٥٥، ٥٥٥٦.
١٣- رواه الترمذي (بر وصلة) ح١٨٦٧، وأحمد (المكثرين من الصحابة) ح٦٢٧٨ والدارمي (سير) ح٢٣٣٠.
١٤- عيون الأخبار، لابن قتيبة الدينوري ٤٢٥/١.
١٥- رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق، ح٧٣١.
١٦- سبق تخريجه.
١٧- رواه الخرائطي في اعتلال القلوب ح٤٦١.
١٨- رواه أحمد، والطبراني، وابن حبان، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان، وأبو الشيخ في الأمثال، والبيهقي في الشعب، انظر: مسند أحمد تحقيق الأرناؤوط ط الرسالة ٤٩٢/٣٧. وقال الأرناؤوط: متن الحديث حسن.

أسباب الانبهار بالغرب وتداعياته

أحلام عباسي
باحثة في الدراسات الإسلامية - المغرب

لا أحد يشك في أن تفاعل الحضارات يعتبر خاصية أساسية من خواص الحضارة الإنسانية، ويعبر عن الطبيعة التلقائية للحركة والعلاقات الاجتماعية بين المجتمعات. وللتفاعل الحضاري أسباب وعوامل، أهمها: الغزوات، والفتوحات، والعلاقات التجارية، وتبادل الخبرات المادية والمعنوية. ثم إن الأشياء والإنتاجات المادية والوسائل التقنية غالبا ما تكون أسرع انتقالا من الأفكار والعقائد والملل. ويلاحظ دارسو الحضارات أن قوة تأثر حضارة بحضارة ما تتعلق بموقف إحداهما من الأخرى، فإذا كان الموقف يعبر عن نوع من الندية، كان التأثير المتبادل قائما على التوازن السليم. في حين إذا كان الموقف موقف إعجاب وانبهار من طرف إزاء طرف آخر كان التأثر سريعا وعميقا من قبل الطرف الأول، وقد يصل إلى حد الذوبان والتماهي والانصهار في الطرف الثاني (١).

ولعل العلاقة بين الحضارتين الغربية والإسلامية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين، خير دليل مجسد لموقف الإعجاب والانبهار. ولقد تدرجت الشعوب الإسلامية -على طول هذه الفترة- في الانغماس في الحضارة الغربية، والتأثر بقيمها وعاداتها. كما سعت طبقة المترفين والمثقفين من المعجبين بمدنية الغرب، جيلا بعد جيل، إلى تحويل مجتمعها، ذي المرجعية الإسلامية، إلى مجتمع غربي، أو بالأحرى تابع للغرب خانع خاضع له في جميع المجالات والصعد الاقتصادية، السياسية، الاجتماعية وحتى الثقافية.

فما هي إذن الأسباب التي كانت وراء هذا الاستتباع الحضاري للغرب، واللهث خلفه حتى الإعياء؟ وإلى متى سيظل العالم الإسلامي مبهورا مشدودا إلى الحضارة الغربية؟ وإلى متى سيظل مستهلكا لمنتجاتها وبضائعها؟

أسئلة حرجة آن لنا أن نوجهها إلى أنفسنا بكل صدق وإصرار؛ حتى نعرف الداء ويتيسر لنا البحث عن الدواء الشافي لهذا الداء العضال الذي يهدد كيان الأمة أجمع في هويتها وخصوصيتها.

ويمكن تقسيم الأسباب التي كانت وراء هذا الاستتباع الحضاري للغرب إلى أسباب خارجية وأخرى داخلية.

بالنسبة إلى الأسباب الخارجية، فقد كان للاستعمار العسكري والسياسي للبلاد الإسلامية دور بالغ في تحريك عجلة الاستغراب والدفع بها إلى الأمام، فجل بلدان العالم الإسلامي، كما هو معلوم، كانت تحت وطأة الاستعمار الأوروبي، الذي أعمل جهده في فصل الجيل الذي عاش في كنفه عن أرضه ومنبته الإسلامي السمح، حيث حاصر التعليم الإسلامي وحارب اللغة العربية، وأنشأ بدلا منه التعليم العلماني، الذي يتماشى مع برامجه، والقضاء الذي يحكم بقوانينه، والإدارة التي تسير بأنظمته، والإعلام الذي ينشر أفكاره وثقافته التوسعية الإمبريالية، والأوضاع التي ترسخ

قيمه وتقاليده -المتحررة- في نفوس المسلمين. ولم يكتف المستعمر بهذا الوجه، بل خلق لنا وجها جديدا، إلا أنه هذه المرة أكثر توسعا واجتياحا، وذلك من خلال الغزو الفكري والثقافي، مستغلا تفوقه العلمي، ومسخرا سيطرته السياسية للإسراع بالتحولات المدنية والثقافية التي يريدها بحيث تخرج الإدارة والجيوش وتبقى التبعية والخضوع. هذا الوجه من الغزو، الذي اخترق الأسوار والقفار والبحار، وغزا الأقطار، ودخل إلى كل بيت وتربع على قلوب أصحابه من دون استئذان أو استئناس منهم، فعمل على نشر أفكاره المدمرة للأخلاق والمفسدة للعقول والمبادئ التي يحث عليها ديننا الحنيف.

فخرج بذلك المستعمر وهو مطمئن إلى أن هذه الحملة قد آتت ثمارها، وأن مرحلة ما بعد الاستعمار ستكون امتدادا لمرحلة الاستعمار، تتحقق فيها مصالحه بصورة أفضل وبتكلفة أقل، فأينعت هذه المخططات الاستعمارية ثمارها السلبية المرجوة منها.

الأسباب الداخلية

أما بالنسبة إلى الأسباب الداخلية فيمكن حصرها في الضعف الفكري الذي أصاب العقل المسلم إبان عصر الجمود والانحطاط، الذي كان العالم الإسلامي يقبع تحته مقلدا متبعا معارضا لأي اجتهاد أو إبداع، الأمر الذي جعل عقل المسلم خاملا غائبا عن مجريات الأحداث وما يدور في الساحة العلمية من تحديات، مكتفيا بالمشاهدة والتعامل المجحف مع الواقع بشيء من اللامبالاة، وبقدر من عدم الاهتمام. إلى جانب الأنانية الفردية، التي عادة ما تقود الشخص إلى التمسك بما يملك من فكر، أو رأي، أو خبرة، أو حتى متاع الدنيا، ويحرص على الاكتفاء بأدنى ما يستطيع من المشاركة في إنتاجية مجتمعه (٢).

هذا الضعف والارتكاس الذي أصاب الفكر الإسلامي وسرى في عروقه، جعل المسلم يحس بعقدة النقص أمام الغرب، الذي وصل إلى ما وصل إليه من تقدم وازدهار علمي وتطور تكنولوجي مذهل؛ فانعدمت ثقته بنفسه وبقدراته على مسايرة هذا الركب الحضاري والتكنولوجي، وهذه الثورات العلمية والصناعية التي تعاقبت وتسارعت خطاها، وصار التغيير المترتب عليها يتم وفق متوالية هندسية؛ لأن كل اكتشاف علمي يحمل في ثناياه اكتشافات جديدة تتولد منه (٣).

فأوقف عجلة التقدم والانطلاق، وفتح أبوابه وأسواقه إلى المنتوجات الدخيلة، مستهلكا غير مصنع، مستورد غير مصدر، إذ تحدثت الإحصائيات سنة ٢٠٠٥ أن الواردات التي يستوردها العالم الإسلامي بلغت قيمتها ٤٣٠ مليار دولار، في حين بلغ حجم الصادرات ما قيمته ٣٦٠ مليار دولار (٤). هذا الفرق المهول بين قيمة الصادرات والواردات في العالم الإسلامي لخير شاهد على ما تعيشه الأمة من حالة الاستهلاك والتواكل والاستجداء من الغرب. إذ ما زلنا نعتمد -وللأسف الشديد- في غذائنا وكسائنا ودوائنا وسلاحنا على ما تنتجه لنا أمم أخرى، تتحكم بذلك في مستقبلنا ومصيرنا، بل نفتخر ونتباهى بكل منتوج غربي، ولو كان مضرا ومتعارضا مع عاداتنا وتقاليدنا الدينية، فالناس في المدن يطربون للموسيقى الغربية، ويفتخرون باللباس الغربي، ويتباهون بالسلوك الغربي المتحرر.. باختصار إنهم يلمسون في باطنهم ميلا إلى اقتناء أو ممارسة كل ما يجود به الغرب عليهم، ميلا إلى تقليده والاقتداء به إلا في العلم والمعرفة للأسف، وذلك لإحساس هؤلاء الدائم بأن الغرب أحسن منهم، أو بالأحرى أقوى منهم، الأمر الذي جعلهم يلعبون دور الضعيف المنهزم المولع بتقليد الغالب القوي كما يقول ابن خلدون «في شعاره، وزيه، ونحلته، وسائر أحواله وعوائده. والسبب في ذلك أن النفس أبدا تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه إما لنظره بالكمال بما وفر عندها من تعظيمه أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي إنما هو الكمال الغالب فإذا غالطت بذلك واتصل لها اعتقادا فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به وذلك هو الاقتداء» (٥).

أنماط غربية

هذه الحالة المتردية التي أصبحت تلف العالم الإسلامي لفا لا مفر له منها، وتحاصره في كل مكان، هي، وللأسف، مدعمة من طرف الغرب، الذي يتربص بالعالم الإسلامي في محاولة لنقله من تربته الإسلامية إلى تربة أخرى تتبنى أنماطا غربية في الحياة، وذلك حتى لا تقوم لهذه الأمة قائمة، وذلك بنشر التعطيل بين أبنائها، هذا الأمر الذي عبر عنه أحد المسؤولين في وزارة الخارجية الفرنسية سنة ١٩٥٢م بقوله: «فلنعط لهذا العالم -الإسلامي- ما يشاء، ولنقو في نفسه الرغبة في عدم الإنتاج الصناعي والفني حتى لا ينهض وينافسنا» (٦).

هذه السياسة الماكرة التي خطط لها الغرب نجحت إلى حد ما في العالم الإسلامي المأسوف عليه، خصوصا في صفوف الشباب الذين أصبحوا غربيين في لباسهم، وسلوكياتهم، ولغاتهم، ومبادئهم. وأصبحت القيم الإسلامية في نظرهم تقاليد قديمة لا تتناسب مع مجريات العصر ومع الحداثة، وأصبحت اللغة العربية، التي اصطفاها الله لتكون لغة كتابه الحكيم، لغة العوام التي تعبر عن التخلف والرجعية!

لكن هذه الحقيقة، وللأسف الشديد، لم يعها المسلمون، لم يعوا أنهم مستهدفون من طرف الغرب، لم يعوا بأن الحضارة الإسلامية، التي أضحى معتنقوها يرمون بأقبح الصفات والنعوت، ما كان لها أن تصاب بالتبلد الفكري والعجز العلمي، وهي التي كانت لها في التقدم العلمي والمعرفي

مشاركة لا تضاهيها مشاركة أية أمة من الأمم.

«هذه الأمة التي أنشأها الله عن قلة، ورفع شأوها إلى الذروة، حتى ثبتت أقدامها على قنن الشامخات، ودكت عوالي الراسيات، وانشقت لهيبتها سرائر الجبابرة وذابت للرعب منها قلوب الأكاسرة والقياصرة، هال ظهورها الهائل كل نفس، وتحير في سبب هذا الظهور كل عقل، واهتدى للسبب أهل الحق، فقالوا: أولئك قوم كانوا مع الله فكان الله معهم، ونصروا دين الله فنصرهم الله، واسترشدوا بهديه فأرشدهم» (٧).

فلما أصابها ما أصاب الأمم السابقة التي قال فيها عزوجل:

﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الروم:٣١ و٣٢)، من فساد في الأخلاق، وهبوط مميت في القيم، وتسارع إلى اللهو والمجون والترف والفجور، أذهب الله عنهم ما كان لهم من عز وسلطان في المعرفة وسيادة لهم على الأمم، فصاروا من جملة الخدم لأسيادهم بعدما كانوا سادة لهم في سابق عزهم ومجدهم الضائع.

ولعل سبيل النجاة من هذه الورطة الحضارية، ومن هذه الأوهام والهواجس التي رانت على العقل المسلم ردحا من الزمان، والدواء الشافي له من هذا الداء العضال الذي مسه في جميع جوانبه الاقتصادية، والسياسية، والثقافية، وحتى الاجتماعية... والتي جعلت منه قزما مفتونا أمام الدمى الإلكترونية واللعب الفضائية الوافدة عليه من الغرب من دون تمييز أو تمحيص منه، وكأهم خطوة للمجابهة الفعلية لهذا الهزال، هو أن نبني الإنسان البناء المتكامل ليكون في حجم التحدي، وتربيته على أخلاقيات عقدية تمنحه المناعة الحضارية المطلوبة ضد أي تيار وافد، وذلك تبعا لسنة الله في التغيير والنهوض، إذ يقول عز من قائل في محكم تنزيله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد:١١). فالنهضة لها شروطها التي لا تتخلف، فمن أخذ بها نجح في تحقيق نهضته، ومن تخلى عن تلك الشروط وأهملها فشل في ذلك.

ومن أهم شروط تحقيق النهضة إعلاء شأن العقل من جديد في ثقافة المسلمين، بل في حياتهم كلها، وذلك بغية اللحاق بالتقدم العلمي والتكنولوجي الذي يشهده عصرنا الراهن في ظل العولمة والثورات العلمية في جميع الميادين، خصوصا مجال المواصلات والاتصال، وهذا لن يتم إلا إذا ارتبطنا بعقيدتنا، وتراثنا ولغتنا. وفي اتصالنا بالحضارة الغربية نعمل على تخير الجوانب العلمية، والخبرات الفنية التي من شأنها أن تبني الأمة بناء صحيحا متكاملا متميزا في مقوماته، مستقلا في إرادته، قويا في اقتصاده، ترتفع في ربوعه راية الإيمان ومنارة العلم.

فأمتنا اليوم مدعوة لبناء نفسها بناء حديثا، في شتى المجالات (الاجتماعية والاقتصادية والثقافية...)، والطريق إلى ذلك هو تعميق الثقة بالنفس انطلاقا من الثقة والإيمان بالله، وإبراز الكيان الفكري لأمتنا المتوافق بأصالته التربوية يمكن أجيالنا المقبلة أن ينهلوا من معين الحضارة ما يحتاجونه لبناء مجتمعهم واقتصادهم من دون أن تحمل هذه الاستفادة أخطار الذوبان والضياع في متاهات تبعدنا عن أرضنا الطيبة وتراثنا الفكري المشرق (٨).

فما علينا إذن إلا أن نعقد النية ونتحرك بهمة، فرب همة أحيت أمة. وهذه الهمة هي التي تنقل الأمة من حال السكون إلى الحركة، ومن الانكفاء على الماضي إلى التوجه للمستقبل، وهي التي تنقل الجيل كله من الحيرة والإحباط إلى الأمل واتساع الرجاء، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة:١٠٥).

هوامش

١- الاستغراب في الفكر المغربي المعاصر من خلال كتابات د. محمد عابد الجابري، د. عبدالله العروي د. فاطمة المرنيسي للمؤلف عبدالله الشارف، الطبعة الأولى، مارس ٢٠٠٣، طوب بريس، ص:١١، بتصرف.

٢- دراسة في البناء الحضاري، «محنة المسلم مع حضارة عصره»، كتاب الأمة، الدكتور محمود محمد سفر، ص: ٤٧، بتصرف.

٣- مجلة الوعي الإسلامي، مقال أسباب النهضة ليست سرا يستعصي على الأمة المسلمة، حوار مع المفكر الإسلامي الدكتور كمال أبو المجد حاوره محمد الدسوقي، ص: ٣١، العدد ٤٥٢، السنة ٤٠، ربيع الآخر ١٤٢٤هـ/ يونيو ٢٠٠٥م.

٤- إحصائيات قدمها الدكتور عبدالمجيد النجار بمؤتمر عمان.

٥- المقدمة للعلامة ابن خلدون، الفصل الثالث والعشرون، ص:١٤٧، الطبعة الرابعة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

٦- قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله، لعبدالودود يوسف، ص:٣٦-٣٧، بتصرف، ١٤١٣هـ/١٩٩٤م، دار السلام للطباعة والنشر، نقلا عن جند الله، ص:٢٢.

٧- الرحلة المراكشية أو مرآة المساوئ الوقتية للعلامة محمد بن محمد بن عبدالله المؤقت، ص:٢٣.

٨- أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية، أحمد علي الملا، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر بدمشق، ص:٢٣٣، بتصرف.

القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (٢٤)

عبدالله أيت الأعشير
مفتش منسق جهوي لمادة اللغة العربية - المغرب

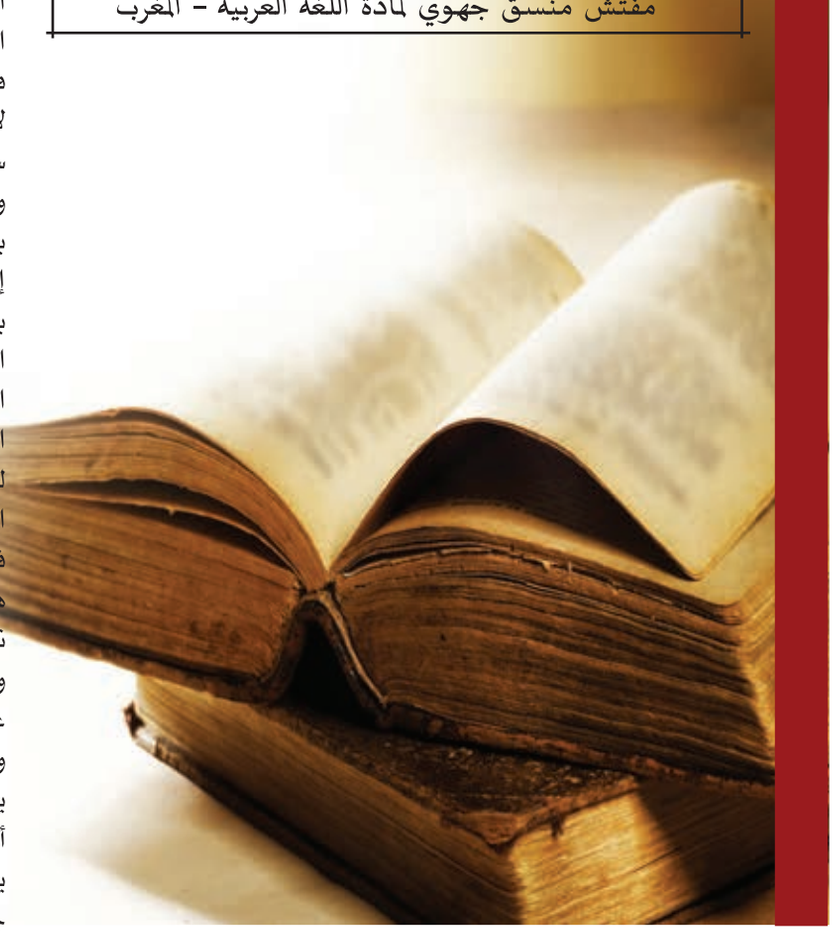

لا يملك قطار هذه الحلقات اللغوية، الذي لم تُحدد له محطات وصول نهائية، إلا أن يسعى إلى الاستمرار في الاتجاه نحو بلوغ مدينة الفصاحة الفاضلة، التي تجمل العربية المعاصرة وتكمل زينتها وصفاءها ورونقها وخلابتها، من خلال ربطها بالمصادر المكينة والعيون الثرارة التي أمدتها بعناصر الحياة التي لا ينضب معينها ما توالى الملوان. وبما أن هذا المسعى يجب أن يكون فعلا جماعيا، لا يكتفى فيه بجهود الآحاد، فإن تباشير هذا المسعى بدأت تلوح في الأفق العربي لانبثاق صحوة تعيد للفصحى وهجها وألقها، ومن ثمة بدأ هلال تلك التباشير يتحول رويدا ليصبح بدرا مكتملا في جهود كثير من الهيئات والمؤسسات التي تعنى بالعربية الفصحى، مثل: المجلس الدولي للغة العربية، ومركز الملك عبدالله الدولي لخدمة اللغة العربية، ومؤسسة الفكر العربي التي أطلقت مبادرة: «لننهض بلغتنا».. وغيرها من المراكز والهيئات والجمعيات التي جعلت وكدها وسدمها الانتصار للعربية الفصحى والدفاع عنها وتنقيتها من الشوائب والأحراش التي تعيق شجرتها عن النمو الأمثل، الذي يواكب حضارة العولمة ويمدها بالألفاظ والاصطلاحات الجديدة التي لا ينقطع نسلها عن المحتد العربي الصميم؛ باعتباره الضابط الذي يوحد ويوجه الجهود نحو كنس هذا التمزق اللغوي الذي عم فساده سماوات وأرضين الوطن العربي. ولكي لا يتحول وميض هذه الهيئات والمنظمات إلى سوى برق خلب لا يعد بشيء تناله الفصحى وتتقوى به، فإن العربية الفصحى بحاجة، بالإضافة إلى جهود أولي العزم من هذه الأمة، إلى قرار سياسي ملزم يدعو العرب جميعهم بألا يتكلموا مع العالم من حولهم إلا باللغة العربية الفصحى، لغة القرآن الكريم والشعر العربي البليغ؛ وعندما نمضي في هذه السبيل السالكة فإن العالم سيسمع صوتنا، وسيقدر لغتنا، وسينظر إلينا نظرة مخالفة لا يشوبها الذل الذي كان يلمحنا به طبقا لقاعدة: «ما ذل قوم، إلا ذلت لغتهم».

هذه هي القاعدة الذهبية التي يجب علينا، نحن العرب، أن نقرع لها ظنبوب الاجتهاد، ونخوض إليها الغمر والضحول، قبل أن نعض على أيدينا، ونقرع سن نادم على حيرتنا وتهيبنا ودعوتنا إلى قطع ذنب الأفعى وترك رأسها الذي يجر على لغتنا الشاعرة الويل والهلاك من لدن أعدائها اللد داخل أوطاننا وخارجها، والذين يشيعون عنها قالة السوء ويكيلون لها التهم جزافا وجحدا بآلائها، وإنكارا لمزياتها، وزعما

آفكا بقصورها وعدم قدرتها على مواكبة حداثة الغرب العولمية على هذه الشاكلة: «وتبدأ لغة الخشب عندنا في السنوات الأولى من التعليم الابتدائي، عندما يلقن الطفل دروسا بلغة مقعرة لا تمت إلى عصرنا بصلة، ثم يجبر التلميذ على حفظ أشعار ومنظومات كتاب موتى حقيقة ومجازا... وهذا ما يرسخ في الأجيال قناعة مفادها أن ما يتعلمه من لغة وأفكار لا علاقة له بالحياة العصرية، فهو منفصل عنها تماما.. وتتناغم لغة التعليم الأولى مع لغة مسجدية تلقينية ينقل فيها محسوبون على الخطابة نصوصا من كتب صفراء مليئة بالسجع» (١). لابد من وضع مثل هذه الآراء الدبرية الملهوجة والدعوات المنكرة في أماكنها من سقط المتاع، وأن نأتي عليها من قواعدها، لأنها دعوات منكرة لا تنهض على حجج سليمة يمكن الإذعان لها، لأنها مجرد «عمل من أعمال الهدم الصراح عن سوء نية وخبث طوية، يتعمده المجاهرون به لتقويض معالم اللغة، ومحو آثار الأدب، وفصم العلاقة الفكرية بين روائع الثقافة العربية في مختلف العصور. وتلك شنشنة نعهدها في العصر الحاضر من دعاة الهدم المستترين وراء كلمات التقدم والتجديد. وأين يعمل هؤلاء عملهم الهادم إن لم يكن هذا عملهم المقصود من وراء الستار؟» (٢). لقد أفرخت بيضة أمثال هذا المنشئ، ومن ثمة بدت حجة أقوالهم الشنارة أضعف من حجة واقع تعلم اللغة العربية الفصحى، التي كان الأوائل يرون السبيل الناهجة لتحصيل ملكاتها تكمن في الإكثار من سماع القرآن الكريم والشعر العربي البليغ وأقوال الحكماء والخطباء وأمثالهم السائرة. هذا هو الحق الأبلج الذي لا جمجمة فيه، فمن أراد الفصحى وسعى لها سعيها، فإن مرآتها المجلوة محصورة في هذه الأصول التي ليس لنا بعدها التفات إلى دعوات فارغة يتولاها ألفاف منشئون يتحدثون بما لم يحيطوا به خبرا، وهذا هو الرأي القارح والغرة الشادخة في تعليم الفصحى وتعلمها. ومن التمسها في غير هذه المصادر، وبغير هذه الوسيلة السماعية التي تجعل الشداة ينشأون عليها حتى تصبح بضعة من كيانهم وتمتلئ بها قلوبهم، فيمحضون لها الحب، ويتشبعون بقواعدها وقوانينها التي اكتسبوها بالفطرة من دون اللجوء إلى ضوابط المتون اللغوية كالأجرومية والألفية، فإنه يجري خلف سراب بقيعة.

إذا ثبت أن لكل شيء بذرة، فإن بذرة الفصاحة لا تنمو ولا يشتد عودها ولا تزكو ثمارها إلا بإطالة الاستماع إلى الكلام العربي المبين، واللواذ بأقوال الحذاق المنصفين قبل أن ترحل الفصاحة عن الديار وتطير عن الأفواه كما طارت جرادة العيار؛ لأن اللحن في اللغة ثمنه مكلف، يعرض اللغة للهزال، ويؤدي إلى سوء الفهم، وسوء الفهم ينجم عنه جمود المعرفة والرضا بالجهل الذي يفضي إلى الصراع الضار بالسلم المجتمعي الذي ينذر بالكوارث الماحقة المضرة بالتعايش الإنساني. وقديما أكد أفلاطون أن فساد مدينته الفاضلة يبدأ من تحريف الكلمات في أثناء الاتصال والتواصل. ولكي لا يطم بحر هذا الفساد اللغوي، فإننا مدعوون إلى إعمال القواعد والقوانين التي ضمنت للفصحى جودة الفهم والإفهام، لكونها الضابط الموحد الذي يوجه نحو الصحة والفصاحة كما تتوجه الجعافر والأسرية والفوالج إلى الوادي الكبير، لأننا محاصرون بكثير من العبارات اللاحنة التي غمرت الشداة، فانتقل داؤها إلى أساتيذ الجامعات والمعاهد العليا، لم يسلم من حبائلها حتى كبار الأدباء الذين يؤتم بهديهم، على شاكلة هذه العبارة التي تتردد على الألسنة وتكتب على اللوحات واليافطات في أثناء الترحيب بالمشاركين في المؤتمرات والندوات العلمية التي تقام في أرجاء الوطن العربي. وبما أن هذه العبارة تكررت في الندوات التي شاركت فيها خلال شهري جمادى الآخرة ورجب حتى تكرجت، فقد آليت على نفسي أن أنبه أساتيذنا الفضلاء ومفكرينا البزلاء إلى أن فساد هذه العبارة: «مرحبا بالحضور الكريم»، ناتج عن الخلط بين صيغتي «المصدر» و«جمع الكثرة على وزن فعول»، والذي هو: «حضور»، وبما أن الحضور المراد من العبارة الآنفة ليس هو مصدر «حضر حضورا»، إذ لا يمكن أن نرحب بالمصدر الذي يدل على الحدث المجرد من الزمان، فإن المقصود من لفظة «حضور» جمع التكسير لـ«حاضر»، التي تقتضي أن تكون صفتها مطابقة للموصوف في الإفراد والتثنية والجمع والتذكير ثم التأنيث، إلا إذا كان الموصوف جمعا مما لا يعقل، فإنه يجوز أن تكون الصفة مفردة أو جمعا مثل قولنا: «شاهدت حدائق مزروعة أو مزروعات». أما إذا كان الموصوف من العقلاء، فإن الصفة توافق موصوفها موافقة تامة، ومن ثمة تصبح العبارة الصحيحة التي تخصص الحاضرين بالكرم هي: «مرحبا بالحضور الكرام» أو «مرحبا بالحضور الكرماء»، لكي توافق الصفة جمع «حاضر».

قال تعالى واصفا الملائكة بالكرام البررة: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ (عبس:١٥ و١٦). كما قال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾﴾ (الانفطار:١٠ و١١).

هذه نظرة من طرف خفي، وبرق وامض يَعِد الذين يشيمون سحائبه بالغيث النافع الذي ينمي شجرة الفصحى، غزوت من خلال هذا المرور الطائر اجتذاب مواكب القراء واستلطافهم لمصاحبتي راغبين هاشين مستعدين لشرب كلماتي التي أجلو بها عين الصواب ليقتدوا به، وأظهر لهم قحم طريق اللحن والفساد اللغوي لينصرفوا عنها ويطووا عنها الكشح، ملتمسا الفصاحة والبيان من مصادرهما التي اشتملت على أحرار الألفاظ وللآلئ العبارات، كلما زهت لفظة بخلابتها، تنفست أختها عن طيب نشرها في رياض العربية الفصحى الذفرة، التي ضمت من القول أحسنه، ومن المنطق أبينه، ومن المعنى أصحه وأتقنه.

الهوامش

١- اللعب بالكلمات، الخير شوار، مجلة الدوحة، عدد٧٩، ص:٢٨، رجب ١٤٣٥هـ/مايو ٢٠١٤م، وزارة الثقافة والفنون، الدوحة، قطر.

٢- اللغة الشاعرة، عباس محمود العقاد، كتاب المجلة العربية، عدد٢١١، ص:٣٦، الرياض ١٤٣٥هـ.

د. حسن بشير عضو مجمعي الخرطوم والقاهرة:

نحو مشروع قومي لإنشاء شهادة اللغة العربية الدولية

حوار: محمد عويس - القاهرة

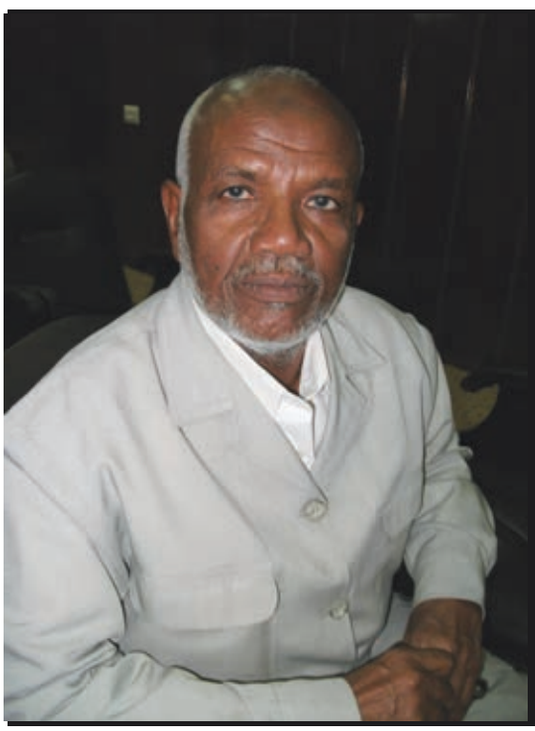

علينا نحن العرب أن ندرك متطلبات الزمن المعاصر المستوعب بثورة المعلومات، المؤثر على جميع أوجه النشاط الحياتي الآني؛ قطريا وإقليميا ودوليا، وأساس هذه الثورة هندسة الاتصالات التي جعلت الكون كله قرية واحدة تتصل خطوطها داخل منحنى مغلق، والذي لا يحقق وجود لغته داخل القرية الدولية لا يستطيع تحقيق ذاته في هذه القرية، ومن يقبل الإبعاد للغته يقبله لشخصه، وموت اللغة لا يعني إلا موت الناطقين بها، بهذه العبارات بادرنا د. حسن بشير عضو مجمعي الخرطوم والقاهرة اللغويين، مضيفا: وفي سياق سعي اللغات للحياة كان صراع اللغات واستباقها إلى أفق التوطين بالنظم الحاسوبية، وإلى التوطين بشبكة المعلومات الدولية، وإلى تقديمها المبرمج للآخرين من الناطقين بلغات أخر، وكل ذلك تحاوله الأمم المتقدمة لإثبات حياتها وتعزيز مركزها. مجلة «الوعي الإسلامي» التقت د. بشير خلال مشاركته في الدورة المجمعية الثمانين بالقاهرة، وكان هذا الحوار:

● حاول بعض الباحثين أن يدخل قضية التعريب في كل الميادين الحياتية المتصورة، بما في ذلك أمن الأمة العربية.. ما رأيك في ذلك؟

- التعريب قضية أمن قومي لأمتنا العربية، وقضية كيان وهوية، وقضية تربوية ومجتمعية، يحافظ على الذاتية والثقافة، ويعزز الانتماء، ويصون وحدة الأمة في مواجهة هيمنة العولمة، ومحاولتها طمس هويات الشعوب، وتهديد ثقافتها بالذوبان والامحاء. ودعوتنا اليوم للتعريب الشامل، وفق سياسة لغوية قومية، هي وصل لتاريخنا الحديث بتاريخنا التليد؛ فإن نقل جميع «العلوم القديمة إلى اللغة العربية كان سياسة راسخة للدولة الإسلامية على اختلاف العهود والحكام. فالتعريب الذي كانت بداياته الأولى في عهد الأمويين، بدأ ينضج في عهد العباسيين، منذ عهد أبي جعفر المنصور والرشيد، وبات مشهورا في عهد المأمون. وتمثل هذا الدور في انتشار مؤسسات علمية متخصصة بالترجمة ونقل العلوم إلى العربية. فقد نشأت دار الحكمة ببغداد، في بداياتها الأولى في عهد الرشيد، وازدهرت في عهد المأمون، وأصبح الحصول على مخطوطات جميع العلوم القديمة مرتبطا بسياسة الدولة، ثم تكرر هذا النموذج في تاريخنا السياسي عبر العصور، خاصة في الأندلس. إذن دعوتنا للسياسة العربية القومية في عهدنا المعاصر تعتبر وصلا للجديد بالقديم.

● بوجهة نظرك لماذا الآن شهادة اللغة العربية الدولية ضرورة ملحة؟

- لتأكيد الثقة بأنفسنا وبلغتنا، تطوير اللغة العربية يتأتى بإدخالها إلى دائرة سباق اللغات الكوني، وبإنشاء شهادة دولية لها، وبتوطينها في أجهزة الحاسوب، وفي شبكة المعلومات الدولية. اللغة العربية مؤهلة للمشاركة الدولية؛ بتأصيلها التاريخي، وبإمكاناتها الصوتية والصرفية والنحوية والأسلوبية. ومؤهلة بشخصية الأمة العربية، وبالعدد الكوني الكبير للناطقين بها.

ميدان سباق اللغات الكوني لا يقبل إلا لغة حية بحياة أهلها، عزيزة بعزتهم؛ إذ لا توجد لغة عزيزة لأمة ذليلة. خمسة آلاف كلمة رصيد كاف لتأسيس التطور اللغوي الشامل. وهو قدر محصلة الدارسين لستة الكتب المقررة لست دورات شهادة اللغة العربية الدولية. شهادة اللغة العربية الدولية تمكن الناطق بغير العربية من التواصل مع آفاق الوطن العربي، في بناء المصالح المشتركة. مفتاح النجاح لشهادة اللغة العربية الدولية اعتراف العرب جميعا بها، ومطالبتهم المتعامل معهم من غير العرب بها، حتى يكون الحصول على «ض١» أو «ض٢» المدخل الأساس لعلاقات التعاون.

● نود إلقاء الضوء على المشروع القومي لإنشاء شهادة اللغة العربية الدولية؟

– من مشكلات اللغة العربية المعاصرة عدم وجود شهادة دولية لها؛ شهادة مصممة ومنفذة على الأساس القومي للأمة العربية. ذلك الأساس هو ما يلزم كل العرب في شتى أقطارهم أن يطلبوا من غيرهم الساعين لأفق العلاقات العربية؛ أن يطلبوا منهم الحصول على شهادة اللغة العربية الدولية، وأن يجعلوا هذا الطلب شرطا أوليا لربط العلاقات، والاشتراك في المصالح المختلفة. إنني أرى أن هذا المشروع ضرورة عصرية للدفع بلغتنا الفصيحة المشتركة إلى ميدان السباق الدولي للغات الحية. والأمر في تقديري صنو توطين العربية في نظم الحاسبات الآلية، وشبيه توطينها في شبكة المعلومات الدولية. وإنه علينا نحن العرب أن نبدأ ذلك في مختلف الميادين؛ وفق جدولة نجعل فاتحتها تصميم شهادة اللغة العربية الدولية وتنفيذها. إننا في هذا الأمر لسنا بدعا؛ فكل الأمم الحية المعاصرة تعنى بشهادة عالمية للغتها؛ ومن الأمثلة غير الحصرية: (IELTS) و(C.L.C) عند الإنجليز، و(TOEFL) عند الأميركان، و(DELF) و(DALF) عند الفرنسيين، و(TÖMER) عند الأتراك.

● ما هو الشكل المقترح لمشروع شهادة اللغة العربية الدولية؟

– الخطة التنفيذية الخاصة بتنزيل مشروع شهادة اللغة العربية الدولية للواقع العملي: تصميم ست دورات دراسية، مدتها اثنان وعشرون شهرا، مسلسلة وفق النظام المنهجي المتتابع؛ ينتقل الدارس على أساسه من الصوت العربي مخرجا وصفة، إلى المعجم العربي ثروة وذخيرة، إلى النص العربي حفظا وفهما وتذوقا ومزاجا، إلى البحث العلمي الأولي والمتوسط والمتقدم، باللغة العربية الصحيحة الفصيحة المشتركة، تأليف ستة كتب دراسية تشتمل على أساس المادة المطلوبة لامتحان شهادة اللغة العربية الدولية، وذلك وفق المنهج المقرر لكل دورة من ست دورات: الدورة الابتدائية الأولى، الثانية ثم الدورة المتوسطة الأولى، الثانية ثم الدورة المتقدمة الأولى، الثانية. وهناك تصميم ورقي وإلكتروني لامتحان شهادة اللغة العربية الدولية؛ «ض١» و«ض٢».

● ولكن من هم المستهدفون بهذه الشهادة؟

– المتعاملون مع الدول العربية، في المجالات غير العلمية، من الناطقين بغير العربية؛ مستهدفون بشهادة اللغة العربية الدولية العامة «ض١»، المتعاملون مع الدول العربية، في المجالات العلمية، من الناطقين بغير العربية؛ مستهدفون بشهادة اللغة العربية الدولية المتقدمة «ض٢». والجهة المصدرة للشهادة: تصدر شهادة اللغة العربية الدولية عن اتحاد المجامع العربية، وتوقع من رئيسه، وتوثق من جامعة الدول العربية، ومن وزارات الخارجية بكل أقطار الوطن العربي.

● ومن المنوط به وضع مقرر الشهادة، تصميم المنهج، وتأليف الكتب؟

– تؤلف الكتب المقررة الستة للدورات الستة باتحاد المجامع العربية. ولاتحاد المجامع أن يستعين في التصميم والتنفيذ بالمؤسسات التعليمية العربية المختصة بالشأن، مثل: معهد الخرطوم الدولي للغة العربية، ومعهد اللغة العربية بجامعة الملك سعود بالرياض، والمجلس الأعلى للغة العربية بالجزائر، والمجلس الدولي للغة العربية ببيروت، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، والمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ووزارات التعليم بالوطن العربي. ومن المعروف أن تأليف الكتب الدراسية يؤسس على التوصيف المنهجي للمقرر، وهو أمر – وفق هذه الخطة – منوط باتحاد المجامع العربية.

● وما هي توصياتك بخصوص خروج المشروع للنور؟

– الاستعانة في الأمر بالمؤسسات العربية المتخصصة؛ مثل: معهد الخرطوم الدولي للغة العربية، ومعهد اللغة العربية بجامعة الملك سعود بالرياض، أن يعنى اتحاد المجامع العربية بالتخطيط والتنفيذ لشهادة اللغة العربية الدولية على أساس المشروع القومي الجامع، وعلى أساس اللغة العربية الصحيحة الفصيحة المشتركة بين أقطار الوطن العربي، وأن تفتح جامعة الدول العربية نافذة في مقرها الرئيس بالقاهرة؛ لاعتماد شهادة اللغة العربية الدولية وتوثيقها، وعمل الترتيبات اللازمة لاعتراف كل دول الوطن العربي بها، أيضا لوزراء الخارجية العرب دور بأن يفتحوا نوافذ في وزاراتهم؛ لاعتماد شهادة اللغة العربية الدولية وتوثيقها، وتنظم دورا رساليا للسفارات العربية بالخارج؛ بحيث يكون في كل سفارة مركز لامتحان شهادة اللغة العربية الدولية، ومعهد لتعليم العربية لغير العرب، ومكتبة عربية ورقية وإلكترونية.

الله كريم

مياسة النخلاني
قاصة يمنية

بعد يوم شاق قضاه هاني في عمله، ودع زملاءه وأوشك أن يأخذ طريق العودة إلى البيت، ليحصل أخيرا على وجبة غداء ساخنة، قضت زوجته جزءا من يومها تعدها له، «أبي لا تنس القطار!» رن صدى صوت طفله أحمد المتوسل تدللا في جوانب قلبه وهو يكرر طلبه للحصول على لعبته التي وعده بشرائها منذ أيام، لا يكف عن تذكيره كل صباح بوعده الذي يؤجله رغما عنه؛ تارة بسبب الانشغال، وتارة أخرى بسبب ضيق ذات اليد، حتى أشفق على نفسه أخيرا من نظرات الخيبة التي يلهبه بها صغيره كلما رآه عائدا خالي الوفاض، رغم أن معدته تصرخ من الجوع، والإنهاك يستبد بكل خلية من خلايا جسده، لكنه غير الطريق مقررا ألا يحرم ابنه من لحظات من السعادة تلامس جدران قلبه الصغير، لن يخذل ابنه أكثر مما خذله، خاصة أن أبناء أخيه، ميسور الحال، تلبى أمنياتهم من قبل حتى أن يطلبوها، ويعجز عن تحمل شعور ابنه بالقهر أمام رفاهيتهم التي يلمسها كلما تبادلوا الزيارات، تفقد محفظته وحمد الله أن ما بها كفيل بشراء القطار.

توسل معدته أن تصبر عليه لبعض الوقت، ووقف تحت أشعة الشمس الحارقة ينتظر الحافلة لتأخذه إلى السوق مبللا ريقه الجاف بلسانه الأكثر جفافا، وبينما هو كذلك تسلل صوت طفولي إلى أذنيه: «أرجوك ساعدني» لم يكن صدى صوت ابنه المنبعث من جنبات قلبه، بل صوتا آخر لا يقل رقة، التفت إلى مصدر الصوت فوقعت عيناه على طفل لا يتجاوز السابعة من عمره، حافي القدمين تنطق عيناه بنظرات الاستعطاف والتذلل، وهو يشير بيديه نحو فمه طلبا للطعام: «الله كريم!» قالها وعاد ليتابع الحافلات المكتظة التي تمر من أمامه محاولا العثور على واحدة خالية، كرر الطفل النداء دون جدوى، فبين معدة مشغولة بالطعام الذي لم تذقه منذ ساعات الصباح الأولى، وقلب مشغول بتخيل فرحة ابنه بقطاره لم ينتبه هاني أن الطفل أطال الوقوف بجانبه لوقت ليس بالقصير، أفاق أخيرا من شروده وبدأت صورة الصغير بحالته الرثة تتضح أكثر في مخيلته، لابد وأنه قد طاف على قدميه طويلا وتعرض للخذلان من الكثيرين، وهاهو يتجاهله بكل قسوة غير عابئ بجوعه ويده الممدودة له بانكسار!! باخلا عليه ببعض القروش التي ستشكل له فارقا كبيرا، ومعطيا جل اهتمامه لحصول ابنه على لعبة سيمل منها سريعا ويرميها في أحد أركان البيت بعد بضعة أيام.

تجاهل الحافلة التي توقفت له أخيرا، وتلفت حوله وكله أمل ألا يكون الطفل قد ابتعد كثيرا، وجده أخيرا مستندا على الواجهة الزجاجية للمطعم القريب، يراقب الجالسين على الموائد العامرة بقلب ينفطر كمدا، لوهلة شعر أنه ينظر لابنه أحمد وهو يقف محله، يستجدي لقمة لم تعرف طريقها إلى معدته.. ربما منذ أيام، دون أن يرأف لقلبه أحد، دارت به الأرض وكاد أن يقع من شدة الهلع من مجرد التخيل، تقدم بخطوات مترنحة نحو الصغير، نفحه بعض المال على استحياء ثم مضى ونظرة الامتنان التي ارتسمت على عينيه لا تفارق مخيلته..

اشترى لابنه لعبته التي يريدها وعاد للبيت، استقبل حضنه الصغير وسعادته البالغة بابتسامة باهتة، دخل غرفته دون أن يتناول طعامه وقلبه يرزح تحت وطأة الشعور بالذنب والخجل من نفسه أن تجاهل صغيرا أطال الوقوف بجانبه دون أن يرق له قلبه، انشغل بسعادة طفله عن إدخال البهجة لقلب طفل آخر بإعطائه بعض الاهتمام الذي يستحقه، والذي لن يكلفه الكثير، متمنيا من أعماق قلبه أن يلتقيه مرة أخرى ليعوضه بوجبة طعام سيتناولانها معا في المطعم ذاته.

حين تحب الناس جميعا

نجاح عبدالقادر سرور
شاعر مصري

حين تحب الناس جميعا
تشعر أنك مثل طيور!
طافت بالبيت المعمور!
حين تحب الناس جميعا
تشعر أن فؤادك نور!
عقلك نور!
بدد آفاق الديجور!
يشرق فينا مثل الشمس!
يفتح أبواب الفردوس!
يصعد في ملكوت الله
حول العرش يدور يدور
حين تحب الناس جميعا

****

حين تحب الناس جميعا
تشعر أنك عفو.. رحمة!
فجر.. نسمة!
طفل.. بسمة!
نفحات المسك المنثور!
تشعر أنك محض سلام!
محض فضاء!
ازدحمت فيه الأحلام!
نهر منساب رقراق!
خضر للناس الأيام!
جعل جميع العام ربيعا!
حين تحب الناس جميعا

****

حين تحب الناس جميعا
تشعر أنك محض وضوء!
محض صلاة!
قد باركها حب الله!
تشعر أنك نهر صيام!
نجم قيام!
أو أنك حج مبرور!
حين تحب الناس جميعا

حين تحب الناس جميعا
تشعر أنك طيب هواء
أو أنك بركات الماء
يشتاقك كل الأحياء
كجنين في رحم الكون!
عانق كل الكون جميعا!
حين تحب الناس جميعا

****

حين تحب الناس جميعا
تشعر أنك شمس أمان
أو أنك صفحة قرآن
رتلها نهر الريان!
نزلت كانت طوق نجاة
لحيارى في أرض الله!
تشعر أنك مثل سحاب
يهمي حبا بعد غياب
تشعر أن خطاك زروع
ولسانك قدس وخشوع
تملأ هذا الكون حبورْ
حين تحب الناس جميعا

****

حبن تحب الناس جميعا
تشعر أن الطير قريب!
تشعر أن الصخر حبيب!
والسر المكنون يجيب!
تشعر أنك روح وجود
امتدت من غير حدود
وارتادت عبر الآفاق
صارت في الآفاق عطور!
حين تحب الناس جميعا

****

حين تحب الناس جميعا
تمضي في ثقة لله
يجعلك الرحمن حياة
كدعاء في قلب الحور!
تشعر أن فؤادك نور!
عقلك نور!
حبك نور!
يشرق فينا مثل الشمس!
يفتح أبواب الفردوس!
يصعد في ملكوت الله.
حول العرش يدور يدور
حين تحب الناس جميعا

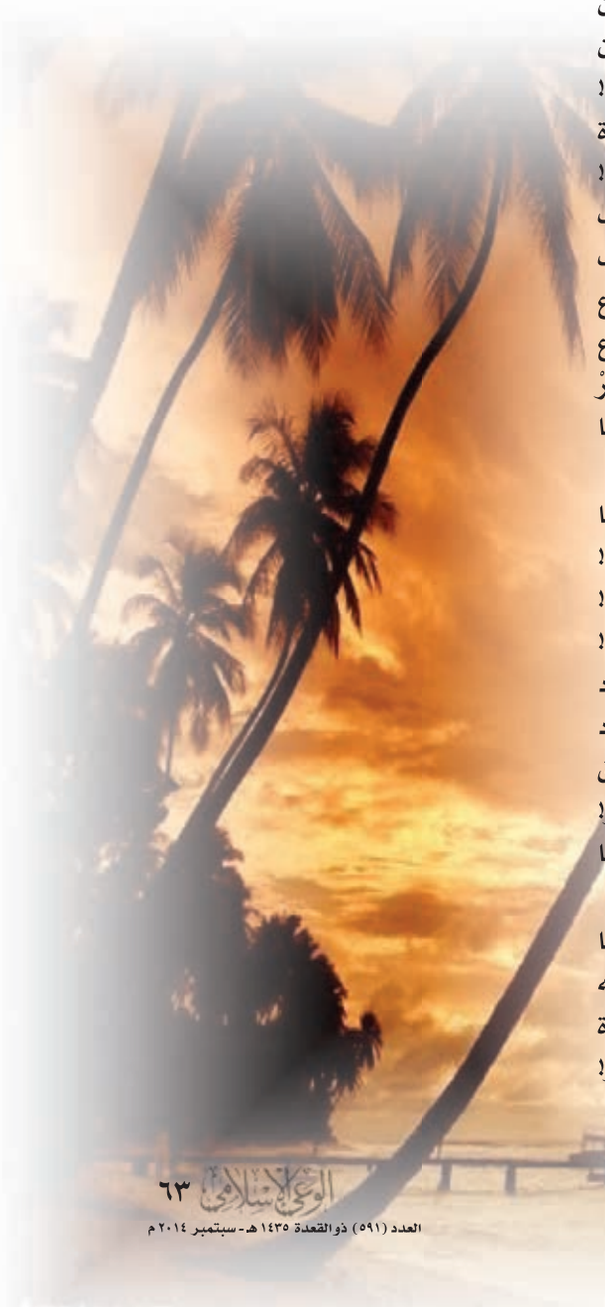

رؤى مغربية جريئة في مسألة التعريب

محمد سعيد صمدي
كاتب مغربي

يكاد يتحقق الإجماع في كل المنتديات والمناظرات الوطنية واللقاءات العامة والاجتماعات الخاصة، على خطورة إشكالية الازدواجية اللغوية الحاصلة في النظام التربوي المغربي؛ خاصة في تدريس المواد العلمية بين الثانوي والتعليم العالي. وتتقاسم الشكاوى والاختلالات الأطراف المتدخلة في العملية التعليمية بشكل كبير على مستوى المخرجات والنتائج المحصلة. ويبقى الطالب المغربي في معاناة أكبر أمام التعلم والاكتساب في السلك الثانوي بلسان أمته ووطنه، وفي الجامعي (كليات معاهد مدارس...) يتلقى العلوم الدقيقة بلسان فرنسي، خاصة أن حض امتلاكه في التواصل الشفهي أو المكتوب لا يرقى بتاتا أن يكون مصدر تعلم تخصصي يؤهله للتوفق والتفوق والنجاح في التقويمات الإشهادية المتخصصة. بل إن الكثير من أبنائنا في هذه المرحلة من التعلم التخصصي يهربون وينتقلون داخل بلادهم، أرادوا أم لم يريدوا، إلى الانخراط في اللسان الفرنسي وليس حتى الإنجليزي تعلما وبحثا وفكرا وتواصلا وتخلقا، مما يتماهى ويؤثر حتما في كل جوانب الحياة عندهم؛ فلا يكون حض العربية إلا التجلي التواصلي العامي اليومي فحسب.

وهذه بعض مؤشرات خطيرة ترهن مستقبل الناشئة في اغتراب وطني حقيقي، وقد بدأت بعض تجليات الاغتراب اللغوي داخل الوطن تبرز من خلال بعض النخب المسيرة لدواليب الشأن العام المغربي.

هوية اللغة ولغة الهوية

يعتبر كل نسق لغوي موحد لجماعة بشرية تعيش في نقطة من هذا الكون الفسيح، حقا هوياتيا يمثل مؤسسة لغوية اجتماعية متعددة الأبعاد؛ حضارية تاريخية سياسية، مختصة بفئة ما، أقلية كانت أو أغلبية تمثل أمة أو جنسا معينا (فرس، أمازيغ، أوردو، عبرية، كرد...). وتكتسب لغة ما هويتها من تواضع وتوافق الناطقين بأصوات دوالها على حقائق المدلولات وتوافقهم على تراكيبها ونبراتها وإيقاعاتها... وبمقتضى هذا التوافق والتداول يكتسب هذا اللسان أو ذاك حقه في الوجود وعدم الإقصاء، داخل لغة الأمة الموحدة. يمكن في هذا السياق استحضار نموذج الإمبراطورية الصينية التي تهيمن فيها اللغة الصينية في كل أصقاع أراضيها كلغة التواصل الإداري والإعلامي، بجوار اللغات واللهجات المحلية كحقوق لغوية للأقليات التي تشكل أغلبية في مناطق مختلفة كالإيغور والتركمان للساكنة المسلمة بغرب الصين مثلا.

وكلما بدا نزوع إلى اجتثاث هوية اللغة ولغة الهوية توقد فتيل المقاومة واشتعل لهيب الصمود وإثبات الوجود، وهذا ما ظهر جليا مثلا مع الحقوق اللغوية للألبان حينما مارس عليهم ميلوسوفيتش، أواخر الثمانينيات، إرهابا صربيا مقيتا، يقول أحد الباحثين الغربيين Lee M: «في أبريل ١٩٨٩ شرعت صربيا في إحداث تغييرات في السياسة اللغوية بكوسوفو. وهي سياسات جديدة ألغت استخدام اللغة الألبانية في الحكومة والمحاكم، وبدأ التطهير في ميدان التعليم، فأعلن المسؤولون الحكوميون عن إعفاء مئات الألبانيين من مناصبهم كإداريين وأساتذة جامعة ومدراء مدارس ومدرسين، وحل الصرب محل الألبانيين في نقابات العمال والوظائف الإدارية في الإقليم كله... يجب على ميلوسوفيتش أن يواجه المقاومة الحتمية، التي ستبديها القوميات الأخرى، بمزيد من الإجراءات القمعية».

إن كل مقاربة اجتثاثية تريد تبويء حق لغوي يملك أسباب الهيمنة والتمكين على حساب حق لغوي أصيل، لن تحقق أهدافها إلا على قدر يسير من زمن التحكم والسلطان، ولن يكتب لها الحضور ولا الصمود أمام العمق اللغوي

المتجذر في كيان الإنسان المغتصب.
والعربية في تاريخها الطويل لم تقاوم لغة قوم أو لهجة جماعة، بل إن التسامح الذي أبداه الناطقون بها والمحتضنون لها مثل قمة في السلم والتعايش اللغويين. ثم إن اللغة العربية، إلى جانب قداسة لغة الوحي الإلهي، ارتوت ماء وحياة متجددة في انفتاحها وتأثرها إلى جانب تأثيرها ولم تحجر على نفسها منع دخول مفردة أعجمية إلى نسقها؛ مطوعة وفق أبنيتها وقواعدها الصوتية؛ والقرآن الكريم فيه نماذج من المعرب الذي استوعبه الخطاب القرآني المبين.
يقول المرحوم الشيخ صبحي الصالح: «العربية ليست بدعا من اللغات الإنسانية، فهي جميعا تتبادل التأثر والتأثير... متى تجاورت أو اتصل بعضها ببعض على أي وجه، وبأي سبب، ولأي غاية. ومن يرم العربية مقصورةً على الإعراب محبوسة عن التعريب، ويزعم أيضا أنها بصيغها وأنواع اشتقاقها وحدها أعربت عن خصائصها الذاتية، وأنها إن أدخلت على نفسها بالتعريب مصطلحات الحضارة شوهت محاسنها وفقدت خصائصها وأنكرت نفسها بنفسها، فليس يريد لهذه العربية إلا الموت، وليس يعيش بعربيته إلا في بروج من العاج بناها له خياله السقيم».
والعربية من أمهات اللغات التي تمتلك هوية وكيانا عصيين على الإقصاء والمحو أو على الأقل التضييق والمزاحمة، بما تضطلع به من مقومات الحياة؛ التحدي والتجدد والتطوير والمواكبة. وأي تخطيط للسياسة اللغوية ببلادنا يرمي إلى تحييد مكانة هذه اللغة، مآله سوء تدبير وخيبة أمل وفشل في التقويم والنتائج. والسؤال الذي يطرح نفسه بكل جرأة هو: أحقا لا تستطيع اللغة العربية استيعاب مفاهيم ومعاجم العلوم البحتة، حتى يحرم أبناؤها من التعلم والتكوين بها؟ أو على الأقل بازدواجية لغوية، كما هو الحال في بعض الدول العربية الرائدة

التعريب يرتبط بالنهضة ومواكبة العصر

على مستوى نظام التربية والتكوين؟
إن أعقد اللغات تركيبا ونطقا ورسما هي اللغات الآسيوية، ومع ذلك يلحظ المتتبع للشأن اللغوي حضورها في الأنظمة التربوية بمختلف أسلاكها إلى جانب اللغة الإنجليزية، باعتبارها اللغة العلمية الأولى، وليس الفرنسية. بل يلحظ أيضا أن كل وسائل التقانة والحواسيب معبأة بشفرات ورموز اللسان القومي أولا، ثم الإنجليزي ثانيا، ولا فرق في هذا الشأن عندهم بين الدولة المتخلفة والمتقدمة.

هل من جرأة على التعريب؟

للإجابة عن هذا السؤال نؤثر أن نورد هنا بعض الأصوات المغربية التي أرقها تمزق الحقل اللغوي وفرض لغة الأجنبي في المنهاج التعليمي والتكويني بالتعليم العالي ببلادنا، وزاد من تعميق الإشكال التضييق على فرص الترجمة والتعريب ودعم المؤسسات والأفراد بهذا الخصوص. وهي مشاركات وأصوات لدارسين ومختصين أغنوا النقاش، وأثثوا بإسهاماتهم الفكرية الرزينة حقل البحث والتنظير في الشأن اللغوي.

● الأستاذ مصطفى محسن

بدوره الأستاذ الباحث مصطفى محسن، المعتني بالتنظير للشأن التربوي وقيم التنمية والجودة في التعليم، يؤكد على الضرورة الحضارية لقضية التعريب، خاصة أن راهن المنظومة يزداد سوءا وترديا على مستوى نتائج الروائز والاختبارات الدولية التي يشارك فيها المغرب، يقول الدكتور مصطفى محسن أمد الله في عمره: «لقد أصبحت إشكالية التعريب في المغرب، كما في الوطن العربي بشكل عام، من بين أبرز الإشكالات وأخطرها وأكثرها تداولا، ولاسيما في الظرفية الراهنة التي تجتازها مجتمعاتنا الثالثية، والتي تأكد فيها بالملموس، وعبر التجارب الكونية المتعددة، أن المقومات الخصوصية لمجتمع ما ومن بين أهمها اللغة تعد الدعامة الأساسية لكل تنمية شاملة ومستديمة».
وفي أفق اتخاذ النخب المتحكمة قرار الحكمة والجرأة تجاه الوطنية الحقة والحسم لصالح التعريب؛ يظل المشهد يراوح لقطته المسرحية المعنونة بـ «الكراكيز والأيادي الخلفية». لنتأمل تشخيص مصطفى محسن لمقطع الحكاية: «ففي الوقت الذي ما تزال فيه بعض هذه النخب متشبثة بضرورة الحفاظ على الهوية الذاتية الوطنية والقومية، في الوقت الذي تتشبث فيه أيضا بلغة المستعمر وثقافته، التي تشكل سواء على مستوى وعيها أو لاوعيها نموذج التقدم والتحضر، ولعل في وضعية هذا التناقض الوجداني الغريب ما يفسر بعض سلوكات وممارسات أفراد هذه النخب. وعلى سبيل تقديم بعض الأمثلة المعبرة فقط؛ نجد العديد من الرموز الثقافية والسياسية في المغرب المعاصر ممن ينادي بالتعريب ويتحمس له على مستوى الخطاب، بينما يلجأ، على مستوى الممارسة، إلى إرسال أبنائه إلى مدارس البعثات الأجنبية والفرنسية منها بشكل خاص، والتي يعتبر تعليمها رمزا للتحضر وجسر عبور للترقي المهني والاجتماعي».
وبعد فحص دقيق للآلة المتحكمة في التخطيط والتدبير للشأن اللغوي/الثقافي ببلادنا، يستخلص مصطفى محسن الاستشراف الذي يحمل مؤشرات بئيسة للمسألة المبحوثة: «إن مشكلات التربية والتعليم والثقافة، ومن ضمنها مشكلة التعريب، ستظل، حسب هذا الاستنتاج، معلقة بدون حل جذري

فعال، وعرضة باستمرار للتخبط والارتجال والحلول التوفيقية، بل التلفيقية، التي لا تؤدي إلى ما ينتظر منها من نتائج، والتي غالبا ما يتم التراجع عنها لإعادة التجربة من جديد، بكل ما يتطلبه ويستتبعه ذلك من كلفة مادية ومعنوية، ومن هدر لا مبرر له، ومن إحساس شعبي عام بأقصى مشاعر الإحباط وخيبة الأمل تجاه هذه التجارب الفاشلة، إحساس لا يوازيه سوى فقدان الأمل في تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية ذاتها.

وتبقى القناعة الأساسية التي يؤمن بها هذا الخبير التربوي هي أن التاريخ أثبت أن التنمية لن تستتبت في حلتها الطبيعية، إلا على بساط لغتها الوطنية، لا بـ«وساطة» لغوية أجنبية، خاصة وأن التعريب المنفتح والتفتح يعني إزاحة الوكالة والنيابة في مباشرة العلم والتكنولوجيا ومستحدثات وقضايا المجتمع.

• الأستاذ عبدالقادر الفاسي الفهري

يعد الأستاذ الفاسي الفهري من ألمع الباحثين المتخصصين في تحليل وتفكيك الدرس اللساني وقضايا التعريب واللغة، وتشهد كتاباته وأبحاثه على الدقة والعمق والأصالة والانفتاح. ويؤكد الباحث في حوار مطول معه أجرته مجلة «آفاق» أن اللغة العربية لم تكن لغة «علمية» إلا بعد مجيء الإسلام بلسان عربي مبين، يقول: «ومن المعلوم أن الناس دخلوا في الإسلام بموروثهم وبحمولاتهم الثقافية. وهم الذين نقلوا علومهم إلى العربية، فصارت اللغة العربية هي اللغة العلمية...، ويضيف ولكن التعريب الحقيقي هو الذي جاء عن طريق العلم، وعن طريق الممارسة العلمية للمسلمين أكثر من العرب، وحتى في شأن العناية باللغة العربية، لم تكن عناية العرب بها، تاريخيا، هي الأبرز. إن الذين عنوا بالعربية أكثر، وهو أمر معروف إذا ذكرنا الأسماء، هي الشعوب الإسلامية، حتى بين المغاربة. لقد اعتنى الأمازيغيون باللغة العربية وشغفوا بها أكثر مما اعتنى بها (العروبيون)...»

على مستوى استراتيجية تدبير حل مناسب لإشكال فرض «الفرنسة» كلغة للتعلم في التعليم العلمي العالي ببلادنا، يتحدث الدكتور الفاسي الفهري عن توجهات الميثاق الوطني للتربية والتكوين بشأن وضع اللغة الوطنية، وتصريف التعدد اللغوي في المنظومة، باعتباره شارك في نقاشاته وصياغته، ويتساءل بعد عشر سنوات على أجرأة الميثاق وتفعيله وبجرأة نادرة وخطاب صريح شفاف، عن مصير هذا التعاقد والتوافق الوطنيين، وأشارك معي قارئي الكريم في هذه المكاشفة/ الموثقة، التي يقول فيها: «إن الميثاق صودق عليه، وهو وثيقة مرجعية مهمة وتاريخية، ولكن عندما نريد تطبيقه نطبق ما نريد ونترك ما نريد. فقد ركزنا على أنه شمولي ووقعت عليه توافقات. فهو وثيقة تاريخية ووثيقة التوافقات السياسية والنقابية والخبراء أيضا، ووضعنا هذه الوثيقة، وفيه اختيارات لغوية. بالنسبة لعلاقة الثانوي بالتعليم العالي، اقترحنا في الميثاق بالواضح أن هناك تعليما أساسيا موحدا، وما فوق الأساسي يعطى للتلميذ الاختيار بحسب التوجيه، على أن تكون له القدرة على ذلك، أي الاختيار بين أن يدرس باللغة العربية أو اللغة الأجنبية. الميثاق يتحدث عن لغتين أجنبيتين، وليس لغة واحدة... فإذا اختار التلميذ الدراسة بالعربية، فليس لأحد الحق في حرمانه من ذلك بدعوى أنها غير صالحة، أو شيء من هذا القبيل. وكذلك إذا أراد أن تتاح له الفرص بلغة أخرى، يجب أن نترك له الاختيار،... وهذه الحلول موجودة ولكن لم نطبقها، إذن إذا دخلنا في نقاش آخر ووصلنا إلى نتيجة جديدة، ثم لم نطبقها فلماذا يصلح النقاش؟!».

وفي مساق آخر حرر بحثا نفيسا وسمه بـ «الإصلاح التربوي ولغات التدريس» أكد فيه على حقوق الطالب المغربي اللغوية، وهو الذي أطلق نعتا متميزا لهذه الحقوق اللغوية، فنعتها بالتعدد المغني لا المفقر، تعدد الإغناء والإثراء والتكامل، لا حضور فيه للإقصاء والمزاحمة وتنافر الوظائف. وبناء على هذا التصور، يقول الدكتور الفاسي الفهري: «فإننا لا نستسيغ تغييب تاريخنا ومعارفنا وثقافتنا في تعليمنا، بدعوى التقدم والرقي. فما معنى أن يجهل الطبيب أو الفيزيائي أو المهندس أو غيره من العلماء المغاربة أسماء عربية ومسلمة كثيرة، ونصوصها التي أثرت في التاريخ العلمي العالمي والتقانة والهندسة، من أمثال الرازي والبيروني والخوارزمي وابن سينا وابن رشد وابن ماسويه وحنين بن إسحاق والخيام والسموأل المغربي وابن خلدون وغيرهم كثير، وما ألفوه في الهندسة المدنية وتقنيات الري وجر المياه أو رفعها والسدود والجسور والطاقة المتولدة من الماء والريح ورياضيات الجبر والهندسة والحساب وعلوم البحار... الخ؟ ألا يجدر بالباحث المغربي ويحق له أن يطلع على هذه النصوص الباهرة؟»، ومازال الفاسي الفهري يشتغل على عدة واجهات بحثية ومحاضرات ترصد قضايا اللغة والتنمية الشاملة ببلادنا، غير آبه بتحديات الإقصاء والمزاحمة في زمن غربة العربية بحماها وديارها.

لغة الجسد في القرآن الكريم!

الكتاب العزيز أشار إليها قبل الغربيين

صلاح حسن رشيد
باحث مصري

يعد الاتصال من أهم سمات هذا العصر الذي نعيشه؛ فقد شهد ثورة معرفية كبرى في مجالات الاتصال، والتواصل؛ فتعددت وسائله، وأنواعه؛ لكن الملاحظ أنه يبقى ناقصا؛ لافتقاده لعناصر أخرى من وسائل التواصل المهمة، التي لها أكبر الأثر في إحداث الاستجابة، والتأثير، ويأتي على رأس هذه الوسائل الفاعلة؛ التواصل المرئي (غير المنطوق)؛ بأنواعه المختلفة، وصنوفه المتعددة.

وفي هذا الإطار؛ توصلت أطروحة علمية حديثة بجامعة النجاح بفلسطين، تقدم بها الباحث الفلسطيني/ أسامة جميل ربايعة إلى أن: اللغة وحدها لا تكفي – برغم أهميتها ودورها الرئيس – لإيصال المعرفة بشكلها الصحيح؛ وإنما يلزمها تواصل بصري؛ فهو القادر على إيصال العواطف، والانفعالات التي تغني هذه المعرفة، وتجعلها ذات معنى أكبر؛ فحركات الجسد التواصلية (لغة الجسد) ذات أهمية في التواصل البشري، وفي إيجاد تأثير عميق في الآخرين. ولذلك اهتم علماء النفس، والتربية، والاجتماع، والاتصال بهذا الموضوع المحوري؛ فكثرت الدراسات، والبحوث حوله؛ بصورة لافتة في الآونة الأخيرة.

وبرغم وجود بعض الدراسات حول أثر العلاقة بين لغة الجسد، والتواصل في كتاب الله العزيز، وفي السنة المطهرة؛ فإنها قليلة، وجاءت مبتسرة، وغير كافية، ولا مستوعبة لجوانب هذا الموضوع المديد، الذي أفرد له القرآن الكريم مساحات كبرى، وإشارات عظمى، وتنويعات لا حد لها، وسياقات ذات صلة؛ أتت جميعها لإيصال رسالة المولى عزوجل للمخاطبين، في كل العصور، والأمكنة! كما أن كلام سيد الأنبياء والمرسلين ﷺ حمل دلالات عظيمة، وتوجيهات حميدة عبر وسائل لغة الجسد، وهي تحتاج إلى باحث جاد يعكف عليها؛ لإخراج دراسة متعمقة فيها.

أهمية الدراسة

يقول الباحث أسامة ربايعة: «وتكمن أهمية هذه الدراسة البكر؛ في كونها نواة لموضوع بحثي لم يتناوله إلا القليل من الكتاب، بشكل جزئي! وللإسهام في إثراء المكتبة القرآنية؛ بإطار نظري يتعلق بموضوع لغة الجسد في الكتاب الحكيم. ووضع إطار تصنيفي لإشارات لغة الجسد، ومدلولاتها، ومدى تأثيرها في الآخرين؛ لتشجيع الدعاة، والتربويين على توظيف هذه اللغة؛ لإيصال أفكارهم إلى الناس بطريقة أسهل، وأيسر، وعاطفة أكبر. وهناك الرغبة القوية في بيان موضوع لغة الجسد، كأسلوب قرآني فريد، ومتميز؛ قلما التفت إليه الدارسون في الإعلام، والاتصال، وعلوم الإنسان! والتأصيل لقضية؛ أن الاتصال الصامت (لغة الجسد) يوازي في الأهمية، والتأثير، والهدف الاتصال الناطق؛ إن لم يزد عليه!

قسم المؤلف الدراسة إلى مقدمة وستة فصول، تناولت: الفصل الأول: لغة الجسد؛ مفهومها ودلالاتها في السياق القرآني. وفي الفصل الثاني: لغة الجسد ودورها في الاتصال الإنساني. وفي الفصل الثالث: لغة العيون في القرآن الكريم (العين ودلالاتها، والبصر ودلالاته، والنظر ودلالاته، والهمز، واللمز، والغمز). وفي الفصل الرابع: لغة الوجه، وملامحه في القرآن الكريم؛ من خلال؛ وجوه السعداء، والأشقياء في الآخرة، والدلالات المتعلقة بوجوه أهل الدنيا.

الفصل الخامس؛ لغة الإشارات، وحركات الأعضاء: عن طريق لغة الجسد في حركات؛ اليد، والأصابع، والرأس، والأرجل. الفصل السادس؛ لغة الجسد في الهيئة، وأوضاع الجسم؛ من خلال: القيام، والوقوف، والقعود، والاستلقاء، والنوم، والمشي، والسير، والجري، وغيرها من الحركات، والإيماءات، والرموز.

فالناظر، والمتأمل في كتاب الله يدرك بكل وضوح استخدام القرآن الكريم الكثير من المصطلحات الدالة على لغة الجسد؛ وفي هذا الصدد يقول د. مهدي عرار في كتابه «البيان بلا لسان»: «يلقى القارئ في التنزيل العزيز آيات كريمات على أوصاف من الحركات الجسدية المؤدية إلى معان، وقد تكون تلك الحركة سبيلا من سبل وصف المعنى، وتشكيله، ويكون سبيلها الكناية؛ كتقليب الكفين، في مقام الندم، أو تقديم رجل، وتأخير أخرى في مقام الحيرة، والتردد في كلامنا اليومي».

ومن الآيات التي أشارت إلى هذا الموضوع، قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ (مريم:٢٩). قال الإمام أبوالفرج ابن الجوزي في كتابه «زاد المسير في علم التفسير» تعليقا على هذه الآية الكريمة: «﴿فَأَشَارَتْ﴾ أي: فأومأت إليه، أي: إلى عيسى؛ فتكلم. وقيل المعنى: أشارت إليه أن كلموه».

في حين قال الإمام أبوالفضل محمود الآلوسي في كتابه «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني»: «قال شيخ الإسلام؛ والظاهر: أنها بينت حينئذ نذرها؛ وأنها بمعزل من محاورة الإنس حسبما أمرت؛ ففيه دلالة على أن المأمور به بيان نذرها؛ بالإشارة، لا بالعبارة»! وقد دلت إشارة السيدة/ مريم –عليها السلام– على ما يؤديه الكلام من معان! لذلك فهم قومها منها؛ أنها تطلب منهم أن يكلموا عيسى عليه السلام؛ لذلك قالوا لها متعجبين: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾

إذن؛ فقد مثلت الإشارة نوعا من الاتصال عن طريق لغة الجسد؛ وهذا دليل على وجود التواصل دون كلام، وعلى سبق القرآن الكريم للغرب في هذا العلم بقرون عديدة؛ كما يقول الباحث.

ومن الآيات الكريمات التي تناولت لغة الجسد؛ قوله عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ (آل عمران:٤١). قال الإمام

الزمخشري في كتابه «الكشاف»: «في معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ إلا إشارة بيد، أو رأس، أو غيرهما، وأصله التحرك». في حين قال الإمام البغوي في تفسيره «معالم التنزيل»: «والإشارة قد تكون باللسان، وبالعين، وباليد».

أثر القرآن الكريم في لغة الجسد

وعن أثر القرآن الفريد في إثراء وإغناء موضوع لغة الجسد بالمذخور القرآني القشيب؛ يقول د. محمد الأمين في كتابه «الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم»: «إن القرآن الكريم؛ يغني هذا العلم بالعديد من المفاهيم، والمواضيع التي تستحق الدراسة، ويزوده بأمثلة، لا يمكن جمعها من خلال أبحاثهم الميدانية»! ويقول أيضا: «تبين أن القرآن الكريم حافل بالأمثلة الكفيلة؛ بإثبات أن قناة الاتصال غير اللفظي؛ يمكن فهمها من خلال القرآن الكريم؛ بمعزل عن الدراسة الحديثة»! يقصد الدراسات الغربية، وغيرها التي أفردت لهذا العلم مجالات، ومساحات، وطرائق؛ ومن ثم؛ فلم تلتفت للغة الجسد الفاعلة، والمتحاورة، والإيجابية، والمؤثرة في الكتاب المهيمن، واستخراج المضامين المهمة، والمعاني الجديدة، والآثار النفسية، والتربوية، والاجتماعية غير المطروقة من قبل.

بل إن الدكتور الأمين زاد؛ فقال عن الإضافة القرآنية لهذا العلم الجديد: «وفي بعض الأحيان؛ يزودنا القرآن الكريم بنواة لمعجم عن مفردات قناة اتصالية غير لفظية بعينها»!

ولهذا قال الباحث: ويتضح مما سبق أن القرآن الكريم مرجع أساسي لهذا الموضوع؛ قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ (الأنعام:٣٨)؛ وعليه سيأتي يوم يكون فيه هذا الفن؛ بكل مفرداته، ودلالاتها خاضعا للمعاني القرآنية العظيمة..

وحسب دراسة أنجزها المركز القومي المصري للبحوث الجنائية والاجتماعية؛ فإن: «تأثير الكلمة في الحوار يساوي نحو ٧ في المائة، وأن نبرة الصوت لها تأثير يساوي نحو ٣٨ في المائة، بينما تصل نسبة تأثير الحركات، والإشارات إلى نحو ٥٥ في المائة»!

وعن أهمية هذا العلم؛ يقول د.محمد بني يونس في كتابه «سيكولوجيا الواقعية والانفعالات»: «ولغة الجسد من الوسائل التي تحقق الكثير من التجاوب بين الناس؛ وهي أقوى بخمس مرات، من ذلك التأثير الذي تتركه الكلمات! فقد أثبتت الدراسات الحديثة؛ أن ما يقارب من نحو ٥٥ في المائة من الأهداف التي يطمح المرسل إلى تحقيقها، يصل إليها عن طريق الإيماءات، والحركات، بينما تحقق باقي العناصر النسبة المتبقية، أي ٤٥ في المائة»!

فتوحات قرآنية في هذا العلم

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾ (الحج:٧٢).

ويشرح الشنقيطي في كتابه «أضواء البيان» انفتاح الزاد القرآني بمعان عظيمة؛ من خلال توظيف لغة الجسد؛ فيقول تبشيعا لحال هؤلاء المخالفين: «وذلك المنكر الذي تعرفه في وجوههم؛ إنما هو لشدة كراهيتهم للحق! ومن الآيات الموضحة لكراهيتهم للحق؛ أنهم يمتنعون من سماعه، ويستعملون الوسائل التي تمنعهم من أن يسمعوه»

ويعلق الشيخ/ محمد متولي الشعراوي في «تفسيره» على هذه الصورة الإشارية؛ فيقول: «أي الكراهية تراها، وتقرأها في وجوههم عبوسا، وتقطيبا، وغضبا، وانفعالا، ينكر ما يسمعون، ويكاد يتحول الانفعال إلى نزوع غضبي؛ يفتك بمن يقرأ القرآن؛ لما بداخلهم من شر، وكراهية؛ لما يتلى عليهم»!

ويقول أسامة ربايعة: والحالة الجسدية هنا، التي تمثلها الآية الكريمة؛ فيها بلاغة عميقة، ودلالة واضحة على وصف حال وجوه الكافرين، الذين يرفضون الانصياع لأمر الله تعالى، والأخذ بما جاء في القرآن الكريم؛ فقد وصلت عداوتهم، وبغضهم، وحقدهم على الإسلام وأهله، وعلى كتاب الله إلى درجة خطيرة، وكبيرة؛ حتى يبدو الأمر في وجوههم من عبوس، وكلوح، وكراهية، وحقد! فقد دلت وجوههم على ما يدور في قلوبهم، وخلجات نفوسهم؛ حتى وصل الأمر إلى درجة رغبتهم الشديدة في البطش بأهل الإيمان، ومحاولة القضاء عليهم.

وقد توصلت الدراسة البحثية إلى نتائج، وتوصيات، منها: أن القرآن الكريم حرص على تنويع طرق إيصال المعاني للسامع، حسب لغة الجسد، غير المنطوقة؛ وذلك لأهمية هذا العلم، وقدرته المدهشة على توصيل الرسالة الربانية بأقصر الطرق، والوسائل إلى عموم البشر، في كل الأصقاع والأزمان، ومن هنا؛ فلابد من الاهتمام بتوظيف لغة الجسد كمقوم تربوي قرآني مهم ورئيس في مناحي الحياة، لاسيما في مراكز البحوث، والتعليم، والدعوة، والوعظ، والإرشاد، والتربية، والاجتماع؛ لما لها من أكبر الأثر في توصيل الرسالة المرجوة بأسرع الطرق، والوسائل.

معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية

د. طاهر خذيري

الفن: القواعد الفقهية والأصولية
سنة النشر: ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م
رقم الطبعة: الأولى
عدد المجلدات: ٤١
إصدار: مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية في دولة الإمارات

«معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية» عبارة عن موسوعة ضخمة، اجتمع على كتابتها مجموعة من العلماء من مختلف الأقطار الإسلامية، وتقع في واحد وأربعين مجلدا، مع مجلد آخر يحتوي على الأسطوانة الإلكترونية للموسوعة. وتعد هذه الموسوعة الأولى من نوعها؛ حيث تم إنجازها بالاشتراك بين مجمع الفقه الإسلامي الدولي، ومؤسسة زايد للأعمال الخيرية والإنسانية، واستمر العمل فيها سنين طويلة. هذا، وقد أشرف على المشروع من أوله إلى آخره كوكبة من العلماء من شتى بلدان العالم الإسلامي، وشارك في كتابة مواد الموسوعة ومراجعتها عشرات من العلماء من مختلف الأقطار الإسلامية، عدا الباحثين المتفرغين في مقر المشروع في جدة.

الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رحمه الله مؤسس دولة الإمارات العربية المتحدة

محتويات «المعلمة»

تحتوي «معلمة زايد للقواعد الفقهية» على ستة أقسام هي:

١- قسم المقدمات العامة.

٢- قسم المبادئ العامة والقواعد المقاصدية.

٣- قسم القواعد الفقهية.

٤- قسم الضوابط الفقهية.

٥- قسم القواعد الأصولية.

٦- قسم الفهارس العامة.

عمل «المعلمة» بين التقليد والاجتهاد

الأصل أن عمل الخبراء والباحثين في «المعلمة» تحكمه قواعد التقليد لا الاجتهاد بمفهومه المصطلحي، ولكن هذا المبدأ ليس على إطلاقه، فقد تم تقنينه على النحو التالي:

١- حيث يوجد اتفاق على صيغة القاعدة أو الضابط - وهذا نادرا ما يحدث- فلا مجال للاجتهاد.

٢- وحتى في هذه الحالة فقد يكون من الضروري التصرف في الصيغة المتفق عليها؛ لاعتبارات تستدعي ذلك.

٣- أما حيث لا يوجد اتفاق فيكون أمام القائم بالصياغة أن يختار من بين الصيغ المتنوعة أصلحها وفقا لمعايير حددها منهج الصياغة.

٤- وقد يكون له أن يتصرف في الصيغة التي يختارها بما يحقق هذه المعايير تحت إشراف الخبير.

٥- أما حيث لا توجد صيغة لقاعدة أو ضابط، فعليه أن يبحث عما هو كامن خلف الحكم أو الأحكام الجزئية من معنى كلي يجمعها غالبا ما يحدث في الضوابط، حيث يستظهر القائم بالصياغة هذا المعنى من خلال الشروط والتعاريف والتقاسيم وغيرها مما لم يورده الفقهاء أصلا كضابط فقهي، وهنا يكون مجال الاجتهاد فسيحا نسبيا، وقابلا للمناقشة والاعتراض بطبيعة الحال.

٦- ما سبق مقيد بوجود أحكام جزئية تفتقر إلى ضوابط تضم شتاتها، أما حيث لا يوجد حكم جزئي - وهو حال المسائل المستحدثة- فليس استحداث الأحكام مهمة مشروع «المعلمة»، بل هي مهمة المجامع الفقهية بأجهزتها وآلياتها المعروفة، والمؤتمرات المتخصصة، ولكن تكون مهمة «المعلمة» متابعة الجهود التي تبذلها هذه المجامع، حتى إذا استقر الرأي فيها على حكم فقهي لمسألة مستحدثة، فهنا يقوم مشروع «المعلمة» بمهمته على النحو الموضح سابقا.

آلية المراجعة في «معلمة القواعد»

بانتهاء مرحلة الصياغة أو قبلها يبدأ

الإعداد لمرحلة المراجعة، وعلى وجه الدقة المراجعة الخارجية؛ إذ إن الصياغة كانت تمر بمراجعة داخلية أولية من كل من الخبير (مسؤول اللجنة التي ينتمي إليها الباحث الذي قام بالصياغة) قبل أن يعتمدها، ومن مدير المشروع، الذي كان يراجع بعض العناصر للاطمئنان إلى سلامتها قبل اعتماده للصياغة.

ومن الأمور التي كان يُهتم بها في هذه المراجعة الأولية؛ غربلة التطبيقات في كل قاعدة من المسائل المكررة، والحرص على تنويع التطبيقات وشمولها لأقسام الفقه المختلفة، وكذلك استبعاد المسائل الغريبة وغير المقبولة التي تعد أقرب إلى الفقه الافتراضي منها إلى واقع الحياة، وكذلك الحرص على أن تتضمن التطبيقات بعض الأمور المعاصرة التي توضح أهمية القواعد في تقديم حلول شرعية للنوازل والمستجدات المعاصرة. ولم تكتف إدارة المشروع بهذه المستويات من المراجعة، بل أخضعت الصياغات لمراجعة جماعية يشارك فيها جميع خبراء «المعلمة»، وعنصر أو عنصران من علماء الأمة المشهورين والمتخصصين من خارج «المعلمة»؛ سواء بالمشاركة الفعلية في المناقشات وحضور الاجتماعات لمن يستطيعون ذلك، أو بإبداء الرأي مكتوبا لمن لا يستطيع الحضور، بعد أن ترسل إليه جميع نصوص صياغات القواعد المطلوب إبداء الرأي فيها، ولا تكتمل للمراجعة قيمتها إلا بتنفيذ الملاحظات التي يبديها المراجعون، ومتابعة ذلك متابعة دقيقة في كل لجنة من لجان «المعلمة».

ما تميزت به «المعلمة»

يمكن أن توجز ميزات المعلمة في النقاط التالية:

١- بحوث المقدمات العلمية التي تكوّن في مجموعها مادة علمية كافية للبحث في القواعد كعلم شرعي مستقل، وقابل لتوليد علوم فرعية، وصالح لأن يدرس كمساق جامعي وتخصص علمي واعد.

٢- تركيز «المعلمة» على الأحكام الكلية دون تشتيت الذهن بين الجزئيات الفقهية الكثيرة، ومحاولة استيعاب أكبر قدر ممكن من الأحكام الكلية، سواء على مستوى مقاصد الشريعة ومبادئها وقيمها، أو على مستوى مناهجها الأصولية وأحكامها الفقهية الكلية بما لا يتوافر في عمل آخر على الأقل حتى وقتنا الحاضر.

٣- العمل لأول مرة على استخراج الضوابط الحاكمة للفروع الفقهية على مستوى أبواب الفقه متميزة عن القواعد الفقهية العامة،

بعد أن كانت ترد نماذج محدودة لها في كتب القواعد مختلطة بالقواعد الفقهية.

٤- بيان الصيغ المتنوعة التي وردت عن القاعدة في المراجع المختلفة، في محاولة لحصر المكررات اللفظية والمعنوية.

٥- بيان القواعد ذات العلاقة بالقاعدة محل البحث، وبيان وجه العلاقة بينهما، في محاولة لتوضيح شبكة العلاقات بين القواعد.

٦- بيان الآراء الفقهية المتنوعة، سواء بين المذاهب الكبرى أو داخل المذهب الواحد، مع محاولة إيراد الدليل الشرعي لكل رأي.

٧- إعطاء الصورة العملية بعرض تطبيقات متنوعة من الماضي والحاضر تؤكد صلاحية الشريعة -بمبادئها الكلية- للتطبيق في كل زمان ومكان.

٨- الإسهام في جهود توحيد الأمة بإصدار هذا العمل الموسوعي عن أكبر منظمة إسلامية تجمع المسلمين من سبع وخمسين دولة إسلامية، والذي شارك في إعداده ومراجعته علماء وباحثون من شتى بلاد الإسلام.

٩- الاستعانة بأساليب الإدارة العلمية في إعداد وإنجاز هذا المشروع، وكذلك الاستعانة بعلوم الحاسوب في التعامل مع العلوم الشرعية. ويعتبر هذا وذاك خطوة متقدمة يرجى أن تستمر، وتتلوها خطوات أخرى في المشاريع المماثلة.

أهمية «المعلمة»

تعتبر «معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية» أحد أهم مصادر استنباط الأحكام، كما يمكن وصفها بأنها موسوعة حضارية، تضم معظم القواعد الأساسية؛ لتحديد منهجية مختلف الشؤون الإنسانية، وفي شتى مضامين الحياة من عبادات ومعاملات وتطبيقات حياتية متنوعة، وهي ترسم الخطوط العامة التي بموجبها تسن الأحكام في سائر الجوانب المجتمعية، في الاقتصاد والسياسة، والصحة والتربية والتعليم، والشؤون الاجتماعية والأخلاقية، وفي مجال العلوم الإنسانية والتطبيقية على حد سواء.

فقد ضمت بين دفتيها الأقسام الأربعة للقواعد، فبدأت بالقواعد المقاصدية، التي تعنى بنوازع الخير التي غرسها المولى عزوجل في نفوس الخلق، كالحديث عن الصدق والأمانة والشرف والحرية والأخلاق عموما.

ثم بعد ذلك القواعد الأصولية، والتي بموجبها تم وضع القواعد الرئيسية لكل موضوع، فالأصل في كل شيء هو الإباحة، ما لم يرد فيه نص يقيده.

وبعد ذلك جاءت القواعد الفقهية، التي بموجبها يتم الحكم على العمل بالحل أو الحرمة أو الكراهة أو الاستحباب، في مجال العبادات أولا ثم المعاملات.

وهذه القواعد الكلية أو الفرعية، ليست عملا جديدا، ولكنها لأول مرة تجمع في كتاب واحد، وعلى مذاهب ثمانية (الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية، والظاهرية والإباضية والزيدية والجعفرية).

وقد تم إعداد حوالي مئة ألف قاعدة، وتم العمل على تصنيفها وجمع موضوعاتها، ومطابقة المتشابه منها؛ لتصدر بعد ذلك بحوالي ٣٠٠٠ قاعدة. وقد تم وضع القاعدة الأكثر شهرة، ثم ما شابهها من قواعد في نفس المعنى أو الموضوع أو ذات علاقة، ثم شرحها، ومن ثم وضع أدلتها من القرآن والسنة وأقوال الصحابة وأفعالهم، ثم تم الشرح والتفصيل.

وأخيرا، تم التحليل واستنباط ما يستفاد من القاعدة. والجدير بالذكر أنه تصدّر «المعلمة» عدد من المقدمات التي تعتبر -في حد ذاتها- عملا جادا متميزا، حيث ظهر من خلالها كيف تم جمع القواعد، والتعريف بها واعتمادها.

كما ضم الكتاب فهارس للموضوعات والأعلام وتحقيقا شاملا للأحاديث الواردة فيها، فجاءت «المعلمة» مستوفية كل الشروط العلمية لبيان ما جاء فيها من قواعد أصولية ومقاصدية وفقهية وفق توثيق علمي دقيق.

الأدوار الأسرية في مراحل الطفل العمرية

د. مراد زهوي
باحث مغربي في الدراسات الإسلامية

تقوم رعاية الأبناء ومعاملتهم في مراحلهم العمرية الأساسية على مجموعة من الأصول والقواعد التربوية، أهمها تهذيب نفوسهم وتربية وجدانهم وتقويم ألسنتهم.

وتمكين كل فرد منهم أن يعمل بمقدار طاقته عملا يمكن للمجتمع أن يستفيد منه مستقبلا.

وغرس روح الجماعة في نفس كل فرد منهم، ليقوم -على أتم وجه وأكمله- بإعداد وإنجاز الأنشطة الاجتماعية، ولو بعد حين.

كذلك تعويدهم على تحمل المسؤولية وشحذ إراداتهم للتحكم في رغباتهم، حتى يكونوا على المستوى المأمول في بناء مجتمعهم وتنميته وحمايته (المواطنة الحقة)...

هذه أهم المعالم والعناصر المكونة للمنهج التربوي الإسلامي، والتي يجب أن ينشأ النشء في إطاره، وذلك بحسب الأطوار الثلاثة لمراحل سنه ومواهبه وقدراته واستعداداته وخواصه.

المرحلة العمرية الأولى وحاجياتها:

يجدر بالأسرة في هذه المرحلة أن تركز على تهذيب سلوكات الطفل وتقويم لسانه، وإيقاظ نباهته وتشجيعه على إعمال عقله وفكره بالتأمل والتفكر..

وتنشيط قدرته على الحفظ، ولفت انتباهه إلى ما يقع تحت بصره من الأمور والأشياء المتوافقة والمختلفة في حقائقها وصفاتها وألوانها وأحجامها ووظائفها.. وبعث كل استعداداته وقدراته العقلية والقلبية والنفسية الصالحة المعطاءة.. خاصة وأن الدراسات النفسية والتربوية تؤكد أن معالم شخصية الطفل المستقبلية، إنما تتكون في السنوات الأولى من عمره.. قال سهل بن عبدالله التستري (ت٢٨٣هـ): «كنت وأنا صبي ابن ثلاث سنين أقوم في الليل، فأنظر إلى خالي محمد بن سوار، فقال لي يوما: ألا تذكر الله الذي خلقك؟ فقلت كيف أذكره؟ قال: قل ثلاث مرات من غير أن تحرك لسانك: الله معي، الله شاهدي، الله ناظر إلي. فقلت ذلك ليالي ثم أعلمته. فقال: قل ذلك في كل ليلة سبع مرات، فقلته وأعلمته. فزادني إلى إحدى عشرة مرة، فقلته، ووقع في قلبي حلاوته، فلما كان بعد سنة قال لي خالي: احفظ ما علمتك وداوم عليه، ثم قال لي: يا سهل، من كان الله معه وناظرا إليه هل يعصيه؟ قلت: لا. قال: إياك والمعصية، ثم لما بلغت ست سنين، حفظت القرآن كله، وكنت أصوم الكثير من الأيام...» (١).

وفي هذه المرحلة العمرية أيضا يحتاج الأبناء إلى إكسابهم عادة النطق السليم، وتزويدهم بعدد من الألفاظ اللغوية والمفردات والعبارات والجمل ذات الدلالات الفاضلة. وأفضل وأقصر وأخصر طريق لذلك ربطهم بكتاب الله تعالى، تلاوة وحفظا..

ومما يجب الحرص عليه في هذه المرحلة العمرية أيضا تعليم الأطفال فرائض الإسلام، وأركان الإيمان، وترغيبهم في الصلاة وتحبيبها لقلوبهم، وتعويد الصدق والأمانة والطهارة... وغير ذلك من الآداب المرضية والأخلاق الفطرية (القيم).

وبموازاة ذلك ينبغي توجيههم إلى ممارسة الرياضات النافعة اللطيفة المفيدة، وتشجيعهم عليها وتيسير انخراطهم في أنديتها والانتساب إليها، قال ﷺ، «روحوا القلوب ساعة وساعة» (٢).

وعن عبدالله بن الحارث رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يصف عبدالله وعبيدالله وكثير أبناء العباس، ثم يقول: من سبق إلي فله كذا وكذا، قال: فيتسابقون إليه فيقعون على ظهره وصدره فيقبلهم ويلتزمهم» (٣). وإدراكا لقيمة الرياضة في بناء شخصية الطفل، قال عمر رضي الله عنه: «علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل» (٤)، وإنما اقتصر الفاروق على هذه الأنواع لأنها المتوفرة المشتهرة في زمانه رضي الله عنه، وإلا فكل رياضة تظهر في كل زمان فهي مباحة مادامت لا عنف فيها..

إذن ففي مراعاة الأسرة لحاجيات الطفل المتقدمة والتزامها بها وتوفيرها له أهمية بالغة في نشأته مستقيم السلوك والخلق، صافي العقل وسالمه، قوي الإرادة وحازمها، متكامل النفس والجسم سليمهما.

المرحلة العمرية الثانية

أما في المرحلة العمرية الثانية (المراهقة) من عمر الابن والبنت فيجب مراعاة الميول والاتجاهات النفسية المناسبة، ويستثمر في الأبناء القدرات والاستعدادات الذهنية والإبداعية النظرية والعملية.. فمن ظهرت ميوله نحو الثقافة والتعلم شجع عليها ورغب فيها ويسرت له أسبابها، ومن بدت ميوله نحو الميادين والمهارات العملية أعين على ذلك، ومن كانت له ميول دون هذا أو ذاك وجه إلى ما يناسبه من أعمال يدوية (حرف)، لأن المجتمع بحاجة إلى كل هذه الاختصاصات والكفاءات، وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «اعملوا، فكل ميسر لما خلق له» (٥).

وهكذا تكون المرحلة العمرية الأولى من حياة الأبناء لبعث مواهبهم وتنشيطها، فضلا عن تثقيفهم وتسديد سلوكهم في المجالات والميادين الشخصية والاجتماعية، وتكون المرحلة الثانية من أعمارهم لتوجيههم وإرشادهم نحو المسارات العملية في الحياة المستقبلية، كل ذلك بالقدر الذي يناسب وينسجم مع ميولا تهم وقدراتهم واستعداداتهم النفسية والجسدية...

المرحلة العمرية الثالثة

يجب الاعتماد في هذه المرحلة على ميول الشباب من أجل استقرار التوجيه في الاختصاصات، مع ضرورة متابعة وتتبع مدى قدرة الشاب على الاستمرار في هذا التخصص، مع استحضار أنه لا ينبغي للوالدين أن يعاكسا أو يصادما طباعه واتجاهاته وقدراته، لأنه لن يوفق فيما أكره عليه منها وفرض..

يتضح مما تقرر قبل أهمية وحساسية الأدوار التربوية المنوطة بالأسرة؛ مما يستوجب معه تأهل الزوجين روحيا وفكريا ونفسيا وماديا... للاضطلاع بتلك الأدوار.

هوامش

١- إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي: ٣/ ٧٤.

٢- أخرجه القضاعي في مسند الشهاب: (٣٩٣/١) وابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله، ص: ٤٣٤. والسيوطي في الفتح الكبير في ضم الزيادات للجامع الصغير: (١٣١/٢)، بلفظ: «روحوا القلوب ساعة فساعة» وقال عقبه: أي أريحوها بعض الأوقات من مكابدة العبادات، بمباح لا عقاب فيه ولا ثواب. قال أبوالدرداء: «إني لأجم فؤادي ببعض الباطل» أي اللهو الجائز «لأنشط للحق». وذكر عند المصطفى ﷺ القرآن والشعر، فجاء أبو بكر فقال: «أقراءة وشعر؟» فقال «نعم، ساعة هذا وساعة ذاك». وقال علي رضي الله عنه: «أجمّوا هذه القلوب، فإنها تمل كما تمل الأبدان» أي تكل. وقال السخاوي في المقاصد الحسنة، ص٣٧٢: روحوا القلوب ساعة وساعة، الديلمي في الفردوس: (٢٥٣/٢) من جهة أبي نعيم ثم من حديث أبي الطاهر الموقري عن الزهري عن أنس رفعه بهذا، ويشهد له ما في صحيح مسلم وغيره من حديث: يا حنظلة ساعة وساعة. وذكره العجلوني في كشف الخفاء: (٤٩٧/١). وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة: (١٣٦/٨).

٣- أخرجه أحمد في المسند: (٢١٤/١).. وابن عساكر في تاريخ دمشق: (٤٧٥/٣٧). والهيثمي في مجمع الزوائد: (٢٦٣/٥) و(١٧/٩) و(٢٨٥/٩).

٤- رواه البيهقي (٤٠١/٦) ورواه الديلمي في مسند الفردوس: (٢ /١١) ورواه ابن منده في المعرفة، وأبوموسى في الذيل.

٥- أخرجه البخاري في التفسير، باب ﴿فسنيسره للعسرى﴾. ومسلم رقم (٢٦٤٧) في القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه. والبخاري في الأدب المفرد: (٣١١/١).

الطفل
غرس والِدَيْن.. وثمار تربية

صبحة بغورة
كاتبة جزائرية

ليس أصعب على الوالدين من أن يريا نتيجة غرسهما تذهب هباء منثورا، وليس أشقى عليهما من أن يريا فلذات كبدهما عاجزين عن الأخذ بأسباب القوة في الحياة التي تنتظرهم، متعثرين في مسارهم الدراسي، الذي هو السبيل للتزود بسلاح العلم والمعرفة، وليس هناك ما هو أكثر مرارة من أن يتفطنا متأخريْن إلى أنهما كانا السبب في بلوغ أبنائهما ما بلغوه من سوء الحال.

كثيرا ما يكتشف الآباء ضعف تحصيل أبنائهم لدروسهم بشكل مفاجئ، والذي قد يؤدي إلى الفشل الدراسي وضحالة المستوى الثقافي في ما بعد، فتضطرب قدرتهم على التفكير السليم في المستقبل والتخطيط الصحيح لحياتهم، مما يصيب الأسرة بانزعاج مستمر. والأصعب من ذلك، تلك المسؤولية التي تسقط على كاهلهم في متابعة الأبناء في المذاكرة.

وتعود مشكلة ضعف التحصيل، الذي يؤدي إلى الفشل في المسار الدراسي، في الأساس، إلى عدة أسباب وصعوبات، والتي قد تواجه بعض الأطفال فتعوقهم عن تحصيل نتائج مرضية، وأخطرها يبدأ من داخل الأسرة نفسها (باعتبارها الركيزة الأساسية في المجتمع)، والمدرسة، والأساتذة، وطبيعة النظام التربوي المتبع في الامتحانات.. كل هذه العوامل، وأخرى، مسؤولة عن هذه المشكلة.

اضطرابات نفسية

تعتبر الأسرة واحدة من أهم المؤسسات الاجتماعية الرئيسية، لديها وظائف حيوية في ما يتعلق بتربية الأطفال. وهذه المهام والوظائف هي: التعليم غير الرسمي، والتدريب، ونقل ثقافة الوالديْن، والمعرفة العملية والزمالة، وممارسة السيطرة، والحماية، وتحقيق الأمان النفسي. ويتضح أنه في حالة حدوث اضطراب في العلاقات بين الزوجين، فإن تأثيره لا يقتصر على الوالديْن فقط، وإنما يمتد إلى الأبناء، ويظهر هذا التأثير على شكل اضطرابات نفسية وانحرافات سلوكية تتجاوز مجرد التمتع باكتمال سلامتهم البدنية والعقلية، فليس الأمر مقتصرا على مجرد خلو الجسم من المرض، والتعافي من مظاهر العجز العضوي، وهذا ما يؤكد الارتباط بين النواحي البدنية والعقلية وبين الحالة النفسية والاجتماعية في آن واحد. وكذلك هناك تأثير متبادل بين كل جانب وآخر، واضطراب أي جانب ينعكس على حالة الفرد العامة. لذا، لابد لنا من وقفة مع أنفسنا بالمراقبة الدقيقة لردود أفعالنا إزاء تربيتنا لأبنائنا، والأخذ في الحسبان طبيعة الأطفال

الرهيفة بالامتناع عن النقاش الحاد والجدال العقيم أمامهم، وضرورة بقاء هيبة الوالدين في نفوسهم؛ لضمان دوام محبتهم، من منطلق أنه تقع على عاتق الأهل مسؤولية توفير الجو الأسري الآمن الخالي من المشاحنات والتوترات، وأخذ هدنة، ليس في أيام الامتحانات فقط، بل يجب أن تكون دائمة، بحيث لا يشعر الأطفال بالخلافات الزوجية أو يعرفون شيئا عنها. ومما لاشك فيه أن الأمر يزيد سوءا في حالات الطلاق، حيث يتولد لدى الأبناء شعور بفقدان شيء ما، وهذا الشعور يشغلهم ذهنيا كثيرا، ولفترة طويلة، وينعكس على حجم تحصيلهم المدرسي، وعلى أمنهم العاطفي، وعلى القدرة على الاستمرارية في إقامة علاقات اجتماعية سوية خالية من التوتر والخوف والقلق. ومن المشكلات الأسرية التي لها تأثير كبير على تحصيل الأبناء الدراسي، تحيز الوالدين لأحد الأولاد، وهذا في الواقع يتشكل لدى الوالدين في اللاوعي. والحقيقة أن عقلية التمييز بين الأبناء قد انتشرت وتنوعت أنماطها وأشكالها لتكون السبب المباشر في زرع بذور الغيرة بين الإخوة من دون التفكير في عواقب ذلك إلى أن يأتي يوم الحصاد عندما تنعدم مشاعر الإخوة والحب والحنان والتآزر في قلوبهم، لتتحول إلى مشاعر يصعب تصديقها، لأنها عبارة عن مشاعر الحقد والحسد التي غرسها آباء في نفوس أطفالهم، وظنوا أن تلك المعاملة القاسية شديدة الوطأة على قلب الطفل الضعيف ستجدي نفعا. ومثل هذه المعاملة نجده أكثر ما يكون عندما يوجد اختلاف في المستوى الفكري، وتباين في التحصيل المدرسي للأبناء، كأن يكون أحدهم يتسم بالذكاء والفطنة، والآخر عكسه تماما، وربما احتاج فرصة من يدفعه لاستغلال طاقته الإيجابية الدفينة ويحتاج إلى حنان الأم ورعاية الأب وتشجيعه، لتفجير مواهبه وتنميتها وإبراز ميوله، حيث إن الخالق ميز بين كل فرد بميزة قد لا توجد عند الآخر، تحتاج إلى من يسقيها بماء نقي ينعشها وهواء صافية حبيباته مثقلة بثقة النفس التي يجب على الآباء بعثها في نفوس أطفالهم منذ نعومة أظفارهم فقط، لأن التحيز الأسري سلوك هدام من شأنه أن يؤثر على دراسة الأبناء، ويجعلهم غير قادرين على التأقلم مع بيئتهم المدرسية، وعاجزين عن استيعاب دروسهم، حتى وإن كانوا أطفالا أذكياء، لأن الشعور بالإحباط، الذي زرع بداخلهم، جعلهم يشعرون بأنه لا يمكن لهم أن يكونوا ذوي فائدة وقدرة على أداء أي فعل كان، وذلك بسبب شعورهم بأنهم مهملون مقارنة بإخوتهم المميزين والمحبوبين من أهلهم.

صداع مزمن

الأسرة هي الركيزة الأساسية للتفوق على الضعف. ومع بداية كل عام دراسي تعيش الأسرة حالة من الطوارئ حتى نهاية السنة، فتشعر بصداع مزمن. قد يعتقد البعض أن اهتمام الوالدين بتدريس أبنائهما من المفترض أن يجعلهم في صفوف متقدمة، إلا أن الحالة النفسية التي يعيشها الطفل في منزل مضطرب تؤثر على نفسيته بشكل مباشر وعلى أدائه الدراسي، لأنه يصعب كثيرا على الطفل أن يفصل بين دراسته وبين همومه المنزلية، خصوصا في المرحلة الأولى، حيث يكون تكوينه النفسي والاجتماعي في مرحلة بدائية.

السلوك التربوي للطفل مرتبط بحياته داخل الأسرة والمدرسة والمجتمع الذي يعيش فيه، والأسرة والمحيط التربوي يتعهدانه بالتنشئة ويوفران له الحاجات النفسية والبدنية ومطالب الحياة اليومية، فيما يكتسب عن طريق أسرته اللغة القويمة والتراث الحضاري والروحي والتربوي للطفل المتوازن. ومع اقتراب الامتحانات، فإن للمشكلات الأسرية تأثيرها الكبير على التحصيل الدراسي للأبناء. وظاهرة التعثر الدراسي تعد ظاهرة مرضية، وأحد الاضطرابات التي تؤدي إلى إصابة الطفل بعدم المقدرة على ترجمة ما يراه أو يسمعه، أو عدم قدرته على ربط المعلومات في ذهنه. ولهذه الظاهرة أسباب نفسية واجتماعية تظهر من المشاكل الأسرية، مثل: الطلاق والتفكك الأسري وما يتبعهما من اضطرابات نفسية للأبناء. ومن مهام كل الأمهات والآباء الاهتمام بأطفالهم، سواء نفسيا أو اجتماعيا أو غذائيا، وذلك حتى يساعدوا أبناءهم في التركيز على التعليم وإبعادهم عن كل مسببات مشاكل التعثر الدراسي. وتعتبر الخلافات الزوجية من أخطر المنغصات التي تؤثر نفسيا على الأبناء، إذ إن هذه الخلافات تزرع الخوف داخل الأبناء والشعور بفقدان الاستقرار والأمان، فالأبناء أول من يحصد النتائج السلبية المترتبة على المشكلات الزوجية التي تلازم الأولاد الذين يعيشون في ظل أجواء عنيفة داخل العائلة، فحالة التوتر التي يعيش فيها الطفل توقعه، لا إراديا، في مشاكل وفي أزمات تجعله يفقد القدرة على السيطرة الذاتية في فعله، والتأقلم والتكيف لضمان صواب رد فعله، وبالتالي يصبح في حالة تؤدي إلى تعرضه لخطر مواجهة الفشل في الدراسة خاصة والإخفاق في مسار حياته. عموما لا يخلو بيت من الخلافات الزوجية، لكن على الأب والأم أن يخفياها بعيدا عن مسامع أولادهما، وألا ينشرا جو التوتر داخل المنزل، لأن ذلك ينعكس سلبا على نفسية الأطفال، وبالتالي على أدائهم الدراسي.

الحديث عن عالم الطفل أصبح يأخذ اهتماما متزايدا نظرا لأن سعادة الأسرة تنطلق من التوازن الموجود بداخلها، ذلك التوازن الذي يخلقه الأبوان من خلال التربية الصحيحة التي تقوم على أساس التقدير والاحترام وتعزيز الثقة من أجل سلامة الصحة النفسية للطفل والأسرة معا.

أدب الطفل وخطاب الهوية

أ.د أحمد يحيى علي
ناقد أدبي

تخضع المادة الأدبية في صياغتها لفضاء تساؤلي ينطلق بأنساقه اللغوية في اتجاهات عدة، منها ما يختص بصاحبه: واقعه، ثقافته، تجربته الخاصة، ثنائية «الدافع من وراء التأليف والغاية المرجو تحصيلها». ومع المؤلف يأتي فضاء التلقي: إلى من يتوجه الأديب بعمله؟ إلى شريحة بعينها بمواصفات ثقافية ونفسية واجتماعية محددة.. أم إلى قارئ عام يمثل في عموميته هذه كل فئات الجماعة؟ بل قد تمتد هذه العمومية لتتجاوز زمان الكاتب ومكانه إلى غيره، وهو ما يعني أن المؤلف يضع نصب عينيه ما يمكن تسميته «مستقبل القراءة»، إلى جانب مضارعها الذي يمثله زمنه وما فيه من مستقبلين. تضاف إلى ذلك أسئلة تتعلق بالقارئ نفسه: اختياراته، قناعاته، تجاربه، السياق الثقافي: الزماني والمكاني الخاص به.. والأثر الذي يغادره كل ذلك في تفاعله مع العمل (استجابة القارئ للنص). ومن ثم، فإن أبعادا عدة تتضافر لتشكل هوية النص على مستوى الاستقبال؛ مما يجعل من الدلالة الناجزة الناتجة عن ذلك ذات طبيعة قلقة: نسبية، قابلة للتغيير والتجاوز، أو وفق مصطلح التفكيكيين «دلالة مؤجلة» تنم عن إساءة قراءة، أو سوء ظن بالنص وما قد يفترض أنه ينطوي عليه من معان قد يبدو للمستقبل أنها تسكنه.

والكيلاني من مواليد القاهرة في العام ١٨٩٧م، أما عن الوفاة فكانت في العام ١٩٥٩م. درس الأدبين الإنجليزي والفرنسي، وانتسب إلى الجامعة المصرية وحصل من خلالها على ليسانس الآداب قسم اللغة الإنجليزية.

بدءا من العام ١٩٢٧م وجه اهتمامه إلى أدب الأطفال، وأصدر قصته الأولى بعنوان «السندباد البحري». كان له رأي في أن حوار قصص الأطفال يجب أن يكون بالفصحى. كان لتأليف القصص عنده روافد عدة: الأساطير، الأدب الشعبي، الأدب العالمي.. وكانت له كتاباته الشعرية أحيانا التي يقدم بها قصصه أو ينهيها بها. ويُنظر إليه على أنه رائد الكتابة القصصية للطفل في القرن العشرين.

كانت من بين دوافعه إلى ولوج هذا الميدان الخاص بالتأليف للطفل حماسته لروائع الأدب العربي؛ فقد دعاه أدب المعري وابن الرومي وابن زيدون إلى الحرص على أن يستمتع بالأدب العربي أبناء الجيل الجديد من المثقفين ثقافة عامة، وهداه فكره إلى أن ذلك لا يتحقق إلا بتنشئة الطفل تنشئة يتزود فيها بما يقرب إليه تلك المناهل.

من هذا المنطلق الكلاسيكي شرع الكيلاني في إنجاز عدد من الأعمال الأدبية، التي تعتمد هذه الصلة بين الماضي، تتم صياغتها في ثوب يلائم شريحة بعينها تعيش الحاضر ذا الطابع المضارع المتجدد.. وكأننا على موعد مع صوتين: ظاهر قريب يجسده ذاك الفاعل المرجعي/المؤلف، ومن ينوب عنه في داخل عالم الفن/الراوي.. وعميق يعكسه ما هو تراثي ترى الذات القاصة في إعادة إنتاجه ضرورة في عملية تشكيل الهوية بشقيها الفردي والجمعي، خصوصا إذا ما علمنا أن من بين مرتكزات تشكيل الهوية التراث.

هو أول من خاطب الأطفال عبر الإذاعة، وهو أول مؤسس لمكتبة الأطفال في مصر. ألّف وترجم ٢٥٠ قصة للأطفال منها: «مصباح علاء الدين» و«روبنسون كروزو» و«حي بن يقظان» و«نوادر جحا» و«شهرزاد» و«ألف ليلة» و«النحلة العاملة» و«بياض الثلج وحمرة الورد» و«الأرنب الذكي» وغيرها كثير. ترجمت قصصه إلى اللغات الصينية والروسية والإسبانية والإنجليزية والفرنسية.

له أعمال أدبية في مجالات أخرى غير أدب الطفل، منها كتاب في أدب الرحلات عنوانه «مذكرات الأقطار الشقيقة»، سجل فيه انطباعاته عن رحلاته في كل من فلسطين ولبنان وسوريا. كما قدم كتبا أخرى منها: «نظرات في تاريخ الإسلام»، «ملوك الطوائف»، «مصارع الخلفاء»، «مصارع الأعيان».

الصوت المحافظ

ومن ثم، يمكن القول إن كلاسيكية البارودي ورفاقه على مستوى الشعر، وعلي الجارم وعلي أحمد باكثير ورفاقهما على مستوى النثر الروائي، تليها، على مستوى الكتابة القصصية للأطفال، كلاسيكية كامل الكيلاني، الذي يمثل، وفق هذه الحال، جزءا مكونا للصوت المحافظ المنادي بأهمية الاحتفاء بالقديم وتدعيم الصلات به من منطقة الحاضر المعيش وتحولاته. فإذا كان السابقون عليه من أبناء هذا الصوت قد جعلوا من شريحة الكبار شغلهم الشاغل، فإن الكيلاني ومن على شاكلته قد وجهوا اهتمامهم إلى الصغار، أو هكذا يبدو أمرهم. ومن ثم، يرنو المشهد التواصلي مع الماضي إلى التكامل عندما تكون الجماعة عبر مكونيها العمريين (صغير، وكبير) على موعد مع لقاءات تجمعها بعدد من الأنساق التشكيلية الآتية من التراث وقد تم عرضها في أثواب جمالية يحرص ناسجوها على أن تأتي مناسبة لسياق التلقي في زمانهم.

إذن، فإن لزاما علينا التوقف مع تعبير «أدب الأطفال». إن هذا التركيب الإضافي يعني في بنائه الدلالي المباشر المادة الأدبية: شعرية، قصصية،

مسرحية.. الموجهة إلى هذه الفئة (الأطفال) التي تمثل نواة أساسية لا غنى عنها لأي مجتمع. لكن السؤال الذي يطرح نفسه: هل الطفل في هذه العملية «مفعول/متلق» فحسب يجعله فاعل بعينه (المؤلف) محور اهتمامه خلال هذه العملية وبعدها، أم أنه (أي الطفل) يجب أن يكون هو الفاعل (الذي يؤلف لنفسه) والمفعول المستقبل في الوقت ذاته؟

إن القارئ المصاحب للمبدع يدخل في حوار مجازي معه خلال عملية التأليف، وبناء على توصيات هذا الحوار يخرج النص في شكله النهائي؛ فهل المؤلف يستحضر طفلا متخيلا خلال عملية الإبداع، أم أنه يجرد من نفسه هذا الطفل الساكن فيه في إطار من التماهي والتداخل بين شخصيتين، أو لو شئنا القول مرحلتين عمريتين: الأولى لها رتبة الماضي من حيث الزمن (مرحلة الطفولة) والثانية لها رتبة الحاضر (مرحلة الكبر)، ومن ثم يصبح الطفل الحقيقي المحتفي بإبداع الكاتب بمنزلة تجسيد حي لهذا الطفل الذي رحل أو هكذا يبدو أمامنا أنه غادر مكانه وفق منطق الأشياء؟

إن هذا التصور قد يأخذنا إلى إشكالية أعمق، ألا وهي الطفولة بالمعنى الرمزي الذي ينسجم وطبيعة الفن بصفة عامة، التي تعتمد على لعبة الخيال، التي تجعل من البناء السطحي أيقونة مشبعة «مكثفة» من حيث المعنى، وهو ما يسمح للفضاء التساؤلي المرتبط بهذا التعبير (أدب الأطفال) بالتمدد أكثر فأكثر ليضيف إليه: هل يمكن النظر إلى هذه المادة الفنية الموجهة إلى الطفل في جانب من جوانبها؛ بوصفها بناء جماليا يعتمد وفق منطوق البلاغيين على التورية؛ كأننا نطلقها في سياق الاستقبال متضمنة شريحتين: الأولى قريبة ليست هي المقصودة في حد ذاتها أو وحدها فحسب (الأطفال)، والثانية بعيدة هي المقصودة (الكبار)؟ وقد يكون لهذا النسق الاستفهامي وجاهته إذا ما عدنا إلى تراثنا العربي لنتوقف عند نموذج مثل «كليلة ودمنة» لابن المقفع (ت/١٤٢هـ)، الذي يبدو في ظاهر الكلام متنا قصصيا يعتمد صيغة السرد على ألسنة الحيوانات والطيور ليكون نموذجا مشوقا يقدم المتعة والقيمة الأخلاقية والتربوية لشريحة صغيرة السن. لكن هذا النموذج المستهدف يمثل - إلى حد كبير - حيلة فنية يراوغ بها الكاتب واقعه؛ ليسمح لنفسه بمساحة أوسع للحركة يتمكن من خلالها من تقديم الرؤى الفكرية التي يريد، ومن ثم قد تصير خصائص الكتابة للأطفال التي تميز المادة الفنية الموجهة إليهم - بدرجة كبيرة - مثل: وضوح العبارة، بساطة الأسلوب، الميل إلى الحوار غالبا، الصورة، شحنة الخيال العالية بمنزلة رموز سطحية تخفي رسالة أكثر عمقا تعتمد فكرة التقويم للطفل الكامن بداخل كل إنسان، سواء أكان كبيرا أم صغيرا، في عملية تعتمد على آلية الاسترجاع، تخاطب من خلالها روح الكاتب المبدعة ذاك الأساس، أو البذرة التي ينمو بناء عليها الإنسان؛ خصوصا أنه من بين سمات الطفولة الاستقبال من العالم بشكل مستمر، وهي مسلمة لا تفتأ تغادر الذات الإنسانية طيلة حياتها.

وتمثل هذه الرؤية افتراضا يبقى دائما مفتوحا على احتمالات عدة. وستسعى هذه الدراسة إلى مقاربة تحليلية لنماذج تطبيقية عند واحد من بين الذين اشتهروا بالكتابة للطفل، ألا وهو كامل كيلاني؛ بوصفه يمثل حلقة في سلسلة يمكن أن نؤرخ لها في الأدب في العصر الحديث بدءا من القرن التاسع عشر، ورفاعة الطهطاوي صاحب المرشد الأمين في تربية البنات والبنين، أحمد شوقي وشعره الموجه إلى الطفل، حجازي في خمسينيات وستينيات القرن الماضي، محمود سالم صاحب «المغامرون الخمسة»، جار النبي الحلو، يوسف الشاروني.. وغيرهم من الكتاب الذين جعلوا من هذه الفئة في داخل المجتمع مدارا لمنجزات إبداعية أدبية، يرى فيها أصحابها قنوات للتواصل تتيح لهم الوصول إلى فضاء الاستقبال عبر أكثر من طريق لا يقتصر على هذه الكلمة «الكبار» القابلة للجدل والنقاش إلى حد كبير؛ بالنظر إلى هذا الحضور الرمزي للطفل.

الاقتصاد الإسلامي الأخضر

يتجه العالم اليوم بخطوات متسارعة إلى خضرنة الاقتصاد أو ما يسمى بالاقتصاد الأخضر، وذلك كاستجابة ملحة نحو مواجهة تفاقم المشكلات البيئية، والتي باتت تشكل تهديدا خطيرا لاستمرارية الحياة البشرية.

وقد وجد أن نشأة هذه المشكلات البيئية تعود إلى أسباب اقتصادية، والتي يمكن إيعازها بالدرجة الأولى إلى اعتماد الاقتصاد الوضعي المتأثر بفلسفة النظام الرأسمالي على المذهب الفردي، والذي يطلق العنان للفرد لممارسة النشاط الاقتصادي بما يحقق لنفسه أقصى إشباع ممكن، أو أقصى ربح ممكن، ومن ثم كنتيجة سلبية تنامى الجشع الاقتصادي إلى أن أصبح لا يعرف الحدود ولا القيود.

فقد ظل الاقتصاد الوضعي أسيرا لمقولات وقوانين تعزز المذهب الفردي وتدفع نحو تعظيم الأرباح، مثل مقولة آدم سميث «دعه يعمل دعه يمر»، وافتراضه أن سعي كل فرد لتحقيق مصلحته سوف يحقق المصلحة للمجتمع بكامله، وذلك بفعل آلية اليد الخفية التي تتدخل لتحدث التوازن التلقائي الطبيعي. وهناك قانون ساي للأسواق «كل عرض يخلق الطلب عليه»، والذي يعطي كل منتج المبرر لأن ينتج أي شيء دون التفات إلى نوعية المنتج وآثاره البيئية. والأمثلة كثيرة بهذا الصدد، المهم أنها في محصلتها النهائية شكلت دافعا أو حافزا كبيرا نحو تخريب البيئة واستنزافها. وذلك ما حصل بالفعل، ففي إطار سعي الرأسماليين المستمر لتعظيم أرباحهم ارتكبوا أبشع الجرائم الاقتصادية وأكثرها عبثية، فالذين لوثوا المحيطات والأنهار كانوا يسعون لزيادة الأرباح، وكذلك الذين تاجروا بالأغذية الفاسدة، وقاموا بإتلاف الكثير من المحاصيل الزراعية، كل ذلك من أجل زيادة السعر، وبالتالي زيادة المكاسب والأرباح.

ومن هنا انبثق الاقتصاد الأخضر، ليعمل على إعادة تشكيل وتصويب الأنشطة الاقتصادية لتكون أكثر مساندة للبيئة والتنمية الاجتماعية، وبما يؤدي إلى تحقيق التنمية المستدامة. حيث يعرف برنامج الأمم المتحدة للبيئة «الاقتصاد الأخضر» بأنه نظام أنشطة اقتصادية تتعلق بإنتاج وتوزيع واستهلاك البضائع والخدمات، ويفضي في الأمد البعيد إلى تحسن رفاه البشر، ولا يعرض في الوقت نفسه الأجيال المقبلة إلى مخاطر بيئية أو حالات ندرة إيكولوجية كبيرة.

ولكن في مقابل الاقتصاد الوضعي، نجد أن الاقتصاد الإسلامي له وضع مختلف تماما، وهذا ما سنعمل على توضيحه هنا.

هل الاقتصاد الإسلامي بحاجة إلى خضرنة؟

يتكون الاقتصاد الإسلامي من كلمتين. الكلمة الأولى «الاقتصاد» وتعني لغويا التوسط بين الإسراف والتقتير. جاء في مختار الصحاح: «القصد بين الإسراف والتقتير، يقال فلان مقتصد في النفقة». وجاء في الحديث النبوي الشريف «ما عال من اقتصد»، أي ما افتقر من اعتدل في إنفاقه، أما الذي يسرف في إنفاق المال فإن إسرافه سوف يقوده إلى الفقر وسؤال الناس، ويجعله عالة على غيره. وأما الكلمة الثانية «الإسلام» فهي الشريعة الدينية التي يستمد منها هذا الاقتصاد قواعده

د. عادل عبدالرشيد غلام
خبير اقتصادي

وأحكامه. ومن أبرز قواعد شريعة الدين الإسلامي عند الأصوليين: أن الشريعة جاءت لتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها. يقول ابن القيم: «إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة، وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه».

ومما جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ (البقرة:٢٠٥)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ (الأعراف:٥٦). وكلمة الفساد في القرآن شاملة جدا ويندرج تحتها تدمير البيئة وتدمير الإنسان نفسه.

ولذلك نجد أن الشريعة الإسلامية لا تبيح إنتاج واستهلاك سلع الترف والكماليات التي تبدد الموارد. وهذا يتوافق مع حقيقة أن الحاجات في الإسلام لا تحدد أو تستمد مفهومها من رغبات الناس وشهواتهم، كما هو الحال في الاقتصاد الوضعي، وإنما يتحدد مفهومها على أساس مشروعية هذه الحاجة وتقريرها ضمن نصوص الشرع، أو ضمن أصوله وضوابطه العامة. بمعنى أن الإسلام يقرر الحاجات عن طريق الموازنة بين ما تدعو إليه أحكام الإسلام وما جبلت عليه النفوس البشرية من خصائص حب المال والميل للشهوات، من أجل تعزيز الجانب المادي والروحي والأخلاقي داخل المجتمع المسلم.

وعلى هذا النحو، نجد أن الاقتصاد الإسلامي هو الاقتصاد الوحيد الملزم في نشاطه الإنتاجي بإنتاج الطيبات وتجنب الخبائث، وأساس ذلك قوله تبارك وتعالى ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ (الاعراف:١٥٧). وتعرف السلعة الطيبة بأنها تلك السلعة التي يطلبها المسلم حرصا منه على طلب الحلال وتجنب الحرام، بحيث يترتب على استهلاكها صيانة لجسم الإنسان وحفظ للأخلاق والبيئة، بينما السلعة الخبيثة تعرف بأنها السلعة التي يترتب على استهلاكها تدمير لجسم الإنسان أو تدمير للأخلاق والبيئة. كما أنه في الجانب الاستهلاكي فإن الاقتصاد الإسلامي ملزم بالاعتدال والترشيد، ومن الأدلة على ذلك ما جاء في قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ (الفرقان:٦٧).

وتحريم النبي ﷺ الإسراف بالماء ولو كنا على نهر جار.

ويختلف الاقتصاد الإسلامي عن الاقتصاد الوضعي الذي يهمل العديد من الأشياء ذات القيمة العالية، كالماء في المحيطات والبحار والأنهار، والهواء الجوي ويعتبرها سلعا حرة غير اقتصادية، وذلك لمجرد وفرتها، بينما يعطي للموارد التي تتصف بالندرة قيمة اقتصادية، ومما يسبب ذلك أن الأضرار بالسلع غير الاقتصادية لا يتم أخذها في الاعتبار. أما بالنسبة للاقتصاد الإسلامي فهو لا يعترف أصلا بوجود الندرة ولا يعدها مشكلة حقيقية، وهو يواجه ما يسمى بمشكلة الندرة في الاقتصاد الوضعي باستنهاض همة الإنسان واستلهام جهده وعمله، ليسلك الطريق الذي بينه الله سبحانه وتعالى في القيام بمهمة الاستخلاف من أجل عمارة الأرض، فالكون مليء بالنعم والخيرات التي تفي بحاجات الإنسان، كما جاء في القرآن الكريم، ومنها الآية الكريمة: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ (النحل:١٨). ولذلك لا يضر الاقتصاد الاسلامي بأي مورد مهما كان نوعه ودرجة توافره، لأنها نعمة من المولى، ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ (القصص:٧٧).

وخلاصة القول، أنه لا يوجد في أحكام الشريعة الإسلامية ما يمكن أن يدفع الاقتصاد الإسلامي للإفساد والإضرار بالبيئة، بل أكثر من ذلك أن الاقتصاد الإسلامي ملزم بأن يحافظ على البيئة وفقا لهذه الشريعة التي تعتبر حماية البيئة ومواردها والمحافظة عليها وتنميتها واجبا دينيا يجب أن يلتزم به الكل، الحكام قبل الأفراد، بموجب مسؤوليتهم عن رعاية أنفسهم ومجتمعاتهم تجاه ربهم.

إذن فالاقتصاد الإسلامي هو اقتصاد أخضر في طبيعته محافظ على البيئة، لأنه في الأساس نابع من الشريعة الإسلامية التي تحث على حماية البيئة وتحرم الفساد بكل أشكاله وأنواعه.

لماذا يوجد ما يسمى بالاقتصاد الإسلامي الأخضر؟

وينبع هذا السؤال انطلاقا من ثبوت أن الاقتصاد الإسلامي هو اقتصاد أخضر في طبيعته، فلا يحتاج مثله مثل الاقتصاد الوضعي إلى خضرنة لتصويب أنشطته لتتوافق بيئيا، فما الداعي إذن من وجود ما يسمى بالاقتصاد الإسلامي الأخضر؟.

وتكمن الإجابة في أن وجود الاقتصاد الإسلامي الأخضر ليس للتصويب بل لزيادة الاهتمام. فالاقتصاد الإسلامي الأخضر ما هو إلا جزء لا يتجزأ من الاقتصاد الإسلامي، ولكن استدعى تمييزه وظهوره حديثا لتفاقم المشكلات البيئية التي تعاني منها المجتمعات الإسلامية بسبب اتباعها أساليب الحياة

الغربية، وبحيث يختص تركيز الاقتصاد الإسلامي الأخضر كأحد فروع الاقتصاد الإسلامي في مواجهة هذه المشكلات، وبكيفية إعادة التعامل والتطبيق للقواعد والآليات المتعلقة بالمنظور الإسلامي لحماية البيئة والتنمية المستدامة في اقتصاديات الدول الإسلامية الحديثة.

يسعى الاقتصاد الإسلامي الأخضر كهدف أساسي إلى تحقيق التنمية المستدامة من منظور إسلامي، وخاصة أن هناك الكثير من الأدلة على أن اهتمام الإسلام لا ينصب على الجيل الحالي فحسب، بل يتجاوزه إلى الأجيال القادمة، جاء في الحديث النبوي: «إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس في أيديهم». وهناك الحديث النبوي: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها، فليغرسها»، ومن الواضح أن هذا الحديث يحض المسلمين على العمل على استدامة التنمية دون توقف، مهما كانت الأسباب، مما يجعل جيل الأبناء يستفيد من ثمار ما أنتجه جيل الآباء، والذي استفاد بدوره من جيل الأجداد. وتشكل الأحاديث النبوية التي تدرج عند الفقهاء في باب «إحياء الموات» دافعا قويا نحو تحقيق التنمية المستدامة، لكونها اختصت في تحفيز الأفراد على العمل على إحياء الأرض الموات، وذلك من خلال منح حوافز دنيوية وأخروية. ومن أمثلتها: «من أحيا أرضا ميتة فهي له»، «ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة».

ومن جانب آخر، يحتكم الاقتصاد الإسلامي الأخضر إلى مجموعة من قواعد عامة تمنع الضرر وتدفع المفسدة عن الأفراد وعن المجتمع، وهي قواعد فقهية استنبطها علماء المسلمين من القرآن الكريم والسنة النبوية. وأهم هذه القواعد هي قاعدة «لا ضرر ولا ضرار» المستمدة من الحديث النبوي: «لا ضرر ولا ضرار»، وتعني هذه القاعدة الفقهية بأن الضرر ممنوع في الإسلام في جميع صوره وأشكاله، ومن ثم يجب على أولياء الأمور والأفراد اتخاذ كافة الإجراءات المناسبة للحيلولة دون أن ينتج عن أعمالهم أضرار، وإذا ما حصل أي ضرر يوجب عليهم معالجته دون تأخير. إذن، وفقا لهذه القاعدة فإن إحداث أي ضرر بيئي مهما كان نوعه أو درجته هو ممنوع شرعا. وتوجد أيضا قاعدة «درء المفاسد مقدم على جلب المصالح»، والتي تستند على أن الشريعة في الأصل جاءت لجلب المنافع، ودرء المفاسد، فإذا تعارضت مصلحة ومفسدة قدم دفع المفسدة غالبا؛ لأن الشرع حريص على دفع الفساد، ويعتني بالمنهيات أشد من اعتنائه بالمأمورات. ومن ثم وفقا لهذه القاعدة، فإذا كان استغلال موارد البيئة لتحقيق منفعة ذاتية ومؤقتة سوف يتسبب في الإضرار بهذه الموارد بإفسادها أو استنزافها، فلا يسمح به، إذ إن منع الضرر والفساد يجب أن يقدم على أي منفعة عند استغلال البيئة.

كما نجد أن الاقتصاد الإسلامي الأخضر يستفيد من أحكام الفقه الإسلامي في التنظيم والحفاظ على مكونات البيئة. ومن أهمها على سبيل المثال المياه، وخاصة أنه قد تطورت الأحكام المتناثرة للمياه في كتابات الفقهاء أو في المحاكم الشرعية، لنرى الفقهاء وخبراء المياه يجمعون أحكام المياه في أبواب متكاملة، تعكس مدى ما وصلت إليه هذه الأحكام من تقدم، ومدى ما وصل إليه المسلمون من تقدم في حل مشكلات المياه.

وتعتبر كل من مؤسستي الأوقاف والحسبة من أهم الآليات المؤسسية التي يعمل الاقتصاد الإسلامي الأخضر على إعادة الاستفادة منها. فالمؤسسة الأولى تلعب دورا متميزا في تحقيق التنمية المستدامة، وبالإمكان استخدامها كأداة شعبية مهمة في تمويل الأنشطة البيئية، وخاصة أن التاريخ الإسلامي شاهد على وجود الكثير من الأوقاف في هذا المضمار. أما مؤسسة الحسبة فيمكن الاستفادة منها بشكل كبير في الرقابة البيئية على الأنشطة الاقتصادية، وكذلك التاريخ الإسلامي شاهد على الدور الرقابي المتميز للحسبة في مختلف الجوانب، ومن ضمنها الجانب البيئي.

وهناك الكثير مما يمكن أن نتناوله في إطار الاقتصاد الإسلامي الأخضر، ولكننا نختتم هنا بالإشارة إلى أن أهم ميزة للاقتصاد الإسلامي الأخضر تكمن في امتلاكه قيمة روحية، لكونه ينطلق من ثوابت دينية.

العقل في ضوء الوحي

خالد برادة
كاتب مغربي

لا نعدو الحقيقة إذا قلنا: إن العقل نعمة الله تعالى التي أهداها إلى الإنسان، ليكون خليفة في الأرض، يبني العمران، ويقيم صرح الحضارة وفق شرع الله تعالى، في علاقة لا تنفصم عراها بين الروح والمادة.

بيد أن كثيرا من الفرق التي ظهرت في التاريخ انحرفت عن جادة الصواب عندما اعتمدت على العقل وحده، وأعلت من شأنه، ومن هنا كان الانحراف الخطير عن الإسلام، كالمعتزلة مثلا، التي كانت من أول الفرق التي أباحت لنفسها الحرية الكاملة في إعلاء العقل المجرد، ومن ثم انطلقت في مناقشاتها العقيمة، وجدلها الذي لا طائل من ورائه، رافعة شعارا لطالما تردد على ألسنتهم: «فإن قُلتَ، قُلتُ»، ومرد ذلك هو التسلط على النصوص، وفهمها بعيدا عن منهج السلف، مما جعل تأويلاتهم مظنة للخطأ.

وليس المراد هاهنا الحديث عن المعتزلة وأضرابهم في الاعتداد بعقولهم، وإنما نريد لفت أنظار السادة القراء إلى الانحراف الخطير الذي يجعل العقل والوحي في انفصام نكد، ومرد ذلك هو الاعتماد على العقل وحده، في غفلة بل في تجاهل عن فهم الإسلام الأصيل الجامع بين العقل والوحي، ولقد انحرف الفكر البشري لأنه لم يجعل العقل يستنير بضوء الوحي وينتفع بجذوته، بل إن كثيرا من دعاة «العقلانية» قد اشتطوا، وركبوا مركبا وعرا، عندما تمردوا على الدين، ومنهم من يفصح عن عزمه للتخلي عنه في مقابل إيثاره عقله لأنه أصبح به متدينا، وهذا الكلام يردده أقطاب دعاة الحداثة والتغريب.

ومن المعروف أن الأفكار متعددة والثقافات مختلفة، فليس من الغريب أن يختلف العقل لذلك، ولكن الأنكى من ذلك أن يقدس العقل ويقدم على النقل، ومن كان هذا شأنه فإنه يتعامل مع نصوص الشرع بمنهج يجانب الصواب، حيث يجعل العقل هو الأصل المقدم، وبذلك يكون المرء قد أعطى الحرية الكاملة لنفسه للتسلط على نصوص الوحي، يقول ابن أبي العز الحنفي في هؤلاء: «إنما يذكرون نصوص الكتاب والسنة للاعتضاد لا للاعتماد، إن وافقت ما ادعوا أن العقل دل عليه قبلوه، وإن خالفته أولوه، وهذا فتح باب الزندقة، نسأل الله العافية» (١).

ولذلك فإنه من الضروري أن يسلم العقل للنقل، وهذا هو المذهب الذي نراه أصوب.

وإني أقف مشيدا بعظمة الإسلام في جوهره الناصع للمعرفة، فهو لا يصادر العقل، وإنما يحميه مما قد يجمح به من سفن الضلال، حتى لا ترى شطحاته وهفواته، لأن الوحي هو صمام الأمان، وهو الضوء الذي يهتدي العقل به، حتى يمارس نشاطه الفكري مقدما للإنسانية ما فيه الخير العميم.

هامش

١- شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، ص ٢٣٧.

الإسلام.. والخلاص الفردي

نجلاء محفوظ
استشارية ومفكرة إسلامية

يشع النور فيفيض على المكان كله ولا يخص جزءا بعينه، وكذلك الإسلام يدعو إلى إقامة حياة كاملة «تفيض» بالنور وبالخير على العالم بأسره.

يتنافسون ويتناسون

دخلت امرأة النار لحبسها قطة وغفر الله لبغي سقت كلبا، كما جاء في الحديث الشريف.

فما بالنا بمسلمين «ينسون» أن ديننا الحق لم يأت بالخلاص الفردي وجاء ليعم الخير الجميع؟!

فالكثيرون يتنافسون بالصلاة في أول أوقاتها وصيام التطوع وتكرار العمرة والحج، «ويتناسون» حقوق المسلمين عليهم، فالخالق عزوجل خاطبنا دائما بصيغ الجمع: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وفي الحديث الشريف «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، وإذا تحول هذا الحديث إلى أفعال لاختفت الأنانية، وحدة الطباع، وسوء الخلق، والتعدي على الحقوق، والغيبة و.. و..

تجاوزات يومية

لنتدبر قولنا مرات يوميا ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ (الفاتحة:٦)، فندعو لأنفسنا وللجميع بالهداية التي تتعارض مع فكرة «أنا ومن بعدي الطوفان»، التي يطبقها الكثيرون بالتجاوزات اليومية عند التعامل بالبيع والشراء وفي وسائل المواصلات، وفي التعامل بين الأزواج وبين الأهل والأبناء والأقارب والزملاء.

يرفض الكثيرون منح الوقت للإصلاح بين الناس، ويتناسون قول رسول ﷺ «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصدقة والصلاة (أي درجة الصيام النافلة والصدقة النافلة والصلاة النافلة)، فقال أبو الدرداء: قلنا: بلى يا رسول الله. قال: إصلاح ذات البين».

أحب الناس إلى الله

يغلق الكثيرون الأبواب تفرغا للتعبد، ويتناسون أن ديننا يتسع لإصلاح وتحسين كل جوانب الحياة، فلا رهبنة في الإسلام، ولا مجال للحديث عن الخلاص الفردي، ففي الحديث الشريف «إماطة الأذى عن الطريق صدقة»، وأن تدل الغريب على الطريق صدقة، وحديث «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة» وأشار بأصبعيه: السبابة والوسطى، والحديث الشريف «أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله عزوجل سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينا، أو تطرد عنه جوعا، ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في المسجد شهرا، ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظا ولو شاء أن يمضيه أمضاه، ملأ الله قلبه رضا يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجته حتى يثبتها له، أثبت الله تعالى قدمه يوم تزل الأقدام، وإن سوء الخلق ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل».

مسؤولية المسلم

يهتم البعض بتنشئة أبنائه على الخلق القويم ويظن أنه قام بدوره، ويتناسى مسؤوليته الكبرى ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ (آل عمران:١١٠).

فالمسلم «الحق» يكون دليلا متحركا على إيجابية الإسلام ودوره الفعال لصنع حياة أفضل «لجميع» المسلمين وليس للدائرة المقربة منه فقط.

ولنتدبر تنافس الصحابة رضوان الله عليهم في التصدق لنشر الإسلام.

ووصل عشق التصدق بالصحابة

إلى تألم الصحابي الجليل أبي ضمضم لعدم وجود مال لديه يتصدق به، ففكر في التصدق بعرضه؛ فسامح من يتحدث عنه بسوء وتصدق بذلك، وهو ما نفتقده اليوم، فتقل الصدقات أو ترتبط بالمن، فنجد من يعطي إلى الفقير المال ويقول له: ادع لي! أو من يفتخر بصدقاته ويتناسى الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ (البقرة:٢٦٤).

يربح دينيا ودنيويا

يسمح البعض للغل بالإقامة في عقله وقلبه فلا يتسامح مع من أساء إليه، ويتناسى الصحابي الجليل الذي كان يسامح الناس قبل نومه فاستحق أن يكون من أهل الجنة.

ومن سامح الناس يريح نفسه من احتضان الألم والمشاعر السلبية فيربح دينيا ودنيويا والعكس صحيح.

فالتسامح يفيد المتسامح ويشيع في المجتمع المسلم المؤاخاة وعدم التحفز وطرد العدوانية التي تستهلك الطاقات فيما يضر الفرد والمجتمع فيخسر الجميع.

ولنتذكر الحديث الشريف: «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب».

حاجز نفسي

يتجهم البعض طلبا للورع ويتناسون أن رسولنا الحبيب صلوات الله وسلامه عليه كان دائما مبتسما.

وهو القائل ﷺ «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق». وقال: «تبسمك في وجه أخيك صدقة».

يضع التجهم حاجزا نفسيا بين المسلم وأخيه المسلم وتشجع الابتسامة على التآلف والتراحم.

ويقلل البعض من أهمية الاندماج بين المجتمع، ويتناسون الحديث الشريف «يد الله مع الجماعة»، والآية ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ (آل عمران:١٠٣).

ويقل الاهتمام بصلة الرحم رغم مكانتها، ففي الحديث «من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه».

تمنح صلة الرحم الإنسان إحساسا لطيفا بالرضا الإيجابي عن النفس ويخرج من سجن الانغماس بمطالبه الدنيوية فيمنحه «براحا» نفسيا يضاعف طاقاته ويستفيد دينيا ودنيويا والعكس صحيح.

تراحم ومغفرة

لنتفكر في أركان الإسلام، فالزكاة فرضت «ليحس» الغني بأخيه الفقير، وليؤدي حق الله بماله بأريحية، وليتحقق التكاتف والتراحم الإنساني بين المسلمين.

ونرى فريضة الحج صورة للتآلف بين قلوب المسلمين من العالم كله، فيتساوى الجميع عبادا للرحمن وحده، وتتلاشى الفروق بين الأجناس واللغات والمراكز الاجتماعية والمادية.

وفي الحديث: «تعرض الأعمال في كل يوم خميس واثنين، فيغفر الله عزوجل في ذلك اليوم لكل امرئ لا يشرك بالله شيئا؛ إلا امرأ كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقال: اركوا هذين حتى يصطلحا، اركوا هذين حتى يصطلحا».

وهي دعوة لتنقية القلوب وليسود الود والوئام بين المسلمين.

تعارض مع الإسلام

عندما ندعو لأخينا بظهر الغيب يقال: ولك مثله. وهي ترسيخ للخلاص الجماعي لكل المسلمين ونبذ الخلاص الفردي لتعارضه مع جوهر الإسلام.

ففي الصيام نحس جميعا بالجوع والعطش، ونزداد إحساسا بالفقراء، وتنمو أحاسيس الرحمة بداخلنا، ونتوقف عن الدوران وفق مصالحنا ورغباتنا الشخصية.

ونتأمل طويلا الحديث الشريف «الدين النصيحة» فيأمرنا بالاهتمام «بمصالح» المسلمين فنستقطع أوقاتا «نسخرها» لمصلحة مسلم، ونمنحه النصيحة بحب ليعيش أفضل.

ونصل لثواب القرض الحسن لدعم التراحم بين المسلمين ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ (الحشر:٩).

ونتوقف عند حديث «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

ويدعو لصلاح الأمة كلها وليس الخلاص الفردي للمسلم وحده.

داخل الأسر

يتسع الخلاص الجماعي ليشمل الأسرة، ففي فضل طاعة المرأة لزوجها تجد حديث «إيما زوجة ماتت وزوجها راض عنها دخلت الجنة».

وحديث: «خيركم خياركم لأهله وأنا خياركم لأهلي».

وفضل إنفاق الأب على أولاده نعرفه من حديث: «دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجرا الذي أنفقته على أهلك».

لنجدد النوايا لنصبح مسلمين صالحين ومصلحين، ولنأخذ بأيدي كل من نعرفهم.

فالخلاص الفردي يحولنا إلى جزر منفصلة يسهل على أعدائنا من شياطين الأنس والجن «اقتناص» كل منا على حدة.

ويجعلنا الحرص على الخلاص الجماعي قوى متماسكة «يستحيل» على الأعداء النيل منا، وهو ما يستحق بذل السعي المتواصل لتحقيقه دوما.

رحلة البحث عن الحق

د. محمد علي يوسف
باحث دراسات إسلامية

لم يكن ذلك الشاب اليافع أبدا شابا عاديا.

كان سيدا في قومه، وابنا لأحد أهم وجهائهم.

في الحقيقة، لقد كان بمنزلة أمير، وليس أي أمير.

لقد كان أميرا مقدسا، ترتبط قداسته بقداسة إلههم الذي يعبدون، والذي يعد والده كاهنه الأعظم، والمسؤول عن إبقائه – الإله المزعوم أعني – حيا قويا.

حياة ترف، ودعة، وإجلال من شعبه، وقوة، ومال، وجاه، وسلطان.

لكن كل هذا لم يكن يستهويه.

لم تشغله الأموال والضيعات عن رغبته، ولم تثنه المكانة بين الناس عن مطلبه.

كان قلبه، رغم كل ذلك، يتوق إلى شيء آخر.

نداء يتصاعد بشكل مستمر من أغوار سحيقة لفطرة لم تنجح نجاسات الوثنية في طمسها.

نداء يخبره أن ثمة حقيقة مختلفة، وأن نيرانا، تحتاج إلى والده كي تبقى جذوتها متقدة، لا يمكن أبدا أن تستحق عبوديته.

ولقد استمع إلى النداء.

وقرر أن يستجيب له.

أتراه ذلك الكنيس المتاخم لحدود مدينته الأصبهانية العتيقة؟

أتراهم أولئك الرهبان الزاهدين العابدين هم من يملكون ما يبحث عنه ويعرفون جوابا يتوق إليه؟

لقد تنصّت إلى ترانيمهم أكثر من مرة، ولقد وقعت من نفسه موقعا حسنا.

لاشك أن هذا خير مما هو عليه وأقرب إلى فطرته التي تتململ خلف غيوم المجوسية الحمقاء.

تهلل قلب مشتاق إلى الحق، وفرحت نفس طالما اشرأبت باحثة عن الصدق، ولم يستطع أن يكتم تلك الفرحة.

لقد أخبر والده.

– هذا الدين خير مما نحن عليه.

– بل دينك ودين آبائك خير منه.

كانت تلك إجابة الوالد القولية، والتي تبعتها إجابة عملية، تمثلت في قيود غليظة جعلها في رجل ولده؛ خشية أن تدفعه فطرته المتوثبة للذهاب إلى غير رجعة، طالبة مبتغاها الوحيد، طالبة للحق، الذي يعلم الوالد، في قرارة نفسه، أنه لا يملك إجاباته، ولا يحيط بمنطقه، وأن أضواء نيرانه المتراقصة لم تكف لكشفها لولده.

ولقد وقع ما كان يحذر.

لم يلبث الشاب الباحث عن الحقيقة إلا أن كسر قيده، وتخلص من آصار أغلال الحديد التي مهما بلغ ثقلها تظل أخف وأهون من آصار وعلائق أخرى غليظة قد ألقاها من قبل عن قلبه.

لقد رحل

قصد الشام مبتغيا أصل ذلك الدين الجديد عليه.

لكن الأمر لم يكن في البداية كما تصور.

إن ذلك الرجل، الذي أرسلوه إليه ليمكث عنده متعلما، ووصفوه بأنه أعلمهم بهذا الدين، لم يكن أبدا مثالا جيدا لحملة الحق، بل كان في الحقيقة شر مثال.

كان راهب سوء يأكل أموال الناس بالباطل ولا يؤديها لمستحقيها حتى اجتمعت لديه ثروة عظيمة.. و ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (التوبة:٣٤).

لكن صاحبنا لم يصد.

لم يسارع إلى نمط النفور من الدين لخلل في حامليه، ولم يلجأ إلى فرضية العصمة التي تلبس للمتدينين وتكون عند انكسارها سبيلا إلى مغادرة الدين بحجة فساد أهله، ولم يعرف الحق أو يصد عنه بالرجال.

لقد استطاع بتجرد مذهل أن يصبر نفسه مع راهب السوء، ينهل مما لديه من الحق، ولا يخلطه بما عنده من الباطل حتى جاء أجل ذلك الراهب وحانت نهايته.

ثم كانت الجائزة

لقد أكرمه الله براهب آخر يخلف ذلك الفاسد، وشتان الفارق الذي كان بينهما.

وكذلك الصابر الصادق ييسر الله له سبل الهداية للحق حين يري الله من نفسه خيرا فيؤته خيرا.

مكث سلمان الفارسي لدى هذا الرجل الصالح ما شاء له الله أن يمكث، وتعلم من فعاله قبل أقواله، ثم حانت لحظة الفراق وجاء أجل الراهب.

لكن نهم المعرفة ورغبة البحث عن الحق لم تنطفئ جذوتهما بعد.

بل لعل وهجهما قد ازداد كلما اقترب.

سيدي، قد حضرتك الوفاة، فإلى من توصي بي؟ وما تأمرني؟

قال الراهب المحتضر: أي بني، والله

ما أعلم أحدا اليوم على ما كنت عليه، لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلا بالموصل وهو فلان، وهو على ما كنت عليه، فالحق به.

الطريق إذن لم يزل بعد طويلا

سيرحل الباحث عن الحق إلى المشرق من جديد. وبغيته هذه المرة العراق، ليس ليقترب من موطنه وعز أبيه وجاه منصبه وترف سلطانه، ولكن لأجل غايته السامية التي لم يعد في نفسه غيرها.

غاية البحث عن الحق

سيمكث الباحث في الموصل ما شاء له الله أن يمكث، ثم يتكرر الأمر، ويأتي الأجل عابدها ليقطع عليه تعلمه، لكنه لم يقطع همته وشغفه وسينطلق من شاطئ دجلة إلى ضفاف الفرات بنصيبين العتيقة؛ لينهل من عابدها، ثم يحيله ذلك الأخير عند إتيان سكرات موته إلى الشام من جديد؛ ليمكث لدى عابد عمورية ما شاء له الله أن يمكث حتى يأتيه أجله أيضا، فلا تفلح الأعوام الطويلة والرحلات الشاقة المتكررة في كسر همة الباحث، أو طمس شوقه للحقيقة، وإذا به يسأل عابد عمورية على فراش موته سؤاله المعتاد:

سيدي، قد حضرتك الوفاة، فإلى من توصي بي؟ وما تأمرني؟

لكن الإجابة هذه المرة كانت مختلفة.

كانت فصلا بين عصرين، وحدا فاصلا بين زمانين.

عصر عباد حنفاء معدودين متفرقين، وزمان ندرة حق وقلة صدق وعز يقين قد آذن بالانتهاء، وليُظل الكون زمان جديد.

زمان نبي

أي بني، والله ما أعلم أحدا أصبح على ما كنا عليه من الناس آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظلك زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب مهاجرا إلى أرض بين حَرّتَيْن بينهما نخل، به علامات لا تخفى، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل.

هكذا بين الراهب تلك الحقيقة الفاصلة، واقتربت الرحلة الطويلة من نهايتها، وأكرم بها من نهاية.

لكن صعوبات الرحلة لم تنته بعد، وصدق الباحث عن الحقيقة سيتعرض لاختبار أشد وأصعب.

إنه القيد من جديد، لكنه هذه المرة قيد الظلم والعبودية والأسر.

لقد أسرته تلك القافلة التي لحق بها إلى جزيرة العرب، وباعته رقيقا إلى رجل من يهود بني قريظة.

وهنالك كانت بغيته، ووجد مراده ووجهته.

لقد بلغ أرض النخل التي بين حَرّتَيْن، وبقي أن يصل إليها نبي آخر الزمان.

لقد بلغ يثرب، التي ستدعى بعد حين مدينة رسول الله.

بلغها عبدا أسيرا، وكان يستطيع، وهو شريف النسب مرموق الآل، أن يرسل إلى أهله الأغنياء ليفتدوه بالذهب والفضة.

لكنه لم يفعل!

صبر صاحبنا على مرار الأسر وضيم العبودية، لا لشيء إلا لتلك الغاية وذاك الهدف الذي قد اقترب.

ثم وصل.

وجاء النبي ﷺ إلى مدينته مهاجرا، وسارع إليه سلمان، وعرف صفته ونعته وخاتم النبوة وضيئا على ظهره، فانكب عليه يذرف دموعا ساخنة.. دموعا ترسم على وجنته بريق فرحة طال انتظارها، واحتمل الباحث في سبيلها مشاق وصعوبات يندر أن تجد من يحتملها.

ها قد وصل وأدرك المنزل

«إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة علي وعمار وسلمان».. هكذا أعلنها النبي ﷺ وجمع سلمان الفارسي الأعجمي بعيد النسب إلى جوار صاحبيه المهاجرين المجاهدين الباذلين المضحيين اللذين كانا على الأذى والصعوبات صابرين محتسبين.

جمعه إليهما مخبرا بشرفه العظيم ومكانه الكريم في جنة الخالدين التي تشتاق إلى لقائه.

وكيف لا وقد اشتاق إليها وسلك سبيلها مضحيا بكل غال ونفيس لأجل بلوغها وبلوغ طريقها.

طريق الحق

لقد كان سلمان نموذجا حيا لتلك القيمة التي تكاد تندثر اليوم خلف طبقات التعصب والتحزب وتقليد الآباء والمتبوعين.

قيمة البحث عن الحق وبذل كل ما يستطيع الإنسان ليصل إليه.

لقد تجلت تلك القيمة في جملة نبوية من أعجب ما يكون.. «اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم».

رسول الله ﷺ المعصوم، الذي يأتيه الوحي من السماء، والذي لا ينطق عن الهوى، يفتقر إلى مولاه ليهديه إلى الحق الذي اختلف فيه.

إنه درس عملي مذهل يدلنا من خلاله الحبيب ﷺ على تلك القيمة.

قيمة طلب الحق، والبحث عنه، وعدم الركون إلى المتوارث المتعارف عليه، وترك الاستسهال عند الخلاف.

بل افتقار ورغبة للوصول تتجلى في لفظه الجامع مناجيا به ربه «اهدني لما اختلف فيه من الحق».

تقرير لتلك الحقيقة وذلك الأصل أن هناك خلافا قد يحدث بين الناس، وكل يدعي وصلا بالحق، والله وحده يهدي إلى الحق.

لكن تلك الهداية قرينة الصدق وثمرة الافتقار والبذل.

هكذا رأينا في قصة سلمان.. ذلك الباحث عن الحق، وكذلك في حياة كل باحث بصدق عن الحق.

وهكذا وعد الملك الحق، فقال وقوله الحق ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (العنكبوت:٦٩).

فلسطين الثروة الباقية!

شهاب الدين عبدالله المحمدي
عضو الهيئة الشعبية لنصرة فلسطين

■ الأرض تحبنا كما نحبها، وتفارقنا كما نفارقها، البين لنا وله، والوصل لها دائما، ونرجو أن يكون بعضه لنا.. تلك هي فلسطين، كلام في الذكرى وكلوم للتذكر، رحلت عنا فبقينا قبرا تزوره، وذهبنا إليها فبقينا طريق غايات في أنفسنا نريده ونسيره، لكنها فلسطين حكاية تقول فنسأل كل أحرفها عن كل الحكايات، وقصة تستعد للغضب فنستعد معها أفراح النهاية، ونرجو أن نلقى ونرغب أن نرى ونحب أن نجد.

■ كل شيء في فلسطين هو فلسطين فكيف يجتزأ؟! مثل الكمال تماما.. جرِّد الكمال من بعضه مثلا ثم أشر إليه قائلا: هذا هو الكمال، يضحك اللسان عندئذ فإنه بيان، ويغضب الكلام عندئذ لأنه قرآن، ويبقى الكلام عندئذ صوتا في الإشارة لكنه لن يكون أبدا حرفا في حروف المعنى وقد حدثونا وحدثونا ولم تكلمهم بعد، ألأننا فراغ في الكلام فلا يعرفونه! أم لأنه فضاء في أمنيات النجوم فلا نصل إليه؟ ولأن العالم ليس عربيا يصبح الظلم فنا في الكلام، ويصبح الحديث سلطانا في الظلم والظلام، كل شيء عندئذ يبقى يفسر نفسه بجهل غيره به، أو بحيرة سواه منه، أو بسخرية كل منطق من منطقه.

■ أيها العالم، إذن هل علينا أن نحملك على العروبة علما وعلى العروض وزنا وعلى الشعر حلما وعلى الضاد حكما؛ حتى تعلم أن كل شيء في فلسطين هو فلسطين، وأن كل شبر في فلسطين هو قصة فلسطين، ونفس فلسطين، وجسد فلسطين، وقلب فلسطين، وفؤاد فلسطين، وروح فلسطين، وسويداء فلسطين. إذا وقفت

على قبور الكلام فأحياها حياء الإمكان العربي والإسلامي من عدم ألا ممكن.

■ أريد فلسطين كعربي ومسلم كما أريد حياتي، أريد كمال فلسطين كما أحب أمنياتي وأتغيا (أجعلها غاية) أمنية فلسطين كما أتغيا مكة الإبراهيمية وأرحل في نور محمدي.

■ أيها العابثون بممكنات الكلام، قرارات سياسية وفيتوات اقتصادية واجتماعية ودينية وطائفية وعرقية وبيولوجية، أريد فلسطين عربية مثل كلامي، حبيبة مثل أحلامي، شجرة تفاح أو زيتون لا تقسم بمنشار السياسة، لأن الحياة كلٌ واحدٌ كما تعلمنا من الله.

ـ أيها العابثون بممكنات الصور، هنا شعب رحل بعيدا، هنا معتقل، هنا شباب اختطفوا يهودا، هنا نسوة افترشن حصيرا، هنا طفل سقط شهيدا، هنا شيخ ارتقى إلى بارئه قعيدا، هنا زيتون يقتلع، هنا قرية تنتزع، وهنا وليس هنا بل هناك عندكم قتل ومنطق يبتدع.

■ أحب أن أرى الصور كما أحب أن أرى أمي، قدسا لا تقتسم، ومكة لا تغتنم، وطيبة ويثربا لكن قلبا يحترم، لي لساني ولي الكلام عالما، ولي الكون حروف قولي ذهبا وفضة وحديدا ونسيجا إدريسيا، قل للشمس كم خيطا في خزائنك! انظر عندئذ كم سيحجبك سؤالك عنها.

■ أيها العابثون بأمنيات القلب، أحب أمي فسموها، أعرف أنكم ستختارون اسما غير اسمها، ونسبا غير نسبها، وحبا غير حبها، وولدا غير ولدها، ستسمون كل شيء بأي شيء، لكنكم ستعجزون عن نطق اسم أمي، ستعجزون عن وصف وجه أمي، ستتركون كل غاية أحبها لغاية أخرى بحجم قولكم، فأي شيء منكم يحبها وأي شيء منها يحبكم، هنا فلسطين هنا فلسطين، فلسطين الثروة الباقية.

■ الآن.. الآن.. أذيع الخبر جاءنا ما يلي: فلسطين تعلن نفسها ساعة في يوم القيامة هي هي قالت بأنكم نسيتم الوقت وإنني وقلة ما زلنا نذكره، أريد أن أقول هنا جملة نطقتها عند يوم القيامة كل المكان فيها يأبى كل شيء إلا نفسه وكل الزمان معها يصاحب نفسه وحيدا إلا قلبه، هنا قلب فلسطين يعلن دمه ويبحث عن جسده، لذا تعلن فلسطين كل فلسطين أنها أم الضاد، وابنة الضاد، ونفس صرخت في جسد الضاد، وأن المترجمين كثر، كل العالم كما تقول فلسطين هو بابل، ووحدي أنا وفلسطين نشرب عروبة الضاد، وانتهى الخبر!

كنوز الذاكرة .. ركن نرجع فيه بالقارئ الكريم إلى بدايات القرن الماضي وما تلاه، نقرأ لعباقرة ذاك الزمان، بحروف وطباعة تلك الأيام، حتى نعيش معا الذكرى بشكلها ومضمونها.

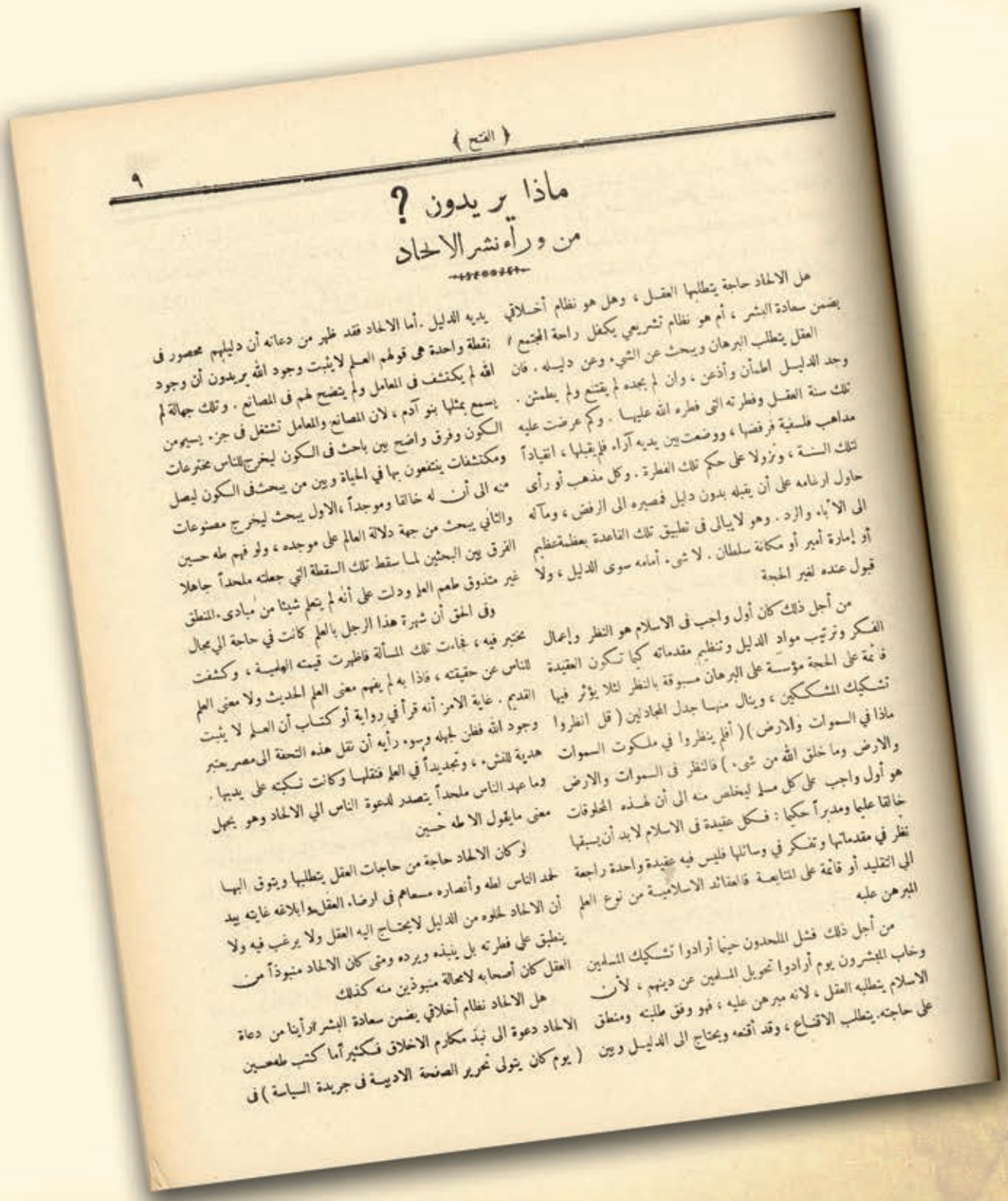

(الفتح)

٩

ماذا يريدون ؟

من وراء نشر الالحاد

هل الالحاد حاجة يتطلبها العقل ، وهل هو نظام أخلاقي يضمن سعادة البشر ، أم هو نظام تشريعي يكفل راحة المجتمع ؟

العقل يتطلب البرهان ويبحث عن الشيء وعن دليله . فان وجد الدليل اطمأن وأذعن ، وان لم يجده لم يقتنع ولم يطمئن . تلك سنة العقل وفطرته التي فطره الله عليها . وكم عرضت عليه مذاهب فلسفية فرفضها ، ووضعت بين يديه آراء فلم يقبلها ، انقياداً لتلك السنة ، ونزولا على حكم تلك الفطرة . وكل مذهب أو رأي حاول ارغامه على أن يقبله بدون دليل فصيره الى الرفض ، ومآله الى الاباء والرد . وهو لا يبالي في تطبيق تلك القاعدة بعظمة عظيم أو إمارة أمير أو مكانة سلطان . لا شيء أمامه سوى الدليل ، ولا قبول عنده لغير الحجة

من أجل ذلك كان أول واجب في الاسلام هو النظر وإعمال الفكر وترتيب مواد الدليل وتنظيم مقدماته كيما تكون العقيدة قائمة على الحجة مؤسسة على البرهان مسبوقة بالنظر لئلا يؤثر فيها تشكيك المشككين ، وينال منها جدل المجادلين (قل انظروا ماذا في السموات والارض) (أفلم ينظروا في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء) فالنظر في السموات والارض هو أول واجب على كل مسلم ليخلص منه الى أن لهذه المخلوقات خالقا عليما ومدبراً حكيما : فكل عقيدة في الاسلام لابد أن يسبقها نظر في مقدماتها وتفكر في وسائلها فليس فيه عقيدة واحدة راجعة الى التقليد أو قائمة على المتابعة فالعقائد الاسلامية من نوع العلم المبرهن عليه

من أجل ذلك فشل الملحدون حينما أرادوا تشكيك المسلمين وخاب المبشرون يوم أرادوا تحويل المسلمين عن دينهم ، لأن الاسلام يتطلبه العقل ، لانه مبرهن عليه ، فهو وفق طلبته ومنطق على حاجته. يتطلب الاقناع ، وقد أقنعه ويحتاج الى الدليل ويبن يديه الدليل . أما الالحاد فقد ظهر من دعاته أن دليلهم محصور في نقطة واحدة هي قولهم العلم لا يثبت وجود الله فالله لم يكتشف في المعامل ولم يتضح لهم في المصانع . وتلك جهالة لم يسبق بمثلها بنو آدم ، لان المصانع والمعامل تشتغل في جزء يسير من الكون وفرق واضح بين باحث في الكون ليخرج للناس مخترعات ومكتشفات ينتفعون بها في الحياة وبين من يبحث في الكون ليصل منه الى أن له خالقا وموجداً ، الاول يبحث ليخرج مصنوعات والثاني يبحث من جهة دلالة العالم على موجده ، ولو فهم ملحد حسين الفرق بين البحثين لما سقط تلك السقطة التي جعلته ملحداً جاهلا غير متذوق طعم العلم ودلت على أنه لم يتعلم شيئا من مبادىء المنطق

وفي الحق أن شهرة هذا الرجل بالعلم كانت في حاجة الى مجال يختبر فيه ، فجاءت تلك المسألة فاظهرت قيمته العلمية ، وكشفت للناس عن حقيقته ، فاذا به لم يفهم معنى العلم الحديث ولا معنى العلم القديم . غاية الامر أنه قرأ في رواية أو كتاب أن العلم لا يثبت وجود الله فظن لجهله وسوء رأيه أن نقل هذه التحفة الى مصر يعتبر هدية للعرش ، وتجديداً في العلم فنقلها وكانت نكبته على يديها . وما عهد الناس ملحداً يتصدر لدعوة الناس الى الالحاد وهو يجهل معنى ما يقول الا طه حسين

لو كان الالحاد حاجة من حاجات العقل يتطلبها ويتوق اليها احد الناس لطه وأنصاره مساعي في ارضاء العقل وابلاغه غايته بيد أن الالحاد لخلوه من الدليل لا يحتاج اليه العقل ولا يرغب فيه ولا ينطبق على فطرته بل ينبذه ويرده ومتى كان الالحاد منبوذاً من العقل كان أصحابه لا محالة منبوذين منه كذلك

هل الالحاد نظام أخلاقي يضمن سعادة البشر ؟ رأينا من دعاة الالحاد دعوة الى نبذ مكارم الاخلاق فكثيراً ما كتب طه حسين (يوم كان يتولى تحرير الصفحة الادبية في جريدة السياسة) في

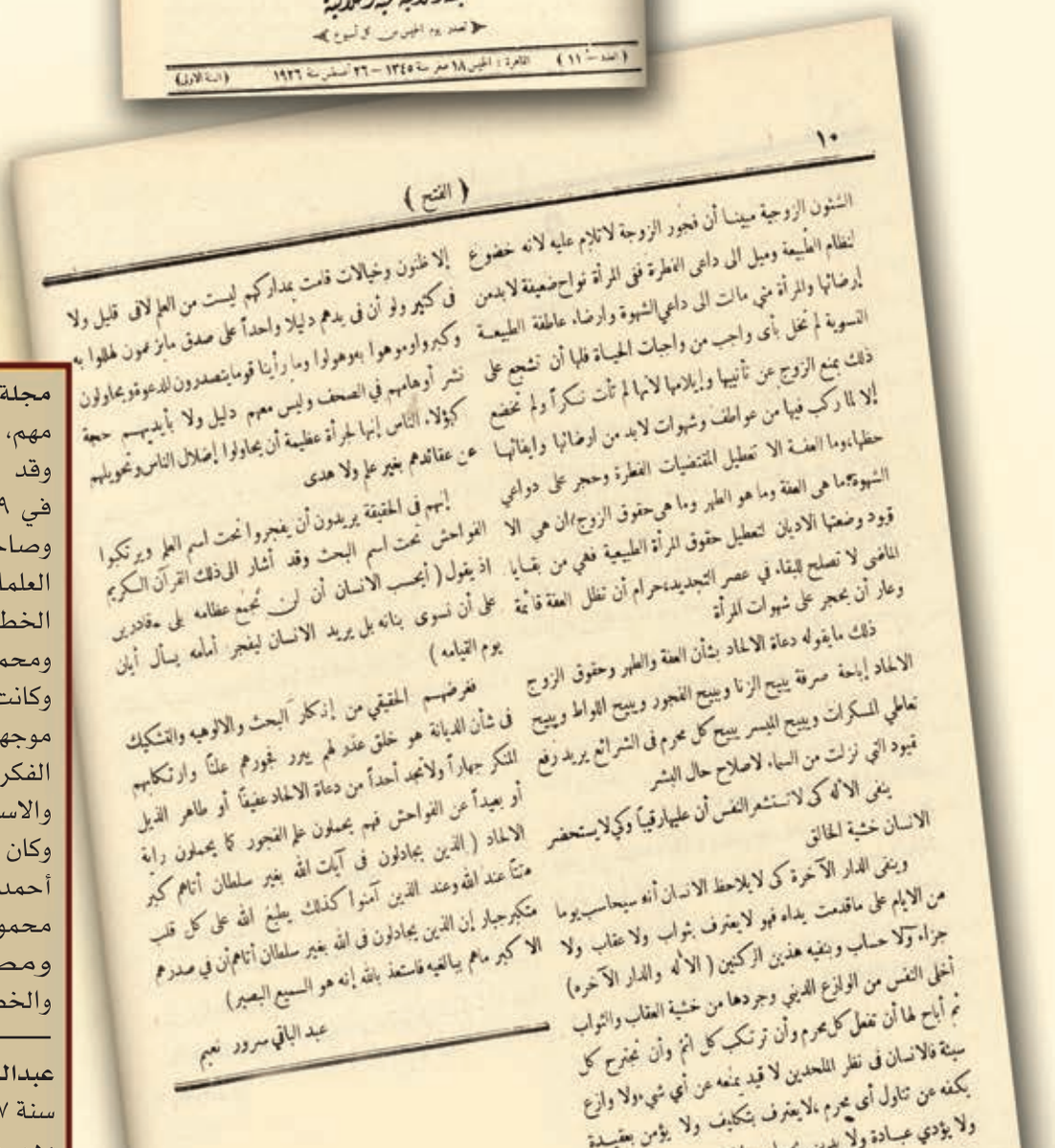

١٠

(الفتح)

الشئون الزوجية بيننا أن فجور الزوجة لا تلام عليه لانه خضوع لنظام الطبيعة وميل الى داعي الفطرة فى المرأة نواح ضعيفة لا يدمن إرضائها والمرأة مني مالت الى داعي الشهوة وارضاء عاطفة الطبيعة التسوية لم تخل بأى واجب من واجبات الحياة فلها أن تشجع على ذلك بمنع الزوج عن تأنيبها وإيلامها لانها لم تأت تكرآ ولم تخضع إلا لما ركب فيها من عواطف وشهوات لابد من ارضائها وايقائها حظها، وما العفة الا تعطيل المقتضيات الفطرة وحجر على دواعي الشهوة، ما هي العفة وما هو الطهر وما هي حقوق الزوج، ان هي الا قيود وضعتها الاديان لتعطيل حقوق المرأة الطبيعية فهي من بقايا الماضي لا تصلح للبقاء في عصر التجديد، حرام أن تظل العفة قائمة وعار أن يحجر على شهوات المرأة

ذلك ما يقوله دعاة الالحاد بشأن العفة والطهر وحقوق الزوج

الالحاد إباحة صرفة يبيح الزنا ويبيح الفجور ويبيح اللواط ويبيح تعاطي المسكرات ويبيح الميسر يبيح كل محرم فى الشرائع يريد رفع قيود التي نزلت من السماء لاصلاح حال البشر

ينفى الالهة كي لا تستشعر النفس أن عليها رقيباً وكي لا يستحضر الانسان خشية الخالق

وينفى الدار الآخرة كي لا يلاحظ الانسان أنه سيحاسب يوما من الايام على ماقدمت يداه فهو لا يعترف بثواب ولا عقاب ولا جزاء ولا حساب وبنفيه هذين الركنين (الالهة والدار الآخرة) أخلى النفس من الوازع الديني وجردها من خشية العقاب والثواب ثم أباح لها أن تفعل كل محرم وأن ترتكب كل اثم وأن تجترح كل سيئة فالانسان فى نظر الملحدين لا قيد يمنعه عن أي شيء ولا وازع يكفه عن تناول أي محرم، لا يعترف بتكليف ولا يؤمن بعقيدة ولا يؤدي عبادة ولا يدين بحساب ولا يتحرج من أتيان منكر قبل شهد بنو آدم دعوة الفطع من تلك الدعوة وأبشع

(وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون)

حقاً ما لهم بذلك من علم فأن نفي الخالق وجحد الالهة وانكران الدار الآخرة كل أولئك لا برهان لهم به ولا دليل لهم عليه إن هي إلا ظنون وخيالات قامت بمداركهم ليست من العلم لا فى قليل ولا فى كثير ولو أن فى يدهم دليلا واحداً على صدق مايزعمون لطلعوا به وكبروا وموهوا بموهولوا وما رأينا قوما يتصدون للدعوة ويحاولون نشر أوهامهم في الصحف وليس معهم دليل ولا بأيديهم حجة كهؤلاء الناس إنها لجرأة عظيمة أن يحاولوا إضلال الناس وتحويلهم عن عقائدهم بغير علم ولا هدى

إنهم فى الحقيقة يريدون أن يفجروا تحت اسم العلم ويرتكبوا الفواحش تحت اسم البحث وقد أشار الى ذلك القرآن الكريم اذ يقول (أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوى بنانه بل يريد الانسان ليفجر أمامه يسأل أيان يوم القيامه)

فغرضهم الحقيقي من إذكار البحث والالوهيه والتشكيك فى شأن الديانة هو خلق عذر لهم يبرر فجورهم علناً وارتكابهم المنكر جهاراً ولا تجد أحداً من دعاة الالحاد عفيفاً أو طاهر الذيل أو بعيداً عن الفواحش فهم يحملون علم الفجور كما يحملون راية الالحاد (الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار إن الذين يجادلون فى الله بغير سلطان أتاهم أن في صدورهم الا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير)

عبد الباقي سرور نعيم

مجلة الفتح: منبر صحفي مهم، قامت سنة ١٩٢٦، وقد صدر أول عدد لها في ٢٩ ذي القعدة ١٣٤٤، وصاحب فكرتها نخبة من العلماء، منهم: محب الدين الخطيب وأحمد تيمور باشا ومحمد الخضر حسين، وكانت في موضوعاتها موجهة لرد شبه دعاة الغزو الفكري والتغريب والتنصير والاستشراق.

وكان من أعظم كتابها: أحمد محمود شاكر وأخوه محمود وشكيب أرسلان، ومصطفى الرافعي والخضر حسين وغيرهم.

عبدالباقي سرور نعيم: ولد سنة ١٣٤٧هـ الموافق ١٩٢٨م وهو عالم مصري أزهري، ولد ومات بقراقص من قرى دمنهور، رأس تحرير مجلة الفتح، وكان معروفا بمواقفه الوطنية، وبعدائه الشديد للإنجليز.

أصيب بالسل ومات قبل أن يبلغ الخمسين من عمره، له كتاب «الإسلام ماضيه وحاضره» وغيره.

إعداد : د. محمود محمد الكبش
الباحث بوحدة البحث العلمي
(إدارة الإفتاء)

رجوع المفتي عن فتواه (أسبابه وآثاره) (٢/٢).

أما الآثار المترتبة على رجوع المفتي عن فتواه؛ فيمكن إجمالها في مسائل ثلاثة:

- المسألة الأولى: حكم إعلام المفتي للمستفتي برجوعه عن الفتوى.

وقد اختلف العلماء في هذه المسألة على أربعة أقوال: فمنهم من ألزم إعلامه؛ وهو مذهب ابن مسعود رضي الله عنه. ومنهم من لم يلزمه مطلقا؛ وهو مذهب بعض الحنابلة. ومنهم من فرق؛ فإن عمل المستفتي بفتوى المفتي؛ فلا يلزمه إعلامه، وإلا لزمه. ومنهم من فصل: فيلزم المفتي إعلام المستفتي برجوعه إذا كانت الفتوى الأولى واجبة النقض؛ بأن خالفت نصا من كتاب أو سنة أو إجماع. أما إذا كانت محل اجتهاد، وكان التغير لمخالفة مذهب، أو قول؛ فلا يلزم المفتي إعلام المستفتي.

وهذا هو القول الراجح، والله أعلم، وهو اختيار الخطيب البغدادي، وغيره من العلماء؛ مستدلين بما روي عن ابن مسعود، وعن الحسن بن زياد اللؤلؤي: «أنه استفتي في مسألة فأخطأ، فاكترى مناديا ينادي أنه: رجع عن فتواه في مسألة كذا وكذا، وانتظر حتى رجع المستفتي، فأعلمه بالرجوع» رواه الخطيب في «الفقيه والمتفقه»، وابن الجوزي في «تعظيم الفتيا».

- المسألة الثانية: حكم عمل المفتي نفسه بفتواه بعد رجوعه.

وصورتها: كمن تزوج امرأة بغير ولي، ثم تغير اجتهاده؛ فهل تحرم عليه، ويلزم تجديد العقد بولي.

أيضا اختلف العلماء في هذه المسألة على أقوال: فمنهم من ألزمه بالرجوع عن فتواه القديمة، وأبطل عمله بالأولى؛ وهو مذهب بعض الفقهاء؛

سن المحرم للحج

رقم الفتوى (١٩٧)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي:

أريد إرسال زوجتي مع ابني البالغ من العمر ١٥ سنة كمحرم لها ولابنتي البالغة من العمر عشرين سنة، وهناك من يعترض على ذهابهم للحج، فأرجو إفتائي بذلك.

أجابت اللجنة بما يلي:

إن الشاب البالغ من العمر خمس عشرة سنة، إذا سافر مع أمه أو أخته إلى الحج يتحقق به المحرم المطلوب شرعا لسفر المرأة، وبناء عليه؛ فلا مانع شرعا من سفرهما معه. والله أعلم.

ترك الحج بسبب الوباء

رقم الفتوى (١٩٨)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي:

الرسول ﷺ حذر من الوباء احتياطا من انتشاره. بما معناه: «إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها، وإذا كنتم في أرض هو فيها فلا تخرجوا منها»؛ فكيف بالحجاج، وسيأتون من بلاد فيها وباء الكوليرا؟ وهل يباح للدولة السعودية أن تمنع دخول الحجاج من البلاد الموبوءة؟ وهل يترك من وجب عليهم الحج الحج؟

أجابت اللجنة بما يلي:

إذا ثبت علميا خطورة هذا التجمع، بقرار أهل الخبرة والعدالة من المسلمين المختصين، وأنه لا سبيل إلى منع انتشار هذا الوباء إلا بمنع التجمع، فلا مانع من أن تتخذ الإجراءات التي تراها الجهات المختصة، ومنها منع من يريد الحج من البلاد الموبوءة، أما من وجب عليه الحج إن منع من الحج بسبب الإجراءات الحكومية، فلا حرج عليه في التأخير.

وإذا لم يمنع؛ ولكن غلب على ظنه بسبب مقبول كاحتمال الإصابة بالوباء، فلا يأثم بالتأخير، حتى عند من يرى أن الحج واجب على الفور؛ لعدم الأمن، ولا عبرة بالخوف المبني على مجرد الوهم.

وإذا أخر من وجب عليه الحج الحج بسبب الوباء؛ فلا يسقط عنه الحج، وعليه أداؤه عند زوال المانع. والله أعلم.

من الحنفية، والمالكية، والحنابلة.
ومنهم من لم يلزمه الرجوع إلى فتواه القديمة، ولم يحرم عليه العمل بالأولى؛ وهو قول بعض الحنفية.
ومنهم من فصل:
فإن حكم القاضي بصحة الفتوى الأولى؛ ثبتت، ولا يبطل العمل بموجبها، وإن لم يحكم بها؛ وجب نقضها، وحرم العمل بها؛ وهو قول عند الحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنابلة.
وهذا القول هو الراجح، وهو اختيار جمع من العلماء منهم الخطيب البغدادي، والنووي رحمهم الله.
المسألة الثالثة: حكم عمل المستفتي بالفتوى الأولى بعد رجوع المفتي.
محل الخلاف في هذه الصورة ما إذا لم يحكم القاضي بمقتضى الفتوى الأولى؛ أما إذا حكم القاضي بالفتوى الأولى فإن حكمه يرفع الخلاف؛ إلا إذا خالف نصا.
وفي صورة محل الخلاف حالتان:
الحالة الأولى: إذا عمل المفتي بفتوى العالم؛ كالزواج بلا ولي؛ فمنهم من حرم على المستفتي العمل بالفتوى مطلقا؛ وهو قول لبعض الحنفية والشافعية. ومنهم من حرم عليه العمل بالفتوى إذا كان رجوع المفتي بناء على مخالفة مذهب إمامه، لا لمحض الاجتهاد، وهذا قول لبعض الحنابلة.
ومنهم من حرم عليه العمل بالفتوى إذا كان رجوعه بسبب مخالفة النص من كتاب أو سنة أو إجماع، لا لتغير اجتهاده وحسب؛ وهذا قول جماهير أهل العلم من أئمة المذاهب الأربعة.
والراجح - والله أعلم - هو المذهب الثالث؛ لموافقته فعل السلف.
الحالة الثانية: أن يعلم المستفتي برجوع المفتي عن فتواه قبل أن يعمل بالفتوى؛ فمنهم من حرم عليه العمل بعد علمه برجوع مفتيه مطلقا؛ وهو مذهب كثير من أئمة المذاهب الأربعة. ومنهم من فصل:
فإن سأل غيره من العلماء، وأفتاه بما يوافق الفتوى الأولى؛ عمل بها، ولا يلزمه الرجوع، وإن أفتاه بما يوافق الفتوى الثانية، أو لم يجد من يفتيه؛ فإنه حينئذ يحرم عليه العمل بالفتوى الأولى؛ ما لم تكن الفتوى الأولى مخالفة صريح الكتاب والسنة.
وهذا القول رجحه ابن القيم رحمه الله، وانتصر له.
يرجع في هذه المسألة إلى: «الفقيه والمتفقه» (٤٢٤/٢) وما بعدها، و«صفة الفتوى» (ص٣٦)، و«تعظيم الفتوى» (ص٩٣)، و«النهج الأقوى»؛ للعريني (٥٢٥) وما بعدها.

تأجيل الحج والعمرة بسبب عدوى متوقعة

رقم الفتوى (٥٩٤١)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي:

إذا حدث أن تصادف مع قرب موسم الحج تفشي مرض معد مثل: سارس، وغيره، وكان من الممكن انتقال العدوى إلى أي حاج أو معتمر، فهل هذا مسوغ لمن لم يقم بفرضه بالعدول عن الحج في ذلك العام؟

أجابت اللجنة بما يلي:

إذا كانت العدوى متوقعة أو يغلب على الظن وقوعها ولم يمكن التغلب عليها ببعض اللقاحات الناجعة، فيمكن تأجيل حج الفرض إلى عام قادم، لأن ذلك يعتبر عذرا شرعيا مبررا للتأجيل، عند من يرى وجوب فورية الأداء عند الاستطاعة، ومدار ثبوت ذلك على قول الأطباء المختصين، والسلطات الصحية في الدول الإسلامية. والله أعلم.

خروج المعتدة للحج

رقم الفتوى (٢٠٣)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي:

ما حكم المعتدة من الوفاة؛ هل يجوز أن تذهب إلى الحج؟

أجابت اللجنة بما يلي:

إنه لا يجوز أن تذهب إلى الحج مادامت في عدتها، سواء أكان حجها فرضا أو غير فرض، لأن المعتدة مأمورة بالاعتداد في منزلها ومنهية عن الخروج منه، إلا أن تخرج لحاجتها نهارا، على أن تبيت في منزلها، ولأن الاعتداد يفوت بفوات وقت العدة، والحج يمكن تداركه. والله أعلم.

حج المرأة عن الغير

رقم الفتوى (٢٠٩)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي:

هل يجوز توكيل المرأة بالحج عن الرجل؟

أجابت اللجنة بما يلي:

يجوز توكيل المرأة بالحج عن الرجل إذا كانت قد أدت حجة الفرض عن نفسها. والله سبحانه وتعالى أعلم.

الضحك والبكاء في القرآن الكريم

الإنسان يفرح ويحزن، ويضحك ويبكي، ويهدأ ويثور، ويرق ويقسو، ويظهر أن الانفعالات والمشاعر والأحاسيس أهم ما يميز الإنسان عن غيره من المخلوقات، فهو الإنسان الذي ميزه الله سبحانه وتعالى بالعقل، وأمره بالنظر والتفكر والتدبر.. والقرآن الكريم يلفت الأنظار إلى قدرة الله تعالى الذي يضحك ويبكي، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾ (النجم:٤٣). يقول الأستاذ عباس محمود العقاد: «للضحك عدة أسباب، أكثرها يدور حول محور واحد هو الاغتباط بأنفسنا: اغتباطنا إما بما نحسه من كمالها أو بسلامتنا من النقص الذي نكشفه في سوانا. وقد يضحك الإنسان من نفسه إذا كان الاستهزاء لا يناله وحده، ومن العجيب أن نرى صاحب الجاه والسلطان وهو يبكي، ونرى صاحب الأموال والثروات وهو يبكي، ونرى الضعيف وهو يضحك، ونرى الصعلوك وهو يضحك.. إنه أمر بيد الله سبحانه وتعالى ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾ (النجم:٤٣). وقد كان كفار قريش يسمعون القرآن الكريم فيضحكون استهزاء وسخرية.. إنهم غافلون ضالون، لو علموا ما ينتظرهم من عقاب لبكوا.

قال تعالى: ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ٥٩ وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ٦٠﴾ (النجم: ٥٩-٦٠). ويعرض القرآن الكريم مشهد الضحك والسخرية من المؤمنين والاستهزاء بهم.. هذا المشهد الذي يدل على فساد الكفار وجحودهم، وعنادهم، ووقوفهم في وجه الحق والخير، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩﴾ (المطففين:٢٩)، ويعرض القرآن الكريم المشهد المقابل، لقد تغير الوضع، وأصبح الكفار هم موضع الضحك والسخرية والاستهزاء، وأصبح المؤمنون في موضع العزة والكرامة والنعيم، قال تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ٣٤﴾ (المطففين:٣٤).

ومن مشاهد البكاء في القرآن الكريم مشهد إخوة يوسف عندما جاءوا أباهم عشاء يبكون، وهو بكاء تمثيل وخداع، عندما تخلصوا من أخيهم يوسف وألقوه في غيابة الجب، وادعوا أن الذئب قد أكله، قال تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦﴾ (يوسف:١٦).

● د. يحيى سنبل

خادم القرآن الكريم والسنة النبوية

تاريخنا الإسلامي مليء بسير العظماء والنابهين، وحينما يتحدث عنهم هذا التاريخ يذكرهم في صفحاته بريشة الإكبار والتعظيم، لأنهم حليته وزينته، ومن أبرزهم محمد فؤاد عبدالباقي صالح، المولود في قرية ميت حلفا من أعمال مدينة قليوب بمحافظة القليوبية (مصر) في يوم الأربعاء الثامن من مارس سنة ١٨٨٢م، لأب صعيدي حل على القرية بحكم عمله بالإدارة المالية لوزارة الحربية، فأحاطته ميت حلفا بكل حب وود، واليوم تتوافد عليه القرية لتهنئته وعروسه بأول مولود يرزقانه «محمد فؤاد».

وفي سنة ١٨٩٩م وهو في السابعة عشرة من عمره ترك مدرسة الأميركان بعد أن استمر بها عامين، ويتضح أنه لم يتلق تعليما منتظما مألوفا؛ لأنه رغب أن يتلقى تعليما يتفق ومواهبه وهواه ورغبته واستعداده، فالتحق بالعمل مدرسا للغة العربية في إحدى المدارس الخاصة، ثم ناظرا لمدرسة أخرى سنة ١٩٠٣م، ولما تفتحت مواهب محمد فؤاد عبدالباقي وملكاته وبدأت تفصح عن نفسها؛ بدأ ينظم الشعر.

خلف لنا محمد فؤاد عبدالباقي تراثا فكريا خالدا؛ تمثل في تحقيقه وترجمته وتأليفه العديد من الكتب القيمة في مجال القرآن الكريم والسنة النبوية، نذكر منها ترجمته لكتاب «تفصيل آيات القرآن الكريم» للمستشرق الفرنسي جول لابوم، وهذا الكتاب مقسم إلى ثمانية عشر بابا، هي «التاريخ، محمد ﷺ، التبليغ، بنو إسرائيل، التوراة، النصارى، ما بعد الطبيعة، التوحيد، القرآن والدين، العقائد، العبادات، الشريعة، النظام الاجتماعي، العلوم والفنون، تهذيب الأخلاق، النجاح»، كتاب «معجم غريب القرآن مستخرجا من صحيح البخاري» والكتاب عبارة عن شرح الألفاظ التي أوردها البخاري في صحيحه، والتي أخذها عن ابن عباس من طريق ابن أبي طلحة.

● محمد فؤاد علي

القراء الأعزاء: نستقبل اقتراحاتكم ومساهماتكم التي من شأنها إشاعة الخير بين ربوع الأمة على البريد الإلكتروني:

info@alwaei.com

aelbarbary@live.com

الصلح خير

في دنيا الناس كم تكون الحياة سعيدة إذا التأم شملهم، وتحابوا فيما بينهم، وتودد بعضهم إلى بعض. ولما للصلح من أثر إيجابي فقد حث عليه رب العالمين والنبي الأمين، وكثيرا ما تحدثت آيات القرآن وحثت على ذلك ليدوم الحب ويذهب الكره والتخاصم، نقرأ في مفتتح سورة الأنفال ما يوضح ذلك: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ (الأنفال:١)، وفي سورة النساء يتجلى حرص الإسلام على تصالح الأسرة والاهتمام بها، خاصة المرأة والعمل على إرضائها، إذ هي حجر الزاوية وهي الأم الودود، بصلاحها يصلح المجتمع والعكس، يقول تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ (النساء:٣٥)، وفي ذات السورة جاور الإصلاح التقوى، وكانا قرينين، وفي الآية يوصي الله الرجل بعدم ظلم المرأة لتدوم الحياة على الحب، بسبب الصلح يقول تعالى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾ (النساء:١٢٩)، ويعلمنا الله أهمية الصلح وأنه بدونه لا تستقيم الحياة ولا تسعد الجماعات، فنراه يأمر بالصلح: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ (الحجرات:٩)، ويؤكد في الآية التي تليها على أخوة المؤمنين، ويؤكد على القيام بالصلح؛ آمرا أيضا فيقول تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ (الحجرات:١٠)، والسنة لم تغفل أهمية الصلح، فهاهو ﷺ يتحدث عن ذلك.. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم».

● **طنطاوي عبدالقادر علي**

الهجرة وسنة التدافع

قد يحزن المسلم، وحق له أن يحزن، إذا رأى الضر يحيق بالمسلمين، والأذى يطالهم في غير موضع من عالمنا، تارة بالاضطهاد والأسر، وأخرى بالتعذيب والقتل، وغيرهما بالتهجير والطرد، وإرغامهم على ترك ديارهم وأموالهم وأوطانهم قسرا، ويزداد الحزن إذا رأى المسلم التطاول على الذات الإلهية أو الإساءة إلى رسول الله ﷺ، أو نبي من الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والتسليم، غير أن المتدبر للقرآن الكريم وسيرة النبي الأمين، وكذا سير الأنبياء والمرسلين يعلم يقينا أن هذا كله يدخل في تلك السنة الإلهية التي بينها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ﴾ (الحج:٤٠)، وهذا التدافع من أجل حكمة جلت وعظمت لا يعلمها إلا الله وحده، وقد تتبين لنا تلك الحكمة بين الحين والحين.

في كل مرة من المرات التي تحدث فيها مواجهات بين أتباع الحق وأتباع الباطل، يحدث سجال ومناظرات، يعرض كل فريق بضاعته التي يدافع عنها، بكل ما أوتي من قوة؛ مما يجعل الناس تنتبه لدعوة الفريقين، وهي فرصة ثمينة للعقل السوي كي يميز بين الغث والسمين، والغي من الرشاد، وإذا قرأنا قصص دخول كبار الصحابة الإسلام نجد أن هؤلاء فكروا في هذا الدين وما يدعو إليه من أخلاق وآداب، كما جذبهم إليه عناد الكافرين واضطهاد أهله، فعلموا عن يقين وافتناع أنه دين الحق، ولعل إسلام عمر بن الخطاب، وحمزة بن عبدالمطلب، والطفيل بن عمرو، وخالد بن الوليد وغيرهم، لأكبر دليل على أن الصراع والتدافع بين الحق والباطل ينتج عنه الخير دائما، حيث ينتصر الحق ويزهق الباطل.

● **كمال عبدالمنعم محمد خليل**

الحج ينفي الفقر

● ثلاثة تنفع في الدنيا مع ثوابها في الآخرة: الحج ينفي الفقر، والصدقة ترد البلاء، والبر يزيد في العمر.
● ثلاثة من كن فيه فقد أصاب البر: سخاء النفس، والصبر على الأذى، وطيب الكلام.
● ثلاث خلال من برئ منهن نال ثلاثة: من برئ من الشهرة نال العز، ومن برئ من البخل نال الشرف، ومن برئ من الكبر نال الكرامة.
● ثلاث من لم يرغب فيهن بُلي بست: من لم يرغب في الإخوان بلي بالعداوة والامتحان، ومن لم يرغب في السلامة بلي بالشدائد والامتهان، ومن لم يرغب في المعروف بلي بالندامة والخسران.

(إحياء التراث في ما جاء في السبع والثلاث للعلامة ابن عقيل النجدي)

الطواف (لا يشتبه عليك الأمران)

ذكر الشيخ عبدالرحمن بن قاسم في حاشيته على «الروض المربع» أن من بدع الطواف رفع الإنسان يديه إذا حاذى الحجر الأسود كرفعها لتكبيرة الإحرام. اهـ.
ومثله: رفعها عند الصفا والمروة، وكذلك رفعهما عند رؤية الهلال، كل هذه المواضع لا يشرع رفع اليدين فيها كرفعها لتكبيرة الإحرام، وإنما يشرع رفعهما للدعاء كما ترفع في قنوت الوتر، فتأمل، ولا يشتبه عليك الأمران، والله المستعان.

(كشكول ابن عقيل النجدي ص ٦٤)

مواضع الدعاء في الحج

يستحب الدعاء في الحج في ثلاثة عشر موضعا مجموعة في قول القائل:

خلف المقام ومنى وزمزم
ومشعر والسعي والملتزم
وتحت ميزاب وعند عرفة
والجمرات ثم في المزدلفة
وفي الصفا والمروة والطواف
يندب في الحج الدعا لكل واف

(كشكول ابن عقيل النجدي ص ١٩٠)

إعداد: تركي النصر

المواقيت المكانية للحج

عرق العراق يلملم اليمن
وبذي الحليفة يحرم المدني
والشام جحفة إن مررت بها
ولأهل نجد قرن فاستبن

(كتاب الصبابات ص٤٨)

الاتعاظ من أعمال الحج

يقول الإمام موفق الدين ابن قدامة رحمه الله: إن في كل فعل من أفعال الحج تذكرة وعظة للمعتبرين، فمن ذلك:
● أنه يتذكر بتحصيل الزاد للسفر؛ التزود من الأعمال الصالحة لسفر الآخرة.
● فإذا فارق وطنه فليتذكر ميقات يوم معلوم، وهو يوم القيامة وما فيه من الأهوال العظام.
● وعند تجرده من المخيط والثياب إذا لبس المحرم رداءه؛ فليتذكر لبس كفنه بعد وفاته.
● وإذا رأى البيت الحرام استحضر عظمته في قلبه، وشكر الله على تبليغه رتبة الوافدين إليه ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ (مريم: ٨٥).
● وليستشعر عظمة الطواف فإنه صلاة.
● يعتقد عند استلام الحجر الأسود بأنه يبايع الله على طاعته.
● وليتذكر عند التعلق بأستار الحجر الأسود في الملتزم والتصاقه به لجوء المذنب إلى سيده وقرب المحب من حبيبه.
● وإذا سعى بين الصفا والمروة فينبغي أن يمثلها بكفتي الميزان وتردده بينهما بالتردد في عرصات يوم القيامة.
● أما الوقوف بعرفة وبجمع والاجتماع في منى؛ فإنه يتذكر فيها الاجتماع الأكبر، الذي يجمع الله فيه الخلق: الأولين والآخرين، وازدحامهم وارتفاع أصواتهم، واختلاف لغاتهم في موقف القيامة.

(كشكول ابن عقيل ص ٢٦٧)

المقصود من الحج

قال العلامة ابن تيمية رحمه الله: «المقصود من الحج عبادة الله وحده في البقاع التي أمر الله بعبادته فيها، ولهذا كان الحج شعار الحنيفية، حتى قال طائفة من السلف: حنفاء لله، أي: حجاجا، فإن اليهود والنصارى لا يحجون».

(اقتضاء الصراط المستقيم ١/٤٤٩)

الحجر الأسود

عن ابن عباس ﷺ مرفوعا: «نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضا من اللبن، فسودته خطايا بني آدم» (أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح).

وعن ابن عباس رضي الله عنه أيضا مرفوعا: «إن لهذا الحجر لسانا وشفتين يشهدان لمن استلمه يوم القيامة بحق» (أخرجه ابن خزيمة، وقال الترمذي: حسن صحيح).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «مسح الحجر والركن اليماني يحط الخطايا حطا» (رواه أحمد، وابن حبان).

وذكر صاحب تحفة الراكع والساجد (ص:٨٧): أن أبا طاهر القرمطي لما وافى مكة اقتلع الحجر من مكانه وحمله إلى الكوفة وهلك تحته في الطريق إليها أربعون جملا، ثم حمل الحجر إلى «هجر» سنة ٣١٧هـ، وبقي الحجر عند القرامطة اثنين وعشرين سنة إلا شهرا، ثم رد إلى مكانه في ذي الحجة سنة ٣٣٩هـ.

ما أراك تعرفه

«زكى رجل رجلا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال له عمر: صحبته في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق؟ فقال الرجل: لا. قال عمر: ما أراك تعرفه».

وعن بعض السلف: «إذا أثنى على الرجل معاملوه في الحضر، ورفقاؤه في السفر فلا تشكّوا في صلاحه إذ ذاك؛ لأن السفر يسيئ الأخلاق، ويكثر الضجر، ويخرج مكامن النفس من الشح والشره».

(الوعظ المطلوب للقاسمي)

تعلق القلوب ببيت الله

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: «أخبر تعالى أنه جعل البيت مثابة للناس يثوبون إليه، ولا يقضون منه وطرا، فالقلوب عاكفة على محبته، دائمة الاشتياق إليه، متوجهة إليه حيث كانت».

(بدائع الفوائد ٤/٢٣٣)

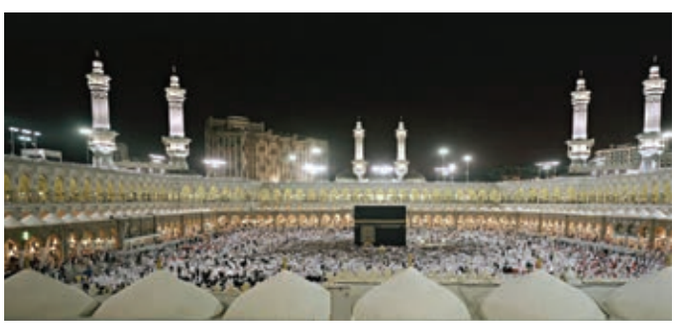

الحج المبرور

قال أبو الشعثاء: «نظرت في أعمال البر، فإذا الصلاة تجهد البدن، والصوم كذلك، والصدقة تجهد المال، والحج يجهدهما».

والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» (متفق عليه).

والحج المبرور: هو الذي لا يخالطه إثم. وقيل: المتقبل. وقيل: الذي لا رياء فيه ولا سمعة، ولا رفث ولا فسوق. وقيل: علامة بر الحج أن تزداد بعده خيرا، ولا يعاود المعاصي بعد رجوعه. وعن الحسن البصري قال: «الحج المبرور أن يرجع زاهدا في الدنيا، راغبا في الآخرة».

الحج.. عبادة الأمة

السنوسي محمد السنوسي
كاتب صحفي

عند التأمل والمقارنة بين العبادات الأساسية التي قام عليها الإسلام، ومثلت «الأركان» من بنيانه الشاهق، وصرحه المرتفع؛ فإننا نجد أن كل عبادة من هذه الأركان الخمسة قد تفردت بميزة عما سواها، وأن «الحج» قد جمع ميزات هذه العبادات كلها وزيادة.

فإذا كانت «الشهادتان» عبادة قولية يستفتح بهما المرء رحلته مع الإسلام والإيمان والإحسان.. وإذا كانت «الصلاة» عبادة بدنية تمثل محطات خمس في اليوم والليلة يقف فيها المسلم خاشعا متبتلا بين يدي ربه.. وإذا كانت «الزكاة» عبادة مالية واجبة على القادر؛ لتحقيق التكافل بين أبناء المجتمع المسلم.. وإذا كان «الصوم» عبادة جسدية، ليس ليستمتع الجسد بما لذ وطاب، بل لينفطم عن رغباته وشهواته جزءا من العام.. فإن «الحج» عبادة تجمع كل هذه المعاني؛ فهو يشتمل على التعبد القولي والقلبي والبدني والمالي.

يضاف إلى ذلك – وهذا هو المعنى المهم الذي يغيب عن كثيرين – أنه إذا كانت العبادات الأربع يغلب عليها أنها تؤدى بطابع فردي، أو في جماعة محدودة (مثل الصلاة)؛ فإن «الحج» هو «عبادة الأمة» كلها. ولذلك، يجب أن يؤدى في زمان واحد ووقت واحد بالصورة الجماعية التي لا تعرف البشرية لها مثيلا.

لقد أراد الله سبحانه بفريضة الحج أن يجمع المسلمين من شتى بقاع الأرض، على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأحوالهم، وأن يكونوا جميعا في صعيد واحد؛ ملبين، مكبرين، مسبحين، متضرعين.

وهذا «الجمع» للمسلمين في الزمان الواحد والمكان الواحد، إنما هو جمع مقصود؛ ليذكر المسلمين بأنهم مهما تباعدت بلادهم واختلفت ألسنتهم وألوانهم، فإنهم أمة واحدة، وجسد واحد.

إن هذا المعنى – التأكيد على وحدة الأمة – هو من أهم المعاني التي يغرسها الإسلام من خلال شعائره المتعددة.. وهو – أي المعنى – في شعيرة الحج أكثر وضوحا، وأشد تأكيدا.

ولذلك، فإن الذين حاولوا – تحت ضغط البحث عن بدائل لحالات الزحام والاختناق التي حدثت في الحج في بعض الأعوام – أن «يجتهدوا» اجتهادا منفلتا وقالوا بضرورة تفرقة الحج على شهور العام؛ بحيث يُخصص لكل بلد، أو مجموعة بلاد، شهر يحج فيه أهله تفاديا للزحام.. هؤلاء قد غاب عنهم هذا المعنى، ولم يفهموا المقصد الأكبر من مقاصد الحج.

والسؤال الذي يجب أن نتلمس إجابته هو: لماذا لا يجعل المسلمون من الحج مؤتمرا جامعا للشعوب الإسلامية التي تأتي من كل حدب وصوب؟

وإذا كان «التعارف» أمرا ندب إليه الإسلام بين الناس جميعا، أفليس حريا بنا أن نحققه في هذه العبادة الجامعة، خصوصا مع الأقليات الإسلامية؟

إن حجيج بيت الله إذا انشغلوا بالذكر والتسبيح والصلاة فحسب، وحصروا همهم في هذه العبادات، التي من الممكن أن تؤدى في أي مكان – رغم أن ثوابها في البيت الحرام أعظم – فما الجديد الذي يمكن أن تضيفه شعيرة الحج إلى حياة المسلمين إلا أن يكون الحج بوتقة للتعارف، ومظهرا للتماسك، وتأكيدا للوحدة، وتجليا لقوة وفتوة هذه الأمة التي تجدد شبابها ووحدتها مرة كل عام.